

القاهرة في عصر اسماعيل عرفت عبده علي



الدار المصرية اللبنانية

القاهرة في عصر إسماعيل / عرفة عبده علي . - ط 2 -
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2021.

232 ص؛ 21 سم.

تدمك: 2 - 312 - 795 - 977 - 978

1- مصر - تاريخ - العصر الحديث - عصر إسماعيل (1863 - 1879 م).

2- القاهرة - تاريخ.

أ- العنوان. 962.034

رقم الإيداع: 2021/ 3392

©

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: 202 23910250 +

فاكس: 202 23909618 + - ص. ب 2022

E-mail: info@almasriah.com

www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: 1998م

الطبعة الثانية: 2021م

تعبير الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف

وليس بالضرورة أن تعبر عن آراء الدار

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،

بأي صورة من الصور، التوصليل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي
مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس
منه، أو تحويله رقمياً أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحتها عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن
كتابي مسبق من الدار.

القصة في عصر أسامة

عرفه عبده علي

الدار المصرية اللبنانية

إهداء

ابنتي.. عبلة

كم تمنيت.. لو اخترت لغة جديدة

أمسح بها على شعرك.. وأعطيك بحنان حروفها

إليك.. يا ريحانة القلب..

ولؤلؤتي الأكرم..

وأيقونتي الأعلى

«لم يستطع شيء أن يمس طابعها الأصيل وجلالها المكنون، هبة لها من حضارة الشرق، ونفحة من سماته، كلاهما خارج عن متناول الزمن وعواديته، إن كنت تأنس لجمالها - حين - يطوف به خيالك، إذ هو بالأمس في قصره، في عز مجده، فإنك أشد أنسًا به وأنت تزوره اليوم... جدران عتيقة يتراكم عليها التاريخ، آية في فن العمارة، في ذروة الصدق، تصون داخلها أمثلة رائعة لجمال، تحكي في صمت قصة آلاف من الفنانين بناء الحضارة، عملوا في ورع وهم متطهرون، ثم ضموا لا يعرف أسماءهم أحد ولا يذكرهم أحد!...

هذه هي القاهرة، إن كنت لا تعرفها يا أخي فاعرفها.. إذن ستحبها.. ستعشقها.. ستتضم إلى زمرة عشاق لها كثيرين، هاموا بها.. عشق بالغريزة، بالإرث، بالقسمة والنصيب، والحمد لقد لا تغل تصاريفه..»!

«يحيى حقي»

كلمتي للتاريخ..!

قرن كامل من الزمان.. مضى على رحيل «إسماعيل باشا العظيم» عن دنيانا.. وقد مرت الذكرى المئوية (2 مارس 1895م) دون أن يتذكرها أحد!!

ذلك الرجل الذي كان عصره: أكثر عصورنا التاريخية الحديثة ثراءً وحركة شاملة في جميع المجالات، وقد وافى الخديو إسماعيل أمته، وهي في مفترق الطرق، تتنازعها حضارتان: حضارتها العربية الإسلامية تنزع إليها بحكم الموروث والتقاليد.. والحضارة الغربية الحديثة، تندفع نحوها بحكم التجديد..

وقد آثر إسماعيل، الإصلاح القوي العنيف، من أجل الأخذ بأسباب الارتقاء الحضاري في العمران والزراعة والصناعة والتجارة والتعليم والقضاء والنظم السياسية والإدارية.. وكان في كل هذا: الروح الملهمة واليد المحركة، في عصر زاخر بالإنشاء والتجديد، والبناء والتشييد. وقد يختلف المؤرخون في إسماعيل باشا، لكنهم يتفقون على عظمة شخصيته التي لم تعرف المستحيل.. ولا يمكن لجيل من الأجيال - خاصة جيل نهاية القرن العشرين - أن يدرك مقدار عظمة إسماعيل، إلا إذا تصور مصر حين اعتلى إسماعيل باشا عرشها، لكن التاريخ المنصف لا يملك إلا أن يؤدي واجب الحق، إذا تحدث عن الذين بنوه، وحددوا معالمه، وكانت لهم الكلمة الأولى في صنع وتوجيه أحداثه!

وإذا كانت معالم تاريخ مصر وآثار ملوكها، منقوشة على جدران القاهرة: معابدها، مقابرها، قصورها، أسوارها، مساجدها، كنائسها، شوارعها، خططها... على كل منها صفحة من صفحات التاريخ، لعهد من العهود، إلا أن «إسماعيل باشا» لم يترك هذا الأثر فحسب، أو يدون صفحة.. بل حفظ للعصور السالفة آثارها، ورسم للأجيال خططاً لمعالمها.

تمهيد..

القاهرة الحديثة..

منذ عصر محمد علي باشا

إلى عصر سعيد باشا

أدرك محمد علي باشا - مؤسس الدولة الحديثة في مصر - منذ أن تولى عرش البلاد عام 1805م، أنه لن يستطيع أن يرقى بمملكته، إلا إذا نقل إليها الحضارة الأوربية، أو بمعنى أدق «ترجمة الحضارة الأوربية» والأخذ بأسباب نهضة علمية حديثة شاملة، بعد أن تخلص من الأرستقراطية المملوكية القديمة، وبدأ سياسة تحديث النظم السياسية والإدارية والاقتصادية، إلى جانب محاولاته لتطوير صناعات متقدمة، واكبها توسع تجاري هائل.

ومحمد علي باشا الذي ولد بمدينة «قولة» بمقدونيا في شمال اليونان، والإسكندر العظيم كان ينتمي أيضاً إلى مقدونيا، قلب تبعيته للسلطان العثماني إلى نظام حكم فريد، وطموحات بلا حدود، وخص نابوليون بإعجابه الشديد وأراد أن يقتبس كل تطبيقات المدنية الغربية الحديثة، ومما لا شك فيه، أن وصول الباشا في حكم مصر، كان نقطة تحول هامة في تاريخ القاهرة.. انظر لوحة (1).

وطابع القاهرة - في بداية عصره - استمد إشعاعه من القلعة، التي شيد فيها «قصر الجوهرة» بالقرب من باب العزب، حيث تدوي صرخات أشباح المماليك الذين أفناهم في المجزرة الشهيرة.. وأوصل الإسكندرية بالقاهرة، بحفر ترعة المحمودية، وشيد القناطر الخيرية التي لم تستقر دعائمها إلا في العقد التاسع من القرن الماضي، وقد تكون إصلاحاته سابقة لأوانها، إلا أنها انبعثت من دوافع شخصية بجعل مصر قاعدة لإمبراطورية شرقية!

في مستهل القرن العشرين، كتب الرحالة «أوجست لامبلوف» يصف القاهرة بعين فاحص مدقق، فقال:

«.. يفصل القاهرة الأوروبية عن القاهرة الشرقية، شارع طويل يمتد من محطة السكك الحديدية، ماراً بالفنادق الضخمة حتى قصر عابدين.. وهي عامرة بالمحال الكبيرة والدور العظيمة والعربات الأنيقة، والمارة يتزيون بالملابس النظيفة المهندمة، تماماً مثل أي مدينة أوروبية، أما القاهرة القديمة الواقعة في شرقها، فهي على حالها لم تتغير منذ قرون»!

وقد كان الفارق بين المدينتين من العظم بما دفع «وليام مورتون» إلى أن يتنازل عن النعرة الإنجليزية المعهودة، فيكتب عن القاهرة التي زارها عام 1889م، قائلاً:

«.. لا يملك الزائر حينما يرى مباريات لعبة البولو والحفلات والمسابقات وألعاب الفروسية، إلا أن يأخذه الإحساس بأنه في مدينة إنجليزية!.. احتفظ أهلها بقدر من المناظر الشرقية - العجيبة -

لإرضاء نزعتهم الجمالية فحسب»!

هكذا باتت القاهرة، والقرن التاسع عشر موشك على الرحيل، منقسمة إلى مجتمعين متميزين في طبيعتهما، وكانت الهوة أكثر اتساعاً من ذلك الشارع الفاصل بينهما، إذ اتسعت الشقة بين ماضي مصر وحاضرها في نهاية القرن الماضي، لتصبح هوة عميقة، بعد أن كانت مجرد خدش في مظهره، ولم تكن الطبيعة الازدواجية للمدينة، إلا تعبيراً عن الانقسام الحضاري والثقافي.

وإذا استعرضنا أهم جوانب ومظاهر الحياة في المدينتين، سنجد أن الفارق بينهما أصبح شاسعاً.. بالرغم من تجاور مبانيهما!

فما زالت «القاهرة الإسلامية» - في جوهرها - مدينة من مدن ما قبل «الثورة الصناعية» من حيث التقنية والبنية الاجتماعية وأنماط الحياة، وإلى الغرب منها، نشأت القاهرة الأوروبية، بتقنياتها المعتمدة على التكنولوجيا الحديثة وإيقاع أسرع، ومنشآت ومركبات وهوية أوروبية أسبغتها على نفسها..

ازدانت «القاهرة الحديثة» بشوارع مستقيمة فسيحة مرصوفة، وأحواض الزهور، وأشجار نادرة تحف بها، تستمتع بالهواء المتجدد، وتستقبل أشعة الشمس، وتتقاطع بزوايا قائمة أو تتلاقى بين الحين والآخر في ميادين مستديرة، وتتم بحدائق فرنسية الطابع، منسقة تنسيقاً بديعاً، بينما القاهرة القديمة محرومة من الحدائق، وشوارعها لا تحف بها الأشجار التي يمكن أن تكسر حدة لوني التراب والطين اللذين يغطيان بيوتها ومنشآتها، وكانت أحيائها تعتمد على السقائين، في حين أن سكان القاهرة الحديثة، يتمتعون بشبكة جيدة لمياه الشرب، وتضاء شوارعها بالأنوار الغازية، بينما الظلام يضرب أطنايه على المدينة الشرقية إذا حل الليل وأرخى سدوله، وبينما كانت القاهرة الشرق محطاً للقوافل من كل حدب وصوب، وأبناؤها ينتقلون على ظهور الإبل والحمير أو سيراً على الأقدام.. كان دخول القاهرة الحديثة عن طريق السكك الحديدية، ويستقل المسافرون بعد وصولهم مركبات إنجليزية الطراز، تجرها الخيول، للتنقل خلال المدينة.

تبين للباشا أن الصورة البشعة التي كانت عليها القاهرة، لا تليق بعاصمة ملكه، فوجه عنايته إلى التخلص من الأنقاض والآكام والدور المتهدمة، فأصدر أمراً عالياً، بإعداد حملة من المهندسين للكشف عن منازل القاهرة، فيشير «الجبرتي» في تاريخه لحوادث ذي القعدة عام 1231هـ/1815م إلى «أن الباشا أطلق المناداة في البلدة، وندب جماعة من المهندسين والمباشرين للكشف على الدور والمساكن، فإن وجدوا بها أو ببعضها خللاً، أمروا أصحابها بهدمها وتعميرها، فإن عجزوا عن ذلك، أمروا بالخروج منها وإخلائها ويعاد بناؤها على طرف الميري وتصير من حقوق الدولة»..

وفي العام التالي، أصدر أوامره بضرورة كنس ورش الشوارع، وتنظيف الأسواق، وإنارة شوارع المدينة، وإيقاد القناديل على أبواب المنازل، وأن يخصص لكل ثلاثة حوانيت قنديل، وكان محتسب القاهرة يتابع تنفيذ هذه الأوامر بنفسه.

كان ظهور العربات الفخمة التي تجرها الخيول، أمرًا مدهشًا ومثيرًا للفضول، مثل تلك العربة التي أهدتها الحكومة الفرنسية لمحمد علي عام 1824م، مصحوبة بخطاب «شاتوبريان» وزير خارجية فرنسا، أعرب فيه عن اعتزازه بالفترة التي قضاها بالقاهرة قبل 16 عامًا، وكتب الرحالة جوزيف ديستورميل «.. كان جميع المارة يقفون للتعبير عن إعجابهم الصامت بعربة الباشا، التي بدت لهم أكثر عجبًا من الأهرامات»!!

وفي عام 1829م أزيلت الآكام الملاصقة للنيل شمال قصر العيني، والتي عرفت بكوم العقارب، وكان مسطحها تسعة أفدنة، فأزيلت في 393 يومًا، كذلك أزيلت التلال فيما بين حي الناصرية وجاردن سيتي، ومساحتها 38 فدانًا، وغرست بأشجار الزيتون، كما أزيلت الآكام التي كانت تسد الطريق إلى شبرا، بجوار قنطرة الليمون، لتتحول إلى منتزه عام.

وفي عام 1831م، صدر قرار بتعمير أراضي الخرائب، سواء أكانت مملوكة أم موقوفة، بعد إحصائها وتحديد مساحتها، وبالرغم من الدمار الهائل الذي ألحقته قوات الحملة الفرنسية بالقاهرة، إلا أن بعض مشروعاتها قد مهدت الطريق أمام الإجراءات التنظيمية التي اتخذها محمد علي، وإن ظل الأسلوب التقليدي في معالجة المشاكل الحضرية اليومية، ويشير الرحالة «سان جون» في عام 1832م إلى أن الشوارع «كانت فيما مضى قذرة ومقززة، لكنها الآن - في معظمها - نظيفة بطريقة ملفتة للنظر، إذا يتم كنسها ثلاث مرات يوميًا، وتقوم أربعمئة عربة تجرها الثيران الصغيرة بنقل القمامة خارج المدينة».

ويذكر «إدوارد لين» المستشرق البريطاني الشهير، في عام 1835م، ما تم التوصل إليه لحل مشكلة مصاطب الحوانيت التي كانت تعوق المرور في الشوارع: «لقد أزال محمد علي المصاطب من الشوارع المزدحمة، ولم يسمح بها إلا في الأماكن الأكثر اتساعًا، وبشرط ألا يزيد عرضها عن شبرين، وفي الوقت نفسه، أمر التجار بدهان حوانيتهم، وبإزالة السقوف المصنوعة من الحصير، التي تظلل بعض الأسواق، ولم يسمح بإحلالها إلا بالسقوف الخشبية، وبعدها أمر الباشا السكان بدهان واجهات منازل القاهرة باللون الأبيض».

وفي عام 1843م، أصدر محمد علي باشا أمرًا عاليًا، بإنشاء مجلس للإشراف على تجميل القاهرة، وتعديل شوارعها، أسوة بما استحدثت بالإسكندرية، فقد كان عدم انتظام شبكة الشوارع يمثل إحدى العقبات الرئيسية أمام تحديث المدينة، وأصبح من الضروري فتح المدينة أمام نوعية جديدة من المرور..

وفي عام 1846م، صدر الأمر بفتح وتوسيع شوارع الموسكي وبولاق وفم الخليج والقلعة، وفي إطار «التنظيم الجديد» شرع في شق طريق من الموسكي إلى الأزهر، وهو تقريبًا نفس المشروع الفرنسي، الذي يقطع المدينة من الشرق إلى الغرب، ويفتح المنطقة أمام التجار الأوروبيين، وسمي فيما بعد «السكة الجديدة» بلغ عرضه ثمانية أمتار وهي أبعاد كبيرة للغاية بالنسبة لشوارع ذلك العصر.

وفي عام 1847م، شرع في توسيع الشارع من باب الحديد إلى الظاهر والمتصل بطريق السويس، كما جرت توسعة لشارع درب الجماميز، وباب الخلق والمشهد الحسيني، وغرست الأشجار بتلك الشوارع، وتم تمهيد طريق متسع بين وسط القاهرة وشبرا، يمر بموضع ميدان رمسيس حالياً، وغرست على جانبيه أشجار الجميز واللبخ، فكان من أجمل منتزهات القاهرة وفي حي شبرا، شمال غرب المدينة، شيد محمد علي قصره، الذي كان نهاية في الفخامة والأبهة.

وفي نفس العام 1847م، وفي إطار خطة عمل «مجلس تنظيم المحروسة» رُئي تسمية الشوارع وترقيم الدور «كأسلوب أوروبا مما يستوجب المنافع العظيمة للمملكة، ويورث السهولة لمن يقصد زقافاً أو بيتاً، سواء كان من الأهالي أو من الأجانب، استقر الأمر بمجلس تنظيم المحروسة على التدابير اللازمة لذلك طبق الإرادة السنوية...» كما ورد في ديباجة الأمر بهذا الشأن، الذي أشرف على تنفيذه أربعة من ضباط المدفعية.

وعندما قرر الباشا أن ينقل مقر الحكم من الأزبكية، ليعود مرة أخرى إلى القلعة، قام بهدم عدد من الصروح التي شيدها سلاطين المماليك، مثل الإيوان الكبير، وأعاد رسم أسوارها وتحسينها، وشيد في أقصى الجنوب «قصر الجوهرة» وإلى الشمال قصور الحريم، التي تشكل حالياً المباني الرئيسية للمتحف الحربي، ثم مسجده الجامع الذي شيده على طراز مساجد استامبول.. انظر لوحة (2).

ويقول الرحالة الفرنسي «إدمون بوتيه»: «من قصر الجوهرة، يمكننا الاستمتاع بمنظر جميل يمتد فوق المدينة، ويصل إلى ما وراء النيل والأهرامات، ومن ناحية جامع محمد علي نرى عبر حديقة رائعة، المآذن الممشوقة التي تدعو الروح إلى التحليق في السماء!»

واتجاه الباشا نحو التصنيع، كان له أثره على «بولاق» التي عانت أضراراً كثيرة إبان الحملة الفرنسية، بدأت تشهد نشاطاً كبيراً، عندما أنشأ بها ترسانة بحرية وداراً لصناعة السفن، سنة 1814م، كما أقام منطقة للصناعات الأساسية في السبتية، شمال شرق بولاق، وأقام مصنعاً للنسيج عام 1818م، ومسبكاً للمعادن عام 1820م، ومدرسة الهندسة المدنية عام 1821م، التي أصبحت معهداً لمختلف العلوم الهندسية، ثم مطبعة بولاق الشهيرة عام 1822م، ليتغلب الطابع الجديد لبولاق كمركز تجاري وصناعي على وظيفتها كميناء وضاحية للنزهة على ضفاف النيل.. وهكذا كان مستقبل القاهرة يتحدد خارج نطاق المدينة القديمة!

ويذهب العالم الفرنسي «أندريه ريمون» إلى أنه «لا يوجد ما يشير إلى حدوث أي تطور بالمدينة، يمكن أن يعكس التغيرات الكبيرة التي شهدتها مصر خلال تلك الفترة وتعتبر خريطة - جران بك - عام 1874م بالغة الدلالة بشأن هذه المسألة، فقد تركزت اهتمامات الباشا على مدينة الإسكندرية، التي حلت محل القاهرة كمركز للتجارة الدولية، واستفادت من نتائج آثار التغيرات الاقتصادية.. فقد أراد أن يصنع من مصر قوة عظمى، فقام بتشجيع مدينة تتجه نحو البحر المتوسط الذي شكل - المسرح الرئيسي - لاهتماماته الدبلوماسية... كما كان يتخذ سياسة مناقضة تجاه القاهرة التي يرتاب

فيها ويحذر منها، لأنه يحاول القضاء على مجتمعها المرتبط بالماضي، والذي يمكن أن يفرز الفتن والقتل..!»

وفي إبريل عام 1847م، ترك محمد علي مقاليد الحكم في يد ابنه «إبراهيم باشا» بعد أن أصابه الهرم وشاخ عقله، وأصبح إبراهيم باشا حاكماً رسمياً للبلاد، وهو صاحب الفتوحات العظيمة في بلاد الشام والجزيرة العربية، وحروبه التاريخية في اليونان وتركيا وانتصاراته الباهرة التي أثارت ذعر دول أوروبا فتحالفت ضد جيوشه، وقد وجه عنايته خلال فترة حكمه القصيرة (توفي في 10 نوفمبر 1848م) إلى تقوية ثغور البلاد وتنمية القوة الحربية للجيش والأسطول، وأمر بتنظيم مجلس في القاهرة، أطلق عليه «جمعية الحقانية» لاختصار الإجراءات المتبعة في سير القضايا، كما أصدر أمره بترجمة عدد من المؤلفات الفرنسية إلى اللغة العربية، في القانون والآداب والفنون والنظم الإدارية..

شيد «الفتاح» إبراهيم باشا، قصر الروضة، بجزيرة الروضة، وعلى جزء من بساتين هذا القصر، شيد الأمير محمد علي توفيق السراي المعروفة اليوم بـ «متحف قصر المنيل».. وشيد «القصر العالي» عام 1835م، في المنطقة التي كانت تعرف بـ «بستان الخشاب» والتي أدخلها محمد علي في أملاك ولده إبراهيم باشا.. كما شيد قصرًا وبساتين بجزيرة الزمالك، على جزء منها شيد إسماعيل باشا قصر الجزيرة.

بعد رحيل إبراهيم باشا، تولى مقاليد الحكم: عباس حلمي الأول بن أحمد طوسون بن محمد علي باشا، والذي صدر فرمان ولايته في 9 ديسمبر 1848م.

كان عباس الأول مزيجًا من الجهل والتخلف والتقلب، عاش في عزلة عن رعيته، مقيمًا في قصور حصينة بالصحراء أو على ساحل البحر.. وكانت فترة حكمه - ردة قصيرة - عن سياسة التحديث التي بدأها جده محمد علي باشا، فأمر بتسريح الكثير من جنود وضباط الجيش، وأغلق المدارس والمصانع التي شيدها محمد علي، ثم ألغى «مدرسة الألسن» عام 1850م، التي خرّجت العشرات من رواد النهضة المصرية الحديثة، ونفى مديرها «رفاعة الطهطاوي» إلى السودان، بعد أن ظل ناظرًا لها طيلة خمسة عشر عامًا، فكان مثالًا للحاكم الذي رسخ في يقينه: أن قيادة شعب جاهل، أيسر من قيادة شعب على قدر من العلم والثقافة!

ومن الصعوبة أن نتخيل.. أنه بوسع مؤرخ رسم صورة كريهة كنيية لحاكم، كذلك التي رسمها لنا من عاصروا وأرخوا لهذا العباس، فليس هناك من منقبة واحدة تجعلنا نتعاطف معه، إلا أنه قام بخطوتين، كان لهما أبعاد الأثر في تطوير القاهرة:

الأولى: منحه للبريطانيين امتياز إنشاء خط سكك حديدية بين الإسكندرية والقاهرة.

الثانية: إنشاؤه منطقة ضمت بعض الثكنات العسكرية، في صحراء شمال شرق القاهرة، تحمل اسم «العباسية» نسبة إلى اسمه.

خضع عباس الأول للضغوط البريطانية، ووقع اتفاقية إنشاء خط السكة الحديدية بين القاهرة والإسكندرية، في صيف عام 1851م، وكان هذا بديلاً عن المشروع البريطاني الخاص بمد سكة حديدية بين السويس والقاهرة، والذي تحفظ عليه محمد علي في عام 1847م، ولم يكن راغباً في تنفيذه.

كان هدف الحكومة البريطانية، تيسير حركة نقل الجنود والتجارة والبريد، بين أوروبا والمستعمرات الإنجليزية في الهند - عبر مصر - دون المساس بسيطرتها واحتكارها لطرق الملاحة والنقل حول رأس الرجاء الصالح، وبالفعل تم الانتهاء من تنفيذ خط القاهرة - الإسكندرية في عام 1845م، قبيل مصرع عباس، وافتتح رسمياً عام 1856م، في عهد الخديو سعيد باشا، ليكون أول خط حديدي أنشئ في الشرق قاطبة، وتتضح أسبقية مصر، إبان زيارة السلطان التركي عبد العزيز لمصر سنة 1863م حيث تملكته الدهشة عندما استقل القطار من الإسكندرية إلى القاهرة، إذ لم يكن رأى القطارات البخارية في حياته من قبل..!

وأفادت القاهرة من هذا المشروع، فبعد أن كانت الرحلة بين القاهرة والإسكندرية تستغرق في الماضي أربعة أيام، أصبحت بعد تنفيذ المشروع لا تستغرق سوى بضع ساعات.

وفي شمال شرق المدينة، الحي الذي عرف قديماً باسم «العباسية البحرية».. ولن يكون بمقدورنا أن نتقهم ما وراء نشأة هذا الحي - المنعزل آنذاك - التي ترجع إلى عام 1849م، إلا إذا عرفنا الطبيعة الانعزالية لعباس الأول، وأنه بالإضافة الوحيدة التي أسهم بها في نمو القاهرة.

كان محمد علي قد تخلص من الجند الألبان المرتزقة، الذين أثاروا المتاعب في البلاد، بالرغم من أنهم أسهموا بسيوفهم في وصوله للعرش، واستبدل بهم جيشاً من المصريين، غير أن عباس استعان بالمرتزقة في جيشه، وإدراكاً منه لطبيعتهم الجانحة للتمرد والثورة وافتقارهم لروح النظام، قرر توطينهم خارج العاصمة، فأقام لهم سلسلة من الثكنات على حافة الصحراء، بطول الطريق الممتد إلى قريتي المطرية وعين شمس الواقعتين خارج حدود القاهرة - آنذاك - وسرعان ما نشأت حول هذه النواة، مجموعة من الحوانيت والمصانع الصغيرة ومساكن خاصة بالضباط والتجار، بالإضافة إلى قصر الباشا «سراي الحصوة» ومدرسة حربية ومستشفى، مما دفع بحركة العمران فيما بعد.. يمكننا القول بأن نوعاً من «الأحياء الملكية» قد بدأ يتكون في هذه المنطقة، مما يعيد إلى الأذهان قصة إنشاء القاهرة.

غير أن القدر لم يمهل عباس الأول، لكي يمضي في تدعيم وتطوير مدينته، فكان مصرعه المفاجئ بعد خمس سنوات، سبباً مباشراً في توقف نمو العباسية مؤقتاً، إذ تخلص خليفته سعيد باشا من المرتزقة، ووضع جنود الجيش الجدد في ثكنات تطل على النيل وهكذا هجرت العباسية على نحو غير منتظم، مثلما نشأت على نحو سريع مفاجئ!

بعد نحو خمسة عشر عاماً، وصف «ولكنسون» هذه البقعة، قائلاً: «أثر تعس!.. مازال يحمل اسم مشيده، ومأله في بضع سنين إلى الخراب اليباب»!.. وهي نبوءة أثبتت الأيام أنها كانت مسرفة في

التشاؤم، إذ ظلت العباسية حيًا نائيًا، إلى أن نزل بها الجيش البريطاني عام 1882م، ثم اندمجت في كتلة المدينة، في العقد الأول من القرن الحالي، حينما انتشر العمران حولها بخطى ونيّدة، نتيجة لإقبال المستثمرين على المضاربة العقارية على أراضيها ومنشأتها التي تضاعفت قيمتها الشرائية.

وإلى عصر عباس الأول، يعود تاريخ بناء أحد أشهر معالم القاهرة، وأعني به «فندق شيرد» شكل (3).. الذي استغل مؤسسه «صامويل شيرد - S. Sheppard» فرصة لقائه بعباس باشا في رحلة صيد، لينتزع منه وعدًا بتخصيص موقع له ينشئ عليه فندقًا عالميًا، ولم يكن هذا الموقع سوى مدرسة الألسن الشهيرة، كما كتب لأخيه في نوفمبر 1849م: «حصلت على موافقة الباشا، بتخصيص مبنى مدرسة هامة، لتشييد فندق، أقوم الآن بوضع تخطيط له»!

وهذه المدرسة كانت جزءًا من قصر «الألفي بك» المطل على بركة الرطلي بالأزبكية، وأقام به نابليون، فصار مقرًا لقيادة الحملة الفرنسية في مصر، كما أقام به لبعض الوقت محمد علي باشا، الذي أمر بتخصيص جزء منه لمدرسة الألسن في ذروة النشاط العلمي في عصره، التي أغلقها عباس، لتصبح مهياة لإقامة هذا الفندق، والذي قدر له أن يحرز شهرة عالمية ضخمة، حتى أصبح رمزًا من رموز القاهرة. انظر لوحة (3 أ) ولوحة (3 ب).

كان أبرز معالم عصر سعيد باشا: اتفاقية حفر قناة السويس عام 1854م، التي وقعها مع «فرديناندي ليسبس».. والتي حققت نتائج باهرة للقاهرة، حيث وضعتها على الطريق الكبير نحو الشرق، وجعلها حلقة أساسية في شبكة المواصلات العالمية، لتندمج مصر نهائيًا في النظام السياسي والاقتصادي العالمي.

أضف إلى هذا، افتتاح خط السكة الحديدية بين القاهرة والإسكندرية، في العام نفسه، ليصبح الطريق ممهدًا ومفتوحًا لتحقيق التواصل الأوروبي بالقاهرة، على نحو لم يسبق له مثيل، فإلى حد ما، كانت القاهرة محمد علي مدينة معزولة نسبيًا، منغلقة على نفسها فأن لها أن تنطلق لتجوز حدودها، وأن تمد أبصارها خارج آفاق مصر!

وفي عام 1856م، شيدت «المحطة القديمة» الرئيسية للسكك الحديدية - التي احترقت عام 1893م - في الزاوية الشمالية الغربية للمدينة، في موقع ميناء «المقس» الذي يعود تاريخه إلى العصر الفاطمي، وإليه امتدت أسوار القاهرة في عهد صلاح الدين، وقد أخذت المحطة اسمها من إحدى البوابات الشهيرة لهذا السور، والتي عرفت بـ «باب الحديد».. وقد أزالها محمد علي قبيل سنوات من نهاية عصره، بعد أن كانت أبرز معالم المنطقة في الماضي، وكان اختيار هذا الموقع لإنشاء المحطة الرئيسية - خارج حدود المدينة - عاملاً مؤثرًا في التطور البيئي للمنطقة المحيطة بها، وتشجيع حركة العمران، وتزايدت الهجرة إلى القاهرة، من المصريين والأجانب على السواء، وإنشاء الكثير من الفنادق والمتاجر والمقاهي بالحى القبطي، فيما بين ميدان المحطة ومنطقة الأزبكية.. انظر لوحة (4).

وبينما كانت حركة التعمير تنمو على جانبي شريط السكة الحديدية، قام سعيد باشا بتشديد ثكنات قصر النيل - التي شيد في موقعها نفسه فندق هيلتون النيل ومبنى جامعة الدول العربية - الأمر الذي أثار الاهتمام بالمنطقة الواقعة غرب القاهرة، وهي التي ستتركز فيها المعالم الأساسية للمشروع الحضاري للخديو إسماعيل مستقبلاً. انظر لوحة (5).



لوحة (1)

محمد علي باشا.. مؤسس الدولة الحديثة في مصر



لوحة (2)

جامع محمد علي وسور القلعة -
عام 1860م



لوحة (3 أ)

فندق شبرد عام 1869م.. وإلى اليمين الشجرة التي لقي تحتها الجنرال كليبر مصرعه

لوحة (3 ب)

البناء الثاني لفندق شبرد بشارع إبراهيم باشا (الجمهورية حالياً) والذي احترق في 26 يناير 1952م



لوحة (4)

محطة مصر الشهيرة بباب الحديد في نهاية القرن الماضي

لوحة (5)

فندق «هيلتون النيل»



القاهرة في عصر إسماعيل

بعض الزمان يتعلق بأحجار المباني ويلتصق بها كالتراب.. وتاريخ القاهرة، هو تاريخ مصر، ومن يتصفح ما دوّنه المؤرخون والرحالة، لا يمكن أن يخطئه هذا الإحساس، فقلب القاهرة هو دائماً قلب مصر، حضارياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً.. سواء كان في ساحة الأزهر قديماً أو في ميدان التحرير حديثاً، وإذا كان القلب القديم عتيق الطراز في أفول وانكماش مطرد شرقاً، ففي الغرب، كان القلب الجديد - في عصر إسماعيل - يتنامى ويزدهر مبشراً بعصر جديد.. وفكر جديد..

في رسالة بعث بها من القاهرة إلى صديقه، في يناير سنة 1850م، كتب الأديب الرحالة الفرنسي الشهير «جوستاف فلوبير - J. Flaubert»: «

نحن الآن في القاهرة، فما الذي يمكنني أن أقوله عنها؟.. وما الذي يمكنني أن أكتبه لك؟.. فحتى الآن، لم أكد أتجاوز الانبهار الأول، فكل تفصيل يبرز لكي يمسك بك ويبرّحك، وكلما ازداد تركيزك عليه، كلما قل استيعابك للكل، ثم شيئاً فشيئاً يصبح كل ذلك متناغماً، وتتكامل الأجزاء من تلقاء نفسها، وفقاً لقوانين المنظور، أما في الأيام الأولى، فيشهد الرب أنها كانت فوضى ألوان محيرة»!

لقد استعصى وصف القاهرة على «فلوبير» في أيامه الأولى بها: اضطراب بصري وفوضى ألوان، وتفاصيل ترفض أن تتشكل في صورة.. ففي شوارع القاهرة أحاديث وحوارات بلغات متعددة، كرنفال أزياء غريبة، ألوان صارخة، وزحام صاخب وروائح غير مألوفة! انظر لوحة (6).

كانت تلك صورة القاهرة في منتصف القرن التاسع عشر، حتى 1863م، الذي كان عامًا هامًا في تاريخ القاهرة، فهو العام الذي تولى فيه الخديو إسماعيل (18 يناير) حكم مصر (شكل 5 مكرر) ومنذ ذلك اليوم، عقد العزم على أن يمنح القاهرة وجهًا عصريًا، هو الذي نلمس بصماته الواضحة في يومنا هذا.. ليكون أول حاكم منذ تسعة قرون يرتبط بمشروع شامل لتحديث المدينة، ليستكمل المشروع الأكبر «مصر الحديثة» الذي بدأه جده محمد علي باشا. فكل الظروف كانت مهيأة لهذا الإنجاز الضخم، وعلى رأسها القوة الاقتصادية الناتجة عن الارتفاع المفاجئ لأسعار القطن، بسبب انسحاب الموردين الأمريكيين من السوق العالمي إبان الحرب الأهلية، والشروع في تنفيذ فكرة قناة السويس، قد منح مصر مزيدًا من الاهتمام الأوروبي ومزيدًا من الموارد، التي أفاد منها إسماعيل سياسياً لدعم فكرة الاستقلال عن الباب العالي، حتى منح لقب خديو في 8 يونيو عام 1867م، كما أنفق منها ببذخ شديد على شتى مظاهر الدولة العصرية، بلغت ذروتها في الاحتفالات الأسطورية بافتتاح قناة السويس عام 1869م.

كان تحديث القاهرة بالنسبة لإسماعيل: رمزًا لارتقاء مصر حضارياً، وتجسيدًا لرغبته العارمة في أن يشهد الغرب - عاصمة أوروبية في القاهرة - تحكم دولة عصرية تقوم على ضفاف النيل، تمتد من الإسكندرية إلى الخرطوم.

تأهبت القاهرة للدخول في عصر جديد من العمران الحضري «City Building» ففي ربيع عام 1867م أقيم معرض باريس الدولي الذي كان فكرة البارون «هاوسمان - Haussmann» وذروة سجل أعماله الخالدة، حين كان يشغل آنذاك منصب محافظ السين - Préfet de la Seine ولأكثر من خمسة عشر عامًا، استطاع خلالها أن يعيد تخطيط جزيرة المدينة - Ile de la Cité بقلب باريس، والمناطق المحيطة بها، وعمد إلى إضافة مساحات من الحدائق المنسقة وسط أبنيتها، وإنشاء وتمهيد طرق متسعة بها، في أسلوب صار يعرف باسمه، كما قام بتزويدها بالمرافق العامة، وقنوات رائعة تباغت بها باريس، واستخدمت في نقل الزوار إلى ساحة المعرض، وأعيد تخطيط منطقة - Champ de mars - التي أقيم بها، وكان لهذا المعرض أثر قوى في استحداث أسلوب جديد لتخطيط المدن الأوروبية في نهاية القرن التاسع عشر، أصبح طرازًا اقتدت به كثير من الدول لسنوات طوال، مثلما حدث مع معرض شيكاغو الدولي لعام 1893م، الذي أعاد الأسلوب الكلاسيكي إلى سابق مجده، ويحدد الطراز الذي استلهمته حركة «City Beautiful» التي سادت تخطيط المدن الأمريكية أمداً طويلاً..

هل يمكننا القول بأن بناء القاهرة الحديثة، كان وفقاً لمعرض باريس، الذي كان في الوقت ذاته: احتفالاً دولياً بافتتاح قناة السويس، فاستجابة الخديو إسماعيل لدعوة الإمبراطور نابليون الثالث للاشتراك في المعرض، كان دافعها رغبته في توطيد مكانة مصر بين دول العالم، وتعزيز مكانته الشخصية كصنو لملوك أوروبا. وكان قد أصدر أمراً عالياً في 6 صفر 1284هـ إلى ناظر الجهادية: «حيث إن حضرة صاحب الجلالة إمبراطور دولة فرنسا دعانا بصفة خاصة للحضور إلى باريس في 15 من شهر يونية القادم لزيارة المعرض المقرر افتتاحه، وقد تقرر سفرنا بإذن الله تعالى غداً لنكون حاضرين في التاريخ المذكور».

اتخذ الجناح المصري شكل «مدينة متأوربة» جديدة، أعدت واجهاتها الخارجية على وجه السرعة، جنباً إلى جنب مع أحياء القاهرة القديمة، مكتملة بالحدائق العامة وبمسرح فود فيل ودار للأوبرا، ونموذج لمعبد فيلة وسوق شرقية وفندق على الطراز العربي، وغير ذلك مما يمثل طابع الحياة في مصر.. وقد رد إسماعيل باشا هذه اللفتة بتشبيد قصر على النيل خصيصاً للإمبراطورة الجميلة أوجيني - Eugénie كانت حجراته صورة طبق الأصل من حجراتها الخاصة في قصر التويلري!

سافر إسماعيل باشا إلى باريس، في 15 يونيو 1867م، بصحبة حاشية ضخمة، وفي اليوم التالي لوصوله، افتتح الجناح المصري، وكان في استقباله هاوسمان، وفي ظهيرة ذلك اليوم زار غابة بولونيا والتقى بمهندس الحدائق: «باريه دي شان». الذي قام بتصميم وتنفيذ غابة بولونيا وحدائق «شان دو مارس».. وربما فكر الخديو - خلال هذا اللقاء - في أن يحيل منطقة الأزبكية إلى حدائق منسقة على هذا الطراز، يؤكد هذا الرأي، استعانت بهذا المهندس في تنفيذ خطته لتجميل القاهرة.

وتعددت لقاءات هاوسمان بالخديو خلال تلك الزيارة، وأعدت له - جولات فخمة - للطواف بأنحاء باريس وزيارة معالمها، وسجلت الصحف الفرنسية مدى انبهار إسماعيل بالتخطيط الجديد لمدينة

باريس، ولنا أن نستقرئ من أحداث تلك الزيارة ما حفز الخديو لإعادة تخطيط وتطوير القاهرة على هذا النحو الذي انبهر به.

عاد إسماعيل باشا إلى مصر، بعد توقف قصير في استانبول، حصل خلاله من الباب العالي على فرمان الذي يقضي برفع لقبه من «والي ونائب السلطان» إلى خديو، وهو ما كان ينشده منذ أمد بعيد، وتأمل الحالة المزرية لعاصمة ملكه، وراح ينقب بين أبنيتها المتداعية عن شيء يمكن أن تباهي به باريس أو حتى لندن التي زارها بعد رحيله من باريس.. ولعله ساءل نفسه: عما إذا كانت لديه الجرأة لأن يدعو ملوك أوروبا إلى مدينة كهذه، تسيء بقرها إلى حاكمها، وهو الذي عقد العزم على أن يقيم احتفالاً أسطورياً يخلد به ذكرى افتتاح قناة السويس.

لم يكن لدى إسماعيل متسع من الوقت، لإحداث تغييرات جذرية تشمل القاهرة الشرقية، مهما بذل من جهود، ففكر في استحداث مدينة جديدة، تمثل واجهة للقاهرة القديمة، من الجهة الغربية، وأن تقتصر جولات المدعويين على المدينة الجديدة، التي يأمل أن تضارع مدنهم ذاتها، وكانت سرعة التنفيذ مطلباً ضرورياً لنجاح خطته، التي أراد لها أن تكتمل قبل الموعد المقرر لافتتاح القناة الذي حدده دي ليسيبس في نهاية عام 1868م، غير أن تأخر انتهاء العمل بالقناة عن مواعده، قد منح الفرصة لإسماعيل لاستكمال خطته - على النحو الذي يطمح إليه - وتأجل الافتتاح إلى نوفمبر عام 1869م. انظر لوحة (7).

علي باشا مبارك:

مهد الخديو إسماعيل لمشروعه الكبير، بإسناد «ديوان الأشغال العمومية» عقب عودته من باريس بنحو شهرين إلى علي باشا مبارك واحد من أعظم شخصيات مصر الحديثة - إلى جانب مسؤولياته كوكيل لديوان المدارس و«مهندس معية سنية» وناظر للقناطر الخيرية، ثم مأمور لمصلحة السكك الحديدية أيضاً، وكانت المهمة الرئيسية: إعداد برنامج شامل لتخطيط وتطوير القاهرة الحديثة، طبقاً لطرز مدينة باريس.

كان علي باشا مبارك عضواً بالبعثة المصرية الثالثة إلى فرنسا عام 1844م، لتعلم الفنون الحربية بالمدرسة الخاصة التي أنشأها محمد علي باشا وعرفت باسم «المدرسة المصرية الحربية» بباريس، وقد ضمت سبعين طالباً انتخبهم سليمان باشا الفرنساوي رئيس أركان حرب الجيش المصري بتكليف من محمد علي باشا، وكان من بين هذه الإرسالية نجلا الباشا الأميران حسين بك وحليم بك (باشا) ومن أحفاده: الأميران أحمد بك (باشا) وإسماعيل بك (باشا ثم خديو مصر)..

درس علي باشا مبارك بمدرسة باريس لمدة ثلاث سنوات، ثم التحق بمدرسة «متز» أول يناير سنة 1847م لمدة عامين، وألحق بالجيش الفرنسي في بداية سنة 1849 «.. عندي من الشوق إلى معرفة أحوال هذه المدينة العظيمة - باريس - والوقوف على أحوال أهلها، والتعرف على هذه المدينة العظيمة - باريس - والوقوف على أحوال أهلها، والتعرف على آثارها بالباهرة وصنائعها الزاهرة، ما تشتهد به الحاجة إلى استطلاع أخبارها، وغاية مرادي أن أقضي هذه المدة في استفادة ما ينفع

وطني». وكان رد فعل علي مبارك هو العجب من: «حسن نظامها وكثرة معالمها، وسعة شوارعها وتنظيمها، وحركة التجارة بها وزخرفة محلات التجارة ونظافتها وحسن بهجتها!» في شتاء عام 1867م أتيحت لعلي باشا مبارك فرصة السفر إلى باريس، في مهمة مالية لحساب الحكومة المصرية، ف قضى عدة أسابيع في دراسة النظم الفرنسية في مجالات التعليم والتخطيط العمراني والمكتبات، وسار مع الزوار الآخرين عبر الأنفاق الضخمة لشبكة الصرف الصحي. التي أقيمت تحت شوارع المدينة الجديدة التي صممها أوسمان.. كان اضطراب القاهرة واضحًا جليًا، فالمجال الحضري التي تحرك إليه المصريون كان أصبح مسألة سياسية، مادة يتعين «تنظيمها» عن طريق بناء شوارع رئيسية عظيمة تتفرع من الوسطين الجغرافي والسياسي، في اللحظة نفسها التي كان فيها المصريون يتحركون عبر هذا المجال، كانت عقولهم وحياتهم بحاجة إلى الانضباط، في اقتصاد مشترك للنظام. أعد علي باشا مبارك مشروع قانون بتنظيم إدارة المدينة، ووضع تقسيمًا إداريًا جديدًا لها، بتاريخ 8 يوليو 1868م، قسمت فيه المدينة إلى أربعة أقسام، كل قسم يضم اثنين من الثمانية أثمان التي حددها محمد علي باشا: باب الشعرية مع الأزبكية، درب الأحمر مع الجمالية، الخليفة مع قوصون، عابدين مع درب الجماميز، وقسمت الضواحي إلى أربعة: مصر القديمة، بولاق، شبرا، الوابلي..

وقد أقر هذا التنظيم بوحدة مدينة القاهرة، حيث كانت بولاق ومصر القديمة منفصلتين عنها حتى ذلك التاريخ! وأنشئ بكل قسم إدارة للمباني يرأسها مهندس التنظيم، المكلف بالإشراف على المباني ومراقبتها ومتابعة عمليات وضع الخرائط وتطبيق لوائح التنظيم. كان هذا البرنامج هو التهيئة المطلوبة من أجل إعداد تخطيط القاهرة، الذي سيقوم جران بك بوضعه عام 1874م.

وتتضمن لائحة التنظيم 34 بندًا، بالإضافة إلى الإعلان الصادر من «دولتو ناظر الجهادية» بشأن بيان الرسوم اللازم تحصيلها بديوان الأشغال العمومية، ونص تقديم اللائحة يقول:

«صورة اللائحة المعمولة بديوان أشغال عمومية في سنة 1285هـ بمعرفة سعادة علي مبارك باشا..

لما كانت الهمم الخديوية لا تزال على الدوام مجبولة على نفع الخاص والعام من عمارة مدن الديار المصرية وتنظيمها على حسب الأصول الهندسية والطبية، كانت الحكومة المصرية السنية مرتبة في مدنها وبنادرها الأصلية أناسًا يقومون بإجراء عملية التنظيم على موجب أصول الهندسة والطب في كل إقليم، ويحافظون على حقوق أرباب الأملاك والعقارات، ويفصلون ما يقع بينهم من التدايعات، إلا أن قلة هؤلاء العمال بالنسبة إلى اتساع المدن على كل حال، ولما كانت لا تكفي للنظر في قضايا التنظيمات وفصل الدعاوى وحل المشكلات، اقتضى بالضرورة تنوع الوظائف وتعدد المستخدمين لتسهيل ما يعود نفعه على العالمين، ولزم منعا لتراكم الأعمال والتأخير عن الأشغال، ترتيب عدد كاف من المأمورين لتأدية ما لا بد منه في كل حين وتجنب ما ينشأ عنه المضرات في جميع الأوقات، وحيث إن هذه الهممة العظيمة تحتاج إلى مصاريف جسيمة بحيث لو تكفلت الحكومة بأدائها وقامت من غير مساعدة بوفائها لكان ذلك مما تأباه المصلحة العمومية في كل آن، ولا يرضى به من أرباب الحجا أي إنسان، وحيث إنه جار بكافة الجهات، في مثل هذه الأعمال، توزيع

المصاريف لاستقامة الأحوال، فالحكومة لا تقوم منها إلا بدفع ما يعود بعموم المنافع فيما يحتاج للتنظيم من الأماكن العمومية والشوارع، والأهالي ملزمون منها بدفع ما يستقيم به أود منافعهم الخصوصية، ولذا خطر بفكرنا وضع ما سيأتي بيانه بالتفصيل للحصول على مطمح أنظار ولي النعم الجليل، البادل سعيه على الدوام في العمارة ورفاهية الأنام.

بند 1: بما أن مدينة القاهرة وغيرها من المدن والبنادر منقسمة إلى أقسام مناسبة لسعتها، فلو ترتب فيها بكل قسم مهندس مستعد ومعه من يلزم من الأشخاص، بحيث يكون منوطاً بالإجراءات التي لا بد منها مما يتعلق بالمباني بالنظر للكشف عليها وتنظيمها ومعاينة الخلل فيها وهدمه ومباشرتها عند الشروع في بنائها من بعد رسمها وتجديد جهاتها في رسم مخصوص يرفق بحجج الملكية... وحيث إن العمليات الهندسية المقتضى إجراؤها بمدينة القاهرة جسيمة ومتعددة، وإن الأشخاص الثلاثة المرتبين لها الآن غير كافين لتأدية المطلوب في أوقاته... اقتضى تقسيم القاهرة وضواحيها إلى ثمانية أقسام، أربعة منها في داخل المحروسة والأربعة الأخر بضواحيها..» انظر لوحة (8 أ) ولوحة (8 ب). وخصص لعلي باشا مبارك - سراي الأمير مصطفى فاضل باشا - بدرج الجماميز، لمباشرة مسئولياته المتعددة، وقد ضمت السراي دواوين المدارس والأوقاف والأشغال العمومية، وبدأ في تنفيذ خطته لبناء القاهرة الحديثة.. وتحديث التعليم..

والواقع أن تلاقي «تخطيط المدينة الحديثة» و«تخطيط مؤسسات التعليم» لم يكن محض صدفة.. فأعمال علي باشا مبارك كانت تعبر عن اهتمامات عصره: فالشوارع تمهد، والمدارس تشيد، تعبيراً عن إنجاز لنظام ثقافي وترتيب اجتماعي، كان ينظر إليه كحاجة سياسية أساسية: شكلته سياسة الدولة الحديثة.



لوحة (6)

الخدّيو إسماعيل



لوحة (7)

علي باشا مبارك

او حيايت ميتاؤن عرض صمد مراد لوتسالي
 صمد القويح الي بسيل له قويا باختم وبيع عن
 و صمد القويح ليا بسيل ازا في كليا بسيل
 العمارة القويح اذناه

٥٠٠ ..
 ٥٠٠ ..
 ٤٠٠ ..
 ٤٠٠ ..
 ٤٠٠ ..
 ٤٠٠ ..
 بيا بهي الا لوزم الشارة وادني ماؤر بهي البتور

٤٠٠ ..
 ٤٠٠ ..
 ١٤٠٠٠ ..
 ١٠٠٧٥٠ ..
 ١٤٠١٦٤٥ ..
 ١٠٠٨٠٠ ..
 ١٠٠٤٠٠ ..
 ١٠٠٤٠٠ ..
 ١٠٠٧٠٠ ..
 ١٠٠٥٠٠ ..
 ١٠٠٦٠٠ ..
 ٤٩ ٤٨٤٤٥ ..

واما ترتيب الترخيص اذني القولا بيف حسب الموضع علاوه فاذا صمد ميتاؤن قوت القويح ليا بسيل
 القويح و صمد مراد لوتسالي فاكونه ديجه القويح و صمد ميتاؤن القويح ليا بسيل و صمد مراد لوتسالي
 لياقة واستعداد ليا بسيل ١٧٠٠٠٠



١٧٠٠٠٠
 ١٧٠٠٠٠

لوحة (8 - ب)

الورقة الأخيرة من لائحة التنظيم بتوقيع علي باشا مبارك

قاهرتان

كان رأي الخبراء الفرنسيين، كما يشير المؤرخ «هنري بيرون - H. Pieron» أنه يجب «الحفاظ على الجزء الأقدم من المدينة، ليوضح للأجيال القادمة كيف كانت مدينة الخلفاء، قبل أن تبنى بمحاذاتها مستعمرة كوزموبوليتانية هامة منفصلة تمامًا عن حي الأهالي.. هناك مدينتان بالقاهرة: المدينة الحديثة، الأكثر جاذبية، والمدينة القديمة، التي يبدو مقدرًا لها أن يمتد احتضارها ولا تبعث أبدًا، لأنها قادرة على الصراع ضد التقدم وعواقبه الحتمية، إحداهما القاهرة الفنانين، والأخرى لأنصار الصحة العامة والحدائق»!

كانت تلك أعظم فترة للهدم والبناء في العاصمة، منذ نمو القاهرة المملوكية، وجرى مدُّ بنية أساسية جديدة بين الطرفين الشمالي والغربي للمدينة ومدخلها الجديد: محطة السكك الحديدية، وإتاحة مساحات من الأراضي لكل من يرغب في البناء على الطراز الأوروبي..

وما إن حل عام 1869م، حتى كانت الخطط الخاصة بإنشاء أحياء جديدة، قد أحرزت تقدمًا ملموسًا، حيث تم شق طرق جديدة واسعة مرصوفة، وتقسيم أراضي حي الإسماعيلية الجديد، والذي بلغت مساحته نحو ميل مربع، ووهب الخديو الأراضي المملوكة له للأمراء والأثرياء، شريطة بناء فيلات فاخرة محاطة بالحدائق. أما بالنسبة للخطط التي أعدت لتطوير أحياء القاهرة القديمة، فلم يقيض لها أن تنفذ تنفيذًا كاملًا، وظلت لسنوات عديدة قبل أن تمتد إليها أنامل التطوير.

أقيمت الاحتفالات الأسطورية التي خلدت افتتاح قناة السويس في 17 نوفمبر عام 1869م، وحتى نهاية ديسمبر، كانت تلك الفترة: ذروة عصر إسماعيل تآلقًا، وفيها كانت القاهرة قبلة للأوروبيين، ليس للملوك والأمراء فحسب، بل أيضًا للرحالة والأدباء وعلماء الآثار والصحافيين والشعراء والمصوريين والرسامين، منهم على سبيل المثال: تيوفيل جوتييه، فلو بير، جيرار دي نيرفال، ماكسيم دي كامب، بيرشير، ماريللا، جيروم...

طاف ضيوف الخديو بشوارع القاهرة وآثارها وحدثها، وأرهقوا الأهرام صعودًا وهبوطًا، استمتعوا بكل ما شاهدوه... ومن يطالع الانطباعات الذاتية لهؤلاء الزائرين التي دونوها في مذكراتهم، يدرك على الفور بأنهم كانوا في وادٍ، بينما الخديو وتطلعاته في وادٍ آخر، إذ كان حريصًا كل الحرص على أن يضفي على نفسه وعلى دولته: الطابع الأوروبي، بينما كان الأوروبيون يحرصون على مشاهدة كل ما هو عجيب وغريب، ونظراتهم تستطلع عالم «ألف ليلة وليلة»!

ولنتأمل معًا انطباع «أندرسون» عن القاهرة، الذي سجله في كتابه «المسألة الشرقية» فيقول:

«كانت القاهرة القديمة - طوال ستة قرون - يتقاسمها المماليك مع عامة المصريين، يتخالطون في شوارع المدينة دون حواجز، وقد يستند كوخ إلى جوار قصر، كما يتحاذى الشحاذ والأمير في صفوف الصلاة بالمساجد، أما اليوم فقد تبدل الأمر، وأصبحت هناك قاهرتان: القاهرة مصرية،

وأخرى أوروبية، لا يربط بينهما شيء، وبينما الرمال وألوان الصحراء تغطي القاهرة القديمة والإهمال يسربلها بهموم جديدة، كانت القاهرة الأوروبية تنفسح لأبنية وشوارع جديدة أنيقة، مثل شارع محمد علي الذي يربط القلعة بالأزبكية، ضحت الحكومة في سبيل استقامته بهدم الكثير من المساجد والقصور ذات القيمة التاريخية الرفيعة»!

وواقع الأمر أن تحديث القاهرة: تطلب شغل وتسوية الأرض الخراب حول المدينة، وفتح طرق رئيسية وشرابيين مواصلات جديدة، وإنشاء ميادين وأماكن مفتوحة وزرع أشجار، وبناء المصارف والنظافة المنتظمة.. كان هذا التنظيم المكاني يتطلب بدوره «إزالة بعض التجمعات العشوائية من الداخل» مثلما حدث خلال تنفيذ شق شارع محمد علي..

ويشير علي باشا مبارك إلى أن إنشاء شارع محمد علي، البالغ طوله نحو الميادين، قد تطلب هدم نحو 400 دار كبيرة و300 دار صغيرة، فضلاً عن المطاحن والمخابز والحمامات والحوانيت، بل وهدم عدد غير قليل من المساجد!

ويقول: «لما شرعت الحكومة في فتح شارع محمد علي وعمل رسمه، جاء مروره من وسطها تقريباً، فصدرت الأوامر للمحافظة بمشترى الأملاك الداخلة في ذلك وهدمت التراب ونقل بعض العظام إلى قرافة الإمام الشافعي وغيرها، والبعض الآخر عمل له صهريج مخصوص ودفن به، وبني عليه مسجد عرف بمسجد العظام، وهو بقرب جامع العشماوي عن يمين المار بالشارع الموصل للعتبة الخضراء وعابدين».

يضيف علي باشا مبارك في وصفه لهذا الشارع قائلاً: «إن هذا الشارع من أعظم ما عمل بمدينة مصر القاهرة، إذ بوجوده حصل نفع كبير وفوائد جمة للعامة، وذلك كتنقية الهواء من الروائح الكريهة، التي كانت توجب توالي الأمراض والأسقام على سكان الحارات والعطف التي قطعها، وبعد أن كانت جميع الجهات التي مر بها قليلة القيمة، مشحونة بالقاذورات، أصبحت بمروره منها عالية القيمة، مرغوبة السكن، توازي أعظم مواقع القاهرة، وقد بني في ضفتيه البيوت المشيدة، كالعمارة الكبيرة المستجدة ذات الأماكن العلوية والسفلية من إنشاء الحاج محمد أبي جبل، أحد التجار المشهورين، وسراي الأمير حسن باشا الشريعي، وسراي نعماتي باشا، وسراي الأمير رستم باشا، وغير ذلك من البيوت الكبيرة والصغيرة والحوانيت العديدة المتسعة»..

تلك كانت رؤية المهندس والمؤرخ علي باشا مبارك، غير أن ما استلزمه إنشاء هذا الشارع من تضحيات جسيمة بمساجد وأثار جليلة، كانت من الفداحة، بحيث إن كثيراً من العلماء والكتّاب تمنوا لو أن القائمين على تنفيذ هذا المشروع، قد تنازلوا عن أمر استقامته، لتلافي تلك الخسارة الجسيمة.. ويقول «آرثر رونييه - A. Rhoné» في وصفه الساخر لهذا الشارع «... إن تحديد مساره قد تم وفقاً للهوى وليس للدراسة المتأنية»!

في عام 1869م، كانت الأملاك قد نزعت، وتم هدم عدد من المساجد والبيوت والقصور والحمامات، وبعضها قد أزيلت أنصافها دون واجهة خارجية، فكان المشهد أشبه بـ«مدينة تعرضت

للقصف، حيث المباني في كل مراحل الهدم، ولا تزال مأهولة بالسكان، وتكشف عن أغرب مشاهد الغرف الداخلية المنزلية!»!

في عام 1872م، افتتح شارع محمد علي (القلعة) الذي فاق في اتساعه شارع «السكة الجديدة» وتميز عنه بوجود أرصفة متسعة على جانبيه، تظللها الأشجار والبواكي، كما أضيء بطول امتداده بالمصابيح الغازية، وكان سرور الخديو به عظيمًا، حتى أنه أمر بتنظيفه ثلاث مرات يوميًا للحفاظ على رونقه وبهائه، وليتحقق أخيرًا حلم محمد علي باشا!

حي الإسماعيلية:

شُيد حي الإسماعيلية في زمن قياسي، واحتل نفس الحيز الذي كانت تشغله مزارع إبراهيم باشا، وكان لمجانبة الأراضي، هبة من إسماعيل، دور هام في حركة العمران بالحي، وقد تمكنت مصلحة التنظيم من إقامة هذا الحي بفضل تجانس وبنية الأراضي التي أعدها إبراهيم باشا، إلى جانب إعفائها من الإجراءات الطويلة والمكلفة لانتزاع الملكية وتحررها من عمليات التسوية اللازمة.

ويقول علي باشا مبارك، منسق السياسة الحضارية للخديو، والذي تولى الإشراف على تخطيط حي الإسماعيلية، وإعادة تعمير المناطق المحيطة بالأزبكية:

«هذه الخطة ظهرت في زمن الخديو إسماعيل، ونسبت إليه، لأنه هو الأمر بإنشائها، وهي تمتد بين جسر السبئية، أعني الطريق الموصل من مصر إلى بولاق، وهو حدها البحري، وحدها الغربي ترعة الإسماعيلية، الآخذة من قصر النيل وساحل النيل إلى قصر العيني، وحدها القبلي شارع القصر العالي والخليج المصري، وحدها الشرقي سور البلد القديم... أغلب مساحة هذه الخطة هي أرض اللوق، وأكثر الأحكار التي ذكرها المقرئزي، وميداني الصالح نجم الدين الناصر محمد بن قلاوون وبعض بساتين، منها البستان المعروف قديمًا ببستان الفاضل».

ومع تغير الدول والأحوال، تخربت هذه الخطة، وصارت عبارة عن كتبان أتربة وبرك مياه وأراض سباخ «.. ثم لما قيض الله للحكومة المصرية الخديو إسماعيل، أبدل وحشتها أنسًا، ونظمها على هذا الرونق الجميل، وجعل في تخطيطها جميع الشوارع والحارات على خطوط مستقيمة، أغلبها متقاطع على زوايا قائمة، وجعلت منازلها منفردة عن بعضها، ودكت أرض شوارعها وحاراتها بالدقشوم، جعل في جانبي كل شارع وحارة استطراق للمشاة، وجعل الوسط للعربات والحيوانات، ومدت في جميعها مواسير الماء لرش أرضها وسقي بساتينها، ونصبت بها فانارات الغاز لإضاءتها وتويرها، فأصبحت من أبهج أخطاط القاهرة وأعمرها وسكنها الأمراء والأعيان»..

كان التخطيط للحي الجديد مستوحياً من أوسمان، واشتمل على شبكة من الشوارع تربط بين اثني عشر ميداناً.. غير أن العمران الحقيقي للمنطقة، لم يتم إلا بشكل تدريجي، وظل الزائرون لتلك المنطقة، يشعرون أنهم بإزاء مساحات من الأراضي المقسمة والمعدة للبناء، وليست حياً من الأحياء العظيمة!

حتى عام 1874م، كانت المساحة التي تم شغلها نحو 257 فدناً، احتلت شبكة الطرق 30% منها، وشغلت المباني 13% والباقي حدائق شاسعة مثلت احتياطياً للتوسع العمراني مستقبلاً، وتشير خريطة «جران بك» إلى ظهور شوارع كبيرة مثل: قصر النيل وسليمان باشا وقصر العيني..

على مر التاريخ، كانت مشروعات إنشاء القنوات وحماية الأراضي من طغيان مياه الفيضان، تسبق دائماً بناء الأحياء أو التوسع في القديم منها، لذا فقد كان إنشاء الخديو إسماعيل لترعة الإسماعيلية سبباً في ظهور وعمران حيين جديدين: الإسماعيلية والفجالة، ولم تكن هذه الترعة، إلا جزءاً من برنامج أشمل لإقامة المرافق والمنشآت العامة، اضطلع به إسماعيل ومضى في تنفيذه دون عوائق. وصاحب حفر ترعة الإسماعيلية، عدة مشروعات هندسية لتدعيم الجسور المقامة على النهر، تحت إشراف المهندس الفرنسي «بروكار - Brocard» وتم تدعيم شاطئ النهر شمال بولاق، في روض الفرج والساحل، كما أصبحت جزيرة بولاق التي اشتهرت بالزمالك بمأمن من أخطار الفيضان.

وثمة تغييرات هامة طرأت على بعض المواقع، حيث تم ردم قناة المغربي، التي أضحت مجرد ترعة ثانوية للخليج المصري، أما الترعة التي أمر بحفرها محمد علي باشا لصرف مياه الفيضان من الأزبكية وما حولها، فقد جفت بجفاف منبعها، إذ ردمت بركة الأزبكية عام 1864م، وحل طريق قنطرة الدكة، محل الترعة التي عرفت بهذا الاسم، وتم تخطيط حديقة الأزبكية، وأصبحت المنطقة المحيطة بها جاهزة لأن تمتد إليها يد التعمير..

نقلة حضارية:

واكب تلك المشروعات العامة، محاولات لتزويد القاهرة بمياه الشرب والغاز ومجار للصرف الصحي، حيث أصبحت تلك المرافق ضرورة قصوى للمدينة الحديثة.

وفي 15 فبراير عام 1865م، منحت الحكومة المصرية للشركة التي يملكها «شارل لوبون» والتي كانت تضطلع بتزويد مدينة الإسكندرية بالغاز، امتيازاً لتزويد القاهرة ومصر القديمة وبولاق بالغاز كذلك، ومنحت الشركة قطعة أرض في بولاق لتقيم عليها محطاتها.

وفي إبريل من عام 1867م، احتفلت الحكومة بافتتاح هذا المرفق الهام، احتفالاً رمزياً، بإضاءة ميدان باب الحديد ومحطة السكك الحديدية، ثم امتدت النقلة الحضارية لتشمل منطقة الأزبكية وحي الإسماعيلية الجديد، وبعض الشوارع الرئيسية، وقصور الخديو..

وكان إسماعيل باشا قد أصدر «أمرًا كريمًا» تحت عنوان: «منشور عام ودستور تام» جاء فيه: «من ديوان عموم الأشغال العمومية بالديار المصرية إلى كافة سكان القاهرة المعزية: هذه وثيقة عقد الشروط المنعقدة بتاريخ 15 فبراير سنة 1865م (2 رمضان سنة 1281هـ) مع ذيلها بين الحكومة الخديوية والخواجة شارل لوبون أحد المهندسين الفرنسيين، فيما يتعلق بمادة هذا الأمر العظيم والخير العميم، الذي لا شك في أنه يعد من المآثر الخديوية الجليلة والمفاخر العصرية الجميلة: مادة التتوير بالغاز في الشوارع والحارات والمدائن والساحات العمومية بمدينة القاهرة

المعزية، التي ستصير به هذه الحاضرة المصرية مشرقة الأنوار، كأنما لياليها نهار، على منوال مدينة الإسكندرية وغيرها من مدن البلاد الأجنبية».

وقد اشتمل «عقد شروط إنشاء وعمارة معمل التتوير بالغاز بمصر القاهرة» على 17 بنداً تحدد التعهدات الملتمزم بها شارل لوبون دون امتياز أو مسئولية من الحكومة:

«أذن سعادة خديو مصر إلى جناب الخواجة شارل لوبون المتعهد بعملية تتوير مدينة الإسكندرية بالغاز، بأنه يعمل في مدينة القاهرة وتوابعها (بولاق ومصر القديمة) على ذمة نفسه من حيث الأرباح والخسائر جميع الأعمال اللازمة لإنشاء عمارة معمل تتوير بالغاز، مع كل ما يلزم لعمل المجاري اللازمة لوضع مواسير الغاز، وأعطيت له هذه الرخصة بذلك بشرط ألا يترتب عليها من طرف الحكومة احتكار ولا امتياز ولا مسئولية».

وقد نص البند الأول على أن تكون «جميع المهمات التي يصير جلبها لهذه العملية من الصنف العالي، وأن تكون جميع الأعمال التي يصير إجرائها فيها متقنة على مقتضى أصول الصناعة، ووفقاً للشروط الأمنية وأصول قانون الصحة العامة المتبعة في مثل هذه المادة ببلاد أوروبا...!»

وكانت الحكومة قد منحت امتيازاً للشركة التي يملكها مسيو «كوردييه» بناء على «ديكريتو خديوي» بتاريخ 17 مايو عام 1865م، لتزويد القاهرة وتوابعها بالمياه، ومسيو كوردييه هو الذي أشرف على تزويد أربعين مدينة فرنسية بالمياه، كما نال امتيازاً مماثلاً بالإسكندرية، وتأسست شركة مساهمة لتمويل المشروع، غير أن هذا المشروع قد صادفته عقبات مالية وهندسية، انتهت بإعفاء كوردييه من مهمته، مما أدى إلى تأخر الانتهاء من تنفيذ المشروع إلى عام 1872م. وفي ذلك العام، مدت شركة المياه شبكة مزدوجة من القنوات إلى حي الإسماعيلية - بشكل خاص - لتوصل المياه اللازمة للاستهلاك المنزلي، وري الحدائق المنتشرة في هذا الحي بمياه غير منقاه. وقد شيدت الشركة محطة لضخ المياه عند فم الخليج.

الأمير أزيك وتأسيس الأزيكية

حتى القرن الرابع عشر الميلادي، تركزت معظم المنشآت الأميرية داخل نطاق القاهرة الفاطمية، وهي الحقيقة التي تؤكدتها قائمة القصور التي أشار إليها المقريزي في خطبه. وقد تغير هذا الوضع في عصر سلاطين المماليك. حيث أصبحت المدينة القديمة مركزاً تجارياً هائلاً، أفقدها طبيعتها السكانية، ومن بين مساكن الأمراء العشرين التي ذكرها المؤرخ «ابن زنبال» عقب الفتح العثماني. لم يبق منها سوى اثنين داخل حدود المدينة الفاطمية. انظر لوحة (9).

وقد بدأ أبناء الطبقة الأرستقراطية في تشييد قصورهم خارج نواة المدينة خاصة على شواطئ البرك والخليج، وكانت بركة «الفيل» (لوحة 10) الواقعة على طول الامتداد الجنوبي للمدينة بين القلعة والخليج، هي الحي السكني المفضل بالقاهرة، خلال العصر المملوكي، بالإضافة إلى البرك التي ذكرها المقريزي، ومنها:

- بركة قارون: بالقرب من حي ابن طولون.

- بركة الصباغين: بين الفسطاط والقاهرة.

- بركة الحيش: شمال الفسطاط.

- بركة الناصرية: جنوب باب اللوق.

- بركة الشقاف: في باب اللوق.

- بركة الرطلي: شمال باب الشعيرية.

- بركة قرموط: جنوبي غرب المقس.

وقد أشار عدد من مؤرخي الخطط والرحالة إلى أنساق رائعة للسكن والحياة حول هذه البرك، التي كان يغطي بعضها بالزهور في المناسبات الاحتفالية!.. في موسم الفيضان، أما عقب انحسار المياه، فكانت تتحول إلى أماكن موبوءة!

كان الأمير «سيف الدين أزيك بن ططخ» الجركسي، مملوكاً للسلطان برسباي ثم السلطان جقمق، وتزوج بابنته ثم بعد وفاتها اقترن بأختها، ونال حظوة لدى السلاطين، فكان حاجباً للحجاب، وحاكماً لسوريا، قبل أن يصبح قائداً «أتابك» لجيوش السلطان قايتباي.

تمتع الأمير أزيك بثراء طائل، ونفوذ سياسي واجتماعي هائل، وقد أشار ابن إياس إلى ثروة أزيك قد آلت بعد رحيله إلى السلطان. وكان من الصعب حصرها، وقد أنفق منها على تجهيز الحملات

العسكرية.

وكانت صورة منطقة الأذربكية - كما أشار ابن إياس - عبارة عن سهل مهجور، تناثرت به بعض مقاصير الصوفية وبعض أشجار الأكاسيا ومناظر اللوق، وكان كافور الإخشيدي قد حفر قناة الجاكار عند فم الخور، تقطعها قنطرة الدكة، وكانت أحد متنزهات القاهرة، إلى أن جفت وردمت ثم احتقر السلطان الناصر محمد بن قلاوون القناة الناصرية، أو ما يعرف بالخليج الناصري عام 724هـ.

وبمرور الزمان، أهملت المنطقة حتى عام 880هـ، في عهد السلطان قايتباي، الذي منح للأمير أزيك بها قطعة أرض للمرعى، وبدأ في حفر بركة في موقع «بطن البقرة» القديم، وأوصل إليها المياه من القناة الناصرية، بعد أن أعاد حفر جزء من خليج الجاكار، وأصلح قنطرة الدكة، ومهد متنزهًا حول البركة التي نسبها إلى اسمه، وبدأ بعض الأمراء في تشييد قصور وبيوت أنيقة حول البركة، وقد بلغت تكلفة تعمير المنطقة 200 ألف دينار، على مساحة تقدر بـ 60 فدانًا، وقد بدأ العمل بها في ذي الحجة سنة 880هـ/1476م واکتملت سنة 889هـ/1484م، وكان افتتاحها أعظم حدث في ذلك العصر، واحتفل لأول مرة بالأذربكية بـ«كسر الخليج» في يوم وفاء النيل عام 890هـ/1485م. وكان عامة الناس يتجمعون في خيام في فصل الربيع وفي موسم الفيضان، في مهرجان صاخب، بينما قوارب النزهة بديعة الأشكال مختلفة الألوان تغطي سطح البركة، وقد دعا الأمير أزيك السلطان قايتباي لقضاء ليلة في قصره الجديد.

التخطيط العام للأذربكية:

اکتملت عمارة الأذربكية «حتى صارت مدينة على انفرادها» كما قال ابن إياس، كذلك أشار الجبرتي إلى شهرتها كمركز للتنزه والملذات والمتع الليلية في زمن الفيضان، وأصبحت منطقة جذب للطبقة «البورجوازية» من البكوات وكبار التجار والأعيان..

وبإيجاز سنعرض للتخطيط العام للأذربكية: ففي الركن الجنوبي الشرقي، تربع متألّفًا قصر الأمير أزيك، يتاخمه من الجنوب، ربع من عشر حجرات، بأسفله عشرة حوانيت، تطل على الطريق، وفيما يلي الربع، الطبلخانة وقاعة متصلة بالمقعد، وإلى الغرب ممر يربط الربع بمنزل المسئول عن «شد العماير» يفتح على البركة وعلى الشارع، ملحق به إسطل، وفي مواجهته شيد مسجد أزيك الذي كانت تعلوه مكتبة، وبجواره منزل خطيب وإمام المسجد، الذي عين لإقامة الشعائر به عشرون من شيوخ الصوفية، وعشرون آخرون لإدارته والإشراف على الأوقاف التابعة له، ثم مجموعة من الحوانيت ومخازن السلاح والغلال ومطحن، وحمام للرجال وآخر للنساء، وخلفية المسجد كانت عبارة عن حديقة ورحبة ضمت ساقية وميضأة وحظيرة للبقر ومخزن للتبن وبئر ومخزن وموقد للحمامات، ومن الشرق سبيل يعلوه كتاب، ومن الغرب، مخبز وقيسارية، على جانبي بوابتها أربعة حوانيت، وتكونت من عدة طوابق شملت 89 حانوتًا و29 مقعدًا، حول فناء مستطيل تتوسطه ميضأة، وبالقرب من القيسارية، مزود لشرب الحيوانات، وبعض المساكن والمخازن وبئر

ومجموعة سواقٍ.. تحيط بهذه المنشآت حدائق رائعة، تميزها أشجار الفاكهة، تمتد إلى حارة المناصرة جنوباً، والطريق المؤدي إلى قنطرة الموسكي والخليج غرباً. انظر لوحة (11).

بعد وفاة أزيك سنة 904هـ/1499م، والذي دفن بمسجد قايتباي، انتقل خليفته الأتابك الجديد «جان بلاط» إلى قصره الذي احتفل فيه بزواجه من «أصلباي» أرملة السلطان قايتباي وأم السلطان الناصر محمد. انظر لوحة (12).

وفي العصر العثماني، عانت الأزبكية كثيراً من جنود الجيش العثماني، فنهبت وخربت قصورها ومنازلها، وتحول الجزء الجنوبي الشرقي إلى جبانة - كما تشير خريطة وصف مصر.

ومع بدايات القرن الثامن عشر، عاد نوع من الاهتمام بالمنطقة، شكل بوادير الازدهار الذي شهدته فيما بعد، وتطورت المنطقة فيما بين قنطرة الدكة غرباً والخليج شرقاً، لتشكل الحي القبلي الرئيسي بالقاهرة، والذي عرف بـ «حارة النصارى».. وكانت دوره حافلة بالمشربيات الرائعة..

وازدانت الأزبكية بالقصور والدور الفخمة، فهي سكن الأمراء، كالأمير رضوان كتحدا الجلفي، والأمير الألفي بك، الذي تحول قصره إلى مقر لقيادة الحملة الفرنسية وأصبح منزلاً لـ «ساري عسكر الفرنسية» ويستعرض أمامه قواته، ومواكب الاحتفالات الرسمية والشعبية.. كما كانت الأزبكية الحي المفضل لسكنى الطبقة البورجوازية: بعض شيوخ الأزهر كالشيخ عبد الله الشبراوي والشيخ عبد الله الشرقاوي، وكبار التجار، وبيوتات شهيرة مثل بيت البكرية - سلالة الخليفة أبي بكر الصديق - الذين توارثوا نقابة السادة الأشراف ومشيخة الطرق الصوفية وكانت لهم حظوة سياسية واجتماعية كبيرة.. وبيت الشرايبي «إحدى دور المجد» كما يقول الجبرتي، وكانوا من أعيان التجار، اشتهروا بثرانهم ومكارم أخلاقهم، كما اشتهروا بمجالس العلم التي كان يقصدها العلماء والأمراء، وبيوتهم مفتوحة للجميع لينهلوا من ذخائر العلوم، بالاطلاع أو بالاستعارة.. ودار عثمان بك الأشقر التي تحولت إلى «مطبعة جيش الشرق» جيش الحملة الفرنسية، والتي تولى إدارتها مسيو «مارسيل» المستشرق المعروف.

وكانت هناك - حتى عهد الملك فؤاد - في جنوبي غرب الأزبكية، ساحة شاسعة مخصصة للاحتفال بمولد النبي، ويشير الجبرتي إلى احتفال عام 1799م، فيقول:

«عمل مولد النبي بالأزبكية، ودعا الشيخ خليل البكري ساري عسكر الكبير مع جماعة من أعيانهم وتعشوا عنده، وضربوا ببركة الأزبكية مدافع وعملوا حراقة وسواروخ ونادوا في ذلك اليوم بالزينة وفتح الأسواق والدكاكين ليلاً، وإسراج القناديل واصطناع مهرجان!»

ويقول المستشرق البريطاني «إدوارد لين» عن احتفال عام 1834م:

«تجرى احتفالات المولد في الحي الجنوبي الغربي، من الساحة الرحبة المعروفة ببركة الأزبكية، التي تتحول في موسم الفيضان إلى بحيرة كبيرة، حيث تتصب خيام وسرادقات للدرائش الذين

يجتمعون كل ليلة للاحتفال وإقامة حلقات الذكر...».

وكان العالم الفرنسي «جومار الذي صحب حملة بونايرت، مع مجموعة من العلماء الأفذاذ، قد وصف الأزبكية بأن مساحتها «تفوق مساحة ميدان لويس الخامس عشر (الكونكورد حاليًا) ثلاث مرات.. وعندما يصل فيضان النيل إلى ذروته في سبتمبر، تمتلئ بركة الأزبكية بالمياه التي يصل ارتفاعها لعدة أقدام، عندئذٍ تصبح حوضًا واسعًا تغطيه المراكب، التي تضاء أثناء الليل، وتضفي على المكان مشهدًا مثيرًا للإعجاب، وبينما تكسو الخضرة أرض البركة شتاءً، تصبح جافة مغبرة في الربيع، ويحف بها حي الأقباط، وقصر الألفي بك ومنازل الشيوخ الأكثر ثراءً».

وقال الأديب والرحالة الفرنسي «سافاري» الذي شغف بمصر: «كان الزحام شديدًا عند الأزبكية، التي يبلغ محيطها أكثر من نصف فرسخ، بحيرة رحبة تحيط بها قصور البكوات، أجمل بيوت المدينة، وتضاء بأنوار مختلفة الألوان، وتسبح فوقها الآلاف من القوارب ذات الصواري، التي تتدلى منها المصابيح المضيئة، في هالة من الأضواء المتحركة، تتغير مشاهدتها في كل لحظة، وعندما يرخي الليل سدوله، نرى الكثير من القوارب الذهبية الخاصة بكبار الشخصيات، ينتزهون بها برفقة زوجاتهم، ولا يمر يوم، دون أن تطلق الألعاب النارية، ويسمع عزف الموسيقى، وتفتح الستائر والمشربيات، فتظهر من ورائها سيدات الطبقة الراقية، فلم يكن يتاح لعين أن تلمح إحداهن في الأوقات العادية، في الحقيقة، هذا واحد من أجمل المناظر التي يمكن لليل أن يهبها للعيون!»!

حديقة الأزبكية:

تمثل المساحات الخضراء - جانبًا شديد الأهمية - في النسيج الحضري للقاهرة وتطورها خلال القرن التاسع عشر، أقصد الأشكال المختلفة لتداخل الحدائق والبساتين في تكوين المدينة، هذا التداخل أسهم في تحديد عمليات الكثافة السكانية في الحيز الحضري..

حي الحلمية - على سبيل المثال - الذي حل محل عدد كبير من الحدائق والقصور، التي كانت مشيدة فوق بركة الفيل القديمة، وحدائق شبرا التي كانت منطقة جذب للأمرء والأعيان في عهد محمد علي باشا، للنزهة والإقامة، حتى نهاية السبعينيات من القرن الماضي، وحديقة «روستي» والشهيرة بالقرب من الأزبكية، التي أقيم عليها حي تجاري بدءًا من عام 1890م.

عند الشروع في عملية تنظيم ميدان العتبة الخضراء وفتح شارع محمد علي (القلعة) هدم جامع الأمير أربك، وكثير من البيوت والرباع والزوايا والحمامات ومخازن الغلال والحوانيت، وردمت بركة الأزبكية عام 1864م بعد قرابة أربعة قرون من حفرها، وشيدت حديقة الأزبكية، تحت إشراف المهندس الفرنسي «باريل ديشان - J. P. de Schamps» الذي كان مسئولاً عن بساتين باريس، على نمط حديقة «مونسو» وحدائق «ريفولي».. انظر لوحة (13).

وكانت مساحة الحديقة عشرين فدانًا، مزودة بـ 2500 مصباح غاز، وأقيم بها مسرح للعروض الكوميديّة، وعرضت عليه فرق فرنسية وإيطالية، وحضر الخديو إسماعيل بعض هذه العروض..

كذلك أقيمت بحيرة رائعة وجبلالية صناعية وممرات مظلمة، وجسور على بحيرات صغيرة وقنوات، وفي افتتاح الحديقة بحضور إسماعيل باشا، كانت مزودة بحوانيت ومعمل تصوير، ومنصة لبيع الدخان، ومنصة أخرى للرمية، ومطاعم ومقاه أوروبية وشرقية، ومقصورة صينية، ومراكب للنزهة تسير بالبدال، وفرقة الموسيقى الخديوية تصدح بمارشات عسكرية وألحان شرقية وأوروبية.

وغرس بالحديقة مجموعات من أندر أنواع الأشجار، استوردها «باريل بك» من أوروبا وأفريقيا والهند والبرازيل، ومن كوبا «النخلة الملكية».. ومن استراليا الشجرة التي اشتهرت باسم «بودرة العفريت»!

وعلى شرف الإمبراطورة «أوجيني».. عُرس شجرة أطلق عليها «أوجينيا - Eugenia Jambolana».. وشجرة شعناء أطلق عليها «واشنطنونيا - Washingtonia Fil Fera» تكريماً لاسم جورج واشنطن، ويوجد بعض من هذه الأشجار بحديقة الأسماك بالزمالك وحديقة الأورمان بالجيزة، وكان يحيط بحديقة الأزبكية، سور حديدي ضخّم تتخلله أربعة أبواب، وأطلق على الشوارع المواجهة لهذه الأبواب اسم الباب المقابل لكل منها، وما زال محتفظاً باسمه: شارع الباب البحري، الموصل لشارع نجيب الريحاني، وشارع الباب الشرقي المواجه لموقف الأتوبيسات العامة.

في سنة 1869م، شيدت دار الأوبرا الخديوية، وفي عام 1873م، نصب تمثال إبراهيم باشا، الذي أطلق اسمه على ميدان الأوبرا (التياترو) وكان باريل بك قد أشرف على عملية تمهيد شارع الأهرام، وغرس على جانبيه أشجار الجميز والبرتقال والأكاسيا، من أجل عيون أوجيني الجميلة..! كذلك قام بتصميم وتنفيذ منتزه كبير في الجزيرة الكبيرة «الزمالك» حيث شيد فيما بعد نادي الخديو إسماعيل (نادي الجزيرة الرياضي).

وكانت شركة فرنسية قد قامت فيما بين عام 1863 و1865م بردم الجزء المتخلف من تحويل مجرى النيل شرقاً، وأنشأ إسماعيل باشا في هذا الجزء: بساتين الأورمان، وسراي الجيزة، التي كانت حدائقها ممتدة إلى موقع كوبري عباس، وفوق مساحة مقدارها خمسون فداناً من بساتين السراي، أقيمت حديقة الحيوان عام 1890م، ثم ضُم إليها جزء من بساتين الأورمان، وفي هذا السراي، مكثت مقتنيات متحف بولاق، من كنوز مصر القديمة منذ عام 1891 حتى عام 1902م، وقد هدمت سراي الجيزة عام 1903م، وخصصت أرضها لمباني مدرسة (كلية) الزراعة، ومدرسة الطب البيطري، وبعض العمارات والمنازل! وتجدر الإشارة إلى أن الملك فؤاد قد ولد بهذه السراي في 26 مارس 1868م.

وقد تولى باريل بك تنفيذ أعظم مشروعاته: بساتين الأورمان، التي كانت مساحتها 465 فداناً، ونسقت بها الأشجار النادرة المستوردة من أوروبا وأفريقيا والصين والهند، بعد أن تم تغطية الأراضي بطمي النيل بارتفاع مترين، وكان الخديو قد أمر بمد خط سكة حديدية خاصة لضمان سرعة إنجاز هذا المشروع، لتضارع في بهجتها وروعها حدائق الأزبكية.

قاهرة إسماعيل في الوثائق الرسمية الأجنبية

* تقرير بيردسلي:

إلى جانب وصف القاهرة وحياة مجتمعتها، التي سجلتها مشاهدات الرحالة والأدباء والفنانين الأوروبيين.. هناك أيضًا الوثائق الرسمية، أعني بها تلك التقارير التي كان القناصل الأجانب يرسلون بها إلى حكوماتهم، ولست في حاجة إلى بيان مدى أهمية هذه الوثائق الأجنبية التي تعد مرجعًا من الطراز الأول، يكشف النقاب عن جوانب هامة في تاريخ مصر الحديث، ويجلو حقائق رائعة في تاريخ حافل لشعب كان له القدر المعلى في العصور الخالية..!

* من بيردسلي قنصل الولايات المتحدة إلى وزارة الخارجية الأمريكية:

القاهرة في 9 نوفمبر عام 1872م.

«رأى إسماعيل ما يترتب من الفوائد على إنشاء مركز دائم لحكومته، تلتف حوله مختلف الوزارات، فقرر ألا يجعل القاهرة عاصمة ملكه فحسب، بل أن يجعلها عاصمة تليق بمصر، لذلك أنفق أموالاً كثيرة، وبدأ الجهود في همة قلما يتحلى بها - أمير شرقي - فعكف على العمل في الخمس سنوات الأخيرة بتجميل المدينة، التي يمكن تفضيلها اليوم على عدة عواصم أوروبية..!»

* من بيردسلي قنصل الولايات المتحدة إلى وزارة الخارجية الأمريكية:

القاهرة في 15 سبتمبر عام 1873م.

«بلغ التجميل والتغيير في القاهرة، منذ بضع سنوات، مدى يصعب على الأجنبي تقدير طبيعته ومداه حق التقدير..»

سكان القاهرة نصف مليون نسمة، وهي قائمة بالقرب من المقطم، على مسيرة ميل ونصف الميل من النيل، ومنذ ست سنوات، لم يكن الحيز الواقع بين القاهرة والنيل وبولاق، إلا أرضًا واسعة منخفضة، تغمرها مياه الفيضان، ولا يزرع منها غير مساحات ضئيلة عند انحسار المياه، وهذا الحيز، هو اليوم الحي الجديد الجميل الذي يسمى: حي الإسماعيلية، تكريمًا لمسيو الخديو، وقد ردم على ارتفاع يتراوح بين ستة وثمانية أقدام بالأتربة التي جلبت من أنحاء المدينة، وقد تم تخطيط طرق جديدة واسعة لسير العربات، تحف بها الأشجار، ومنحت الأرض بالمجان، لمن يتعهد بأن يقيم عليها بناء معين الرسم.. هكذا أنشئت مدينة جديدة تمامًا تتألف من أبنية رائعة، تمتد من المدينة القديمة إلى ضفاف النيل، فكانها نشأت بفعل السحر!

كانت البقعة الشاسعة المعروفة باسم: الأزبكية، تقوم على جوانبها مجموعات من الدور الأوروبية، تتألف منها الحي الأفرنجي، ولم تكن هذه البقعة - أيام الفيضان - إلا بحيرة واسعة، فإذا انحسر

الماء، أصبحت مأوى للكلاب، ومسرحًا للجنايات ومجتمعًا للسوقة، وقد استحوطت اليوم إلى حديقة عمومية رائعة الجمال، ذات ممرات رملية وطرق ظليلة ومروج خضراء، ومما يأخذ فيها بالألباب: بحيرة صناعية. هي آية في الجمال، وتحف بالحديقة أبنية لطيفة المنظر، منسقة على طراز واحد.

في داخل المدينة، خطت طرق جديدة متسعة، توفر سبل المواصلات، وتجلب الهواء والنور إلى أحياء تزدهم بالسكان، وتوفر الماكينات الماء العذب لأحياء المدينة بأسرها، مقابل مساهمة بسيطة في النفقات اللازمة، وهناك مصنع للغاز يورد ستة آلاف متر مكعب في اليوم، ينير الطرق والميادين العامة.

والطرق الجديدة مرصوفة جميعها رصفاً متقناً، ومحفوفة بالأفاريز، وبها مجار، كما أنشئ في شمال المدينة حي جديد اسمه الفجالة، وفي الشمال الشرقي تم تخطيط حي جديد آخر، ويجري العمل لردم الحفر وتعبيد الأرض، وقد تراكمت عليها أكوام من الأتربة، نقلت إليها من أطراف المدينة، على مر الأحقاب، ويخترق هذين الحيين طريق واسع يوصل إلى موقع هليوبوليس القديم وإلى العباسية، على طرف الصحراء، حيث أقيمت المدرسة الحربية.

كذلك أنشئ طريق جميل جداً للعربات ينتهي إلى الأهرام، ويجتاز الجسرين الجديدين في الجزيرة، ويجري العمل على تحويل هذه الجزيرة - بخطى سريعة - إلى حديقة عامة غناء وحديقة أخرى للحيوانات، وسيقام فيها أيضاً المتحف المزمع إنشاؤه قريباً، وكذلك شرع في إنشاء حديقة شاسعة شرق الجزيرة.

وقد شيد الخديو مسرحاً ضخماً للأوبرا الإيطالية وآخر أصغر منه للكوميديا الفرنسية، وأقيمت حفريات عامة وبعض المساجد والعديد من القصور.

وفي جميع المجالات نشاهد دلائل النشاط والتحديث، التي تذكرنا بمدينة الغرب، أكثر مما تذكرنا بتقاليد الشرق»!

عود إلى خطط تطوير القاهرة القديمة:

في عام 1875م، استأنف إسماعيل خطه الطموحة التي أعدت لتطوير القاهرة القديمة، حيث افتتح شارع كلوت بك، ويبدأ من ميدان باب الحديد وينتهي بميدان الخازندار، ويعتبر امتداداً لشارع محمد علي، وقد شيدت واجهات منازل له فوق بواك، على نفس الطراز المستخدم في الريف الفرنسي في ذلك العصر، واشتمل على عدد من الفنادق المتوسطة.. وقسمت منطقة الفجالة، بدءاً من ترعة الإسماعيلية إلى سور القاهرة عرضاً، ومن جامع أولاد عنان إلى بوابة الحسينية طولاً، لتصبح حياً عامراً بالدور والقصور والحوانيت والمنتزهات..

وافتح شارع عبد العزيز، الممتد من ميدان العتبة الخضراء إلى ميدان عابدين (الجمهورية) وسمي باسم السلطان عبد العزيز تخليداً لزيارته لمصر، وقد وصل إلى القاهرة في 19 شوال سنة 1279م،

مستقلًا القطار من الإسكندرية، وكانت المرة الأولى التي يرى فيها قطار السكة الحديدية!.. وكان إسماعيل قد أصدر أمرًا إلى محافظة مصر في 3 صفر سنة 1286هـ، ببيان «المحلات والأماكن اللازم مشتراها من طرف الميري لأجل تنفيذ الشارع المستجد من سراي العتبة الخضراء لحد عابدين».. وفي 20 محرم سنة 1287هـ، صدر أمر آخر، منطوقه: «بما أنه مصمم من مدة على فتح شارع العتبة الخضراء الموصل إلى عابدين، وكما علم أن بعض المحلات اللازمة لتنفيذ هذا المشروع جرى مشتراها وصارت حيازة الميري.. وحيث يستلزم المبادرة بفتح الشارع المذكور حالًا، فينبغي إجراء اللازم في الشروع في فتحه وسلوكه سريعًا..».

كان الفرنسيون قد هدموا معظم المباني ما بين قنطرة الموسكي والعتبة الخضراء، فأصبحت المنطقة مهياة لتمهيد شارع يخترق القاهرة من الشرق إلى الغرب، يسهم في إثراء النشاط التجاري الذي استجد بقلب المدينة، فصدر الأمر العالي، في 24 مارس 1846م، بفتح شارع الموسكي وبولاق والقلعة وغيرها من الشوارع «اللازم فتحها وتوسيعها لراحة العباد وتزيين البلاد!».

وفي عهد إسماعيل باشا، تم توسيع شارع الموسكي، وفتح امتداده: شارع السكة الجديدة (جوهر القائد) إلى ميدان العتبة، وكان أمر كريم قد صدر إلى ضبطية مصر،

في 28 ربيع الأول سنة 1280هـ، نصه: «صدر أمرنا إليكم بما اقتضته إرادتنا عن مشتري الأماكن والدكاكين التي تلزم لتوسيع الطريق الذي بقنطرة الموسكي، من أول رأس القنطرة، وإبلاغ اتساعه إلى الرسم الموجود بطرفكم..».

وينسب الشارع إلى الأمير «عز الدين موسك» أحد أمراء الدولة في عهد صلاح الدين الأيوبي، وهو الذي أنشأ القنطرة التي اشتهرت باسمه.

وبالرغم من أن القاهرة منذ إنشائها، تتمتع بمخطط مستطيل، مما يهب الفرصة لإيجاد تقاطعات طولية وعرضية بسهولة، إلا أن هذه الميزة لم تستغل جيدًا، فلم تعرف القاهرة سوى طريق طولي واحد، يربط باب زويلة جنوبًا بباب الفتوح شمالًا، وهو المعروف بالشارع الأعظم (المعز لدين الله) ولم تعرف طرقًا عرضية، تربط شرق المدينة بغربها، وقد يكون شارع «السكة الجديدة» هو أول طريق بهذه الصفة، ثم تلاه شارع الأزهر الذي افتتح سنة 1930م..

والملاحظة التي أبداها كاتبنا الكبير «كامل زهيري»: بأن الشوارع الرئيسية - شوارع طولية - من الشمال إلى الجنوب، ومن الجنوب إلى الشمال، ومن باب النصر إلى باب زويلة، ثم إلى السيدة نفيسة، موازية للنيل، ربما لأسباب خاصة باتجاه الشمس... ولم تبدأ في اتجاهها من الشرق إلى الغرب إلا في المرحلة الحديثة: في عهدي محمد علي وإسماعيل باشا، شارع بولاق، شقه نابوليون لأسباب عسكرية ليصل ميناء بولاق بمقر القيادة في قصر الألفي بالأزبكية!.. وشارع السكة الجديدة في الجهة الشرقية.. هناك قوانين داخلية يمكن تسميتها بالقوانين السرية الكبرى!.. فكيف نفسر أن المساجد الكبرى كانت دائمًا حول المدينة، مثل جامع عمرو، جامع ابن طولون، السلطان حسن، الأزهر الحاكم، المؤيد! انظر لوحة (14).

ميدان الإسماعيلية [التحرير] ووسط المدينة:

قلب القاهرة الأوروبية أو القاهرة الحديثة، التي تطورت وفق نسيج عمراني مختلف تمامًا عن النسيج العمراني للمدينة القديمة.. كانت الحدائق بحي الإسماعيلية تحتل في عام 1874م أكثر من نصف مساحة الحي (نحو 63 هكتارًا)، وكان يمكن اعتبار هذا الحي بمثابة حديقة كبيرة، حيث كان كل مبنى محاطًا بالأشجار والأزهار .

وكان الطريق المؤدي إلى كوبري قصر النيل، يسمى شارع الإسماعيلية (التحرير حاليًا) نسبة إلى سراي الإسماعيلية التي شيدها الخديو إسماعيل على جزء من الأراضي والأملاك، التي وهبها إلى قريبته الثالثة «جشم آفت خانم أفندي» والتي تشمل في معظمها منطقة الإسماعيلية! انظر لوحة (15).

وإلى يمين مدخل كوبري قصر النيل، كانت «تكنات قصر النيل» التي شيدها الخديو سعيد، وكان بها مقر نظارة (وزارة) الحربية، ثم اتخذت تكنات للجيش البريطاني عقب الاحتلال، وكان سعيد باشا قد أقام هذه التكنات، في نفس موقع القصر الذي شيده محمد علي لكريمته «نازلي هانم» وعرف باسم «قصر النيل» وفي موقع هذه التكنات بعد هدمها، شيد فندق هليتون النيل ومقر جامعة الدول العربية، وفي عام 1902م، افتتح المتحف المصري في موقعه الحالي، بعد انتقاله من بولاق ثم سراي الجيزة..

وقد شيد مجمع المصالح الحكومية على جزء من موقع سراي الإسماعيلية، كما يضم الميدان: المبنى القديم لوزارة الخارجية (سراي الأمير كمال الدين حسين) ابن السلطان حسين كامل، وإلى الغرب منه، كان قصر «قوت القلوب الدمرداشية» الذي هدم لتوسعة ميدان كوبري قصر النيل (ميدان الأمير إلهامي) بن عباس حلمي الأول، وجامع عمر مكرم شيد في نفس موقع «جامع العبيط» الذي ذكر علي مبارك أنه كان داخل السور الغربي لسراي الإسماعيلية.

ويتصل الجنوب الشرقي للميدان، بمنطقة الوزارات ومجلس الشعب، والشمال الشرقي يتصل بالمنطقة التجارية الهامة التي اشتهرت بـ«وسط البلد»!

وتجدر الإشارة إلى أن الاحتياطي العقاري الكبير المتمثل في حدائق حي الإسماعيلية، قد شهد تحولات ضخمة ومتباينة، تبعًا للطلب في سوق العقارات، ونوعية الطرز المعمارية، ففي الفترة من 1874 حتى 1890م، بدأ تقسيم الأملاك الكبرى، وشق شوارع لتوزيع قطع الأراضي الجديدة، وكانت الطرز المعمارية لعمارات صغيرة مصفوفة أو فيلات، ومنذ عام 1910م، بدأ انتشار العمارات الشاهقة بهذه المنطقة، فعلى سبيل المثال، المنطقة التي تحدها شوارع قصر النيل وشريف وثروت وسليمان باشا، ومساحتها نحو 9,5 فدان، وكانت تعد أكبر بلوكات حي الإسماعيلية، قد شهدت تطورًا عمرانيًا مختلفًا، ففي عام 1874م، تم تقسيمها إلى تسع قطع مختلفة المساحات، أكبرها نحو 1200 متر مربع، وقد أدى تقسيم البلوك - حديقة تلو أخرى - إلى ظهور شارع «الشواربي» في البداية، ثم افتتح شارع «البورصة الجديدة» و«الفضل».. وفي البداية، كانت قطع

الأراضي المطلة على الشوارع الرئيسية، تحتلها العمارات بالكامل تقريباً، أما في الداخل، حيث الأراضي المطلة على الشوارع الجديدة الضيقة نسبياً، فكان يتم بناء فيلات، ثم مع ازدياد الكثافة، اختفت هذه الفيلات تدريجياً لتحل محلها عمارات متراسة، تحتل كافة الواجهات.. انظر لوحة (16).

كذلك قصر قطاوي باشا وحديقته، الذي كان يحتل عام 1874م، جزيرة مثلثة تبلغ مساحتها نحو خمسة أفدنة، قسمت في أوائل القرن العشرين، إلى خمسة بلوكات صغيرة، تفصلها شوارع متسعة، واحتل القصر، الذي كان لا يزال قائماً، إحدى هذه البلوكات، وسط حديقة تقلصت إلى ممر دائري!

الخطوط العريضة لحي الإسماعيلية - الذي أصبح وسط المدينة مستقبلاً - أصبحت واضحة المعالم، بما فيها الشوارع التي لا تزال نشطة للغاية حتى يومنا هذا.. قصر النيل، عماد الدين، الفلكي، قصر العيني، سليمان باشا، المدابغ (شريف حالياً).. وتجدر الإشارة إلى أن مدابغ الجلود بالقاهرة، كانت بجهة حوش الشرفاوي وسوق العصر، جنوبي ميدان باب الخلق، حتى أوائل القرن الماضي، فتضرر الناس منها، فنقلت أرض اللوق، ثم نقلت في عام 1865م إلى موقعها الحالي خلف سور مجرى فم الخليج..

وحتى عام 1900م، ظلت المدينة على التزامها أساساً بالخطط الموضوعة في عصر إسماعيل، وعمرت المنطقة الواقعة غرب الأزبكية، بالعمارات الزاخرة بالمكاتب التجارية، التي ملأت الفراغات الكائنة بين الفيلات، وانتقل وسط المدينة إلى هذه المنطقة، وبالقرب منها - جنوباً - كان إسماعيل قد شيد وزارة الأشغال العمومية في موقعها الحالي، ثم أنشئت عدة وزارات أخرى، لتكون نواة لمنطقة المنشآت الحكومية المعروفة باسم الإنشأ والدواوين، وإلى الغرب منها شيدت عدة دور على الطراز «الفيكتوري» لسكنى المستشارين الإنجليز. انظر لوحة (17).

كوبري قصر النيل:

في كتابه «إسماعيل المفترى عليه» يقول «بيير كرايبتس» الذي كان قاضياً بالمحاكم المختلطة بالقاهرة:

«... والجسر (الكوبري) العظيم الذي كان يصل القاهرة بالجزيرة، والذي أنفق إسماعيل باشا 105 آلاف من الجنيهات على إنشائه، قد هدم سنة 1931م لا لأنه لم يبق صالحاً للاستعمال، بل لأن سير الرقي وظهور السيارات جعل ذلك الجسر أضيق من أن يتسع لمقتضيات المستقبل، لسنا نعلم، كم من الجسور الأربعمائة والتسعة والعشرين، التي بناها إسماعيل على الترع النيلية، لا تزال باقية مخلدة ذكراه.. والمهم أن الجسر الذي كان «ملنر وكولفن وكرومر» ينتقلون عليه كل يوم في ذهابهم إلى النادي الخديوي (نادي الجزيرة) قد شيده إسماعيل، لكن أولئك الثلاثة وأعضاء «لجنة كايف» لم يتذكروا هذه الحقيقة عندما تكلموا عن الأموال التي أنفقها ذلك العاهل العظيم..»!

وكوبري الجزيرة.. أو كوبري قصر النيل، هو أول كوبري يشيد على نيل القاهرة، فعندما كان العمل جارياً في سراي الجزيرة، لم يعد من اللائق إبقاء العبور من شاطئ إلى شاطئ: على صف من المراكب المربوطة إلى بعضها، ممدود عليها ألواح من الخشب، وبات من المحتم تشييد كوبري يتناسب مع فخامة الأحياء التي سيربط بينها.. انظر لوحة (18).

في عام 1869م، عهد إلى شركة «Fives lille» الفرنسية بتنفيذ هذه الفكرة، ففي 27 محرم سنة 1286هـ أصدر إسماعيل باشا - أمراً عالياً - إلى نظارة الأشغال، هذا نصه: «القونتراتو المعقود مع مسيو جانجيه، بالتوكيل عن قومية فيف ليل، وممضي منه ومنكم بالتوكيل عن الحكومة، بشأن أعمال كوبري على بحر النيل، للتعدية للبر الغربي، من جهة قصر النيل، بمبلغ وقدره مليونان وسبعمائة.. وخمسون ألف فرنك، والحسبة المرسولة مع الكونتراتو بيان مواعيد التأدية، والفايض ستة في المائة سنوي، صار منظوري ووافق إرادتي قبول واعتماد ذلك، من بعد مراجعة الحسبة وتطبيقها والتصديق على صحتها بديوان المالية».

ونشر بجريدة «الوقائع المصرية» بتاريخ 18 مايو سنة 1871م:

«اجتمع لتركيب الكوبري المعدني الموصل من قصر النيل إلى الجزيرة، المتعهد به قومية فيف ليل، كل من حضرة سعادة ناظر الأشغال العمومية وبعض حضرات المهندسين والذوات المعترين والمدعويين من مسيو جانجيه، مأمور أشغال ذلك الكوبري، فركب أمامهم واستحسنوا عمليته، وذلك أن الجزء الأول من ظهر الكوبري البالغ طوله 500 قدم، كان موضوعاً على سطح تراب بطول صور قصر النيل، مرتفعاً قليلاً عن الأرض بعجلات صغيرة معدنية، فحركه جماعة قليلة العدد بألة أداروها يقال لها (الونش) فأخذ في السير الهويينا على عجالاته بلا مشقة، جهة المكان اللازم لتركيبه فيه على النيل، ومهندس ذلك العمل، قد استعمل الطرق الهندسية اللازمة في إحكام الكوبري ومثانته، والذي يراه ذلك المهندس، بمقتضى سرعة العمل الحاصلة فيه، أنه يتحقق تمام تركيب أجزائه في آخر فصل الصيف.. ويمر عليه العالم!!»

وافتح رسمياً في 10 فبراير سنة 1872م، وبلغ طوله 406 أمتار، وعرضه عشرة أمتار ونصف المتر، منها ثلاثة أمتار للإفريزين، وله فتحتان ملاحيتان، ويدار بالجزء المتحرك منه باليد، وكان أمر كريم قد صدر إلى نظارة المالية، في 29 شعبان سنة 1292هـ، منطوقه:

«قد علمنا أن الأربعة تماثيل سباع، السابق توصية الخواجة: جاكمار عنهم برسم وضعهم على رأس كوبري قصر النيل، صار حضورهم، وموجودين والحالة هذه بالبحرية، وأن أثمانهم ومصاريفهم بلغت 1685 كيسه وكسور، وحيث اقتضت إرادتنا خصم المبلغ - المحكي عنها - في هذا الوقت الذي هو زمن النيل، إلى قصر النيل، ووضعها به بحالة الحفظ والصيانة حتى ينظر في تركيبها!»

صنعت هذه التماثيل البرونزية في إيطاليا، وبلغ ثمنها وتكاليف شحنها إلى الإسكندرية ما يعادل: 8425 جنيهاً مصرياً.

في عام 1920م تمت عملية ترميم شامل لجسم الكوبري، وفي أول أبريل سنة 1931م توقف المرور على هذا الكوبري، واقتضت الضرورة وضع مشروع الكوبري الجديد في إطار التنفيذ السريع، ووضع الملك فؤاد حجر الأساس في 4 فبراير سنة 1931م، وافتتح في 5 مارس سنة 1933م، بعد أن اقتضت «مكارم جلاله الملك أن يحمل اسم منشئه الكريم: الخديو إسماعيل، اعترافاً بفضله واحتفاظاً بذكراه»

كوبري البحر الأعمى [جلاء]

أنشئ هذا الكوبري عام 1872م، ويقابل كوبري قصر النيل على الفرع الغربي، ويصل الجزيرة بالجزيرة.. ونبأ هذا الكوبري نجده في «الوقائع المصرية» بتاريخ 13 فبراير سنة 1872م:

«قبل ختام الشهر الثالث، بلغنا أن القنطرة الحديد المشتغل بعمليتها منذ مدة بين جانبي النيل، تجاه قصر النيل، بمعرفة مسيو (غازه) مهندس القومبانية الفرنسية المعروفة (فيف ليل) ستفتح بعد أيام قليلة، وهي من المحاسن الخديوية الجليلة..».

والكوبري الحالي شيد عام 1914م، وسمي: كوبري الإنجليز، ويبلغ طوله 145 مترًا، وعرضه 19 مترًا، منها ثلاثة أمتار ونصف المتر لكل إفريز، ثم اشتهر بـ «كوبري بدبعة» حيث كان كازينو الفنانة الشهيرة «بدبعة مصابني» في موقع شيراتون القاهرة، وعقب ثورة يوليو، أطلق عليه «كوبري الجلاء».

جاردن سيتي:

أساس هذه المنطقة، التي وصفت يومًا بأنها «سلة أزهار انبثقت منها القصور الفخمة والدور البديعة».. هو القصر العالي، الذي شيده إبراهيم باشا عام 1835م، والقصر الذي شيده لولده الأمير أحمد باشا..

وكان الحد الغربي للقصر العالي: شاطئ النيل، ويحده شرقًا: طريق بولاق - مصر القديمة (شارع قصر العيني حاليًا) وشمالًا: قصر أحمد باشا، وحده الجنوبي: الطريق الفاصل بينه وبين قصر العيني.

والقصر العالي، أساسه المنطقة التي كانت تعرف بـ«بستان الخشاب» أدخلها محمد علي في أملاك نجله إبراهيم باشا، وأقيمت بها ثكنات للجند، وعقب عودة إبراهيم باشا من حرب الشام، أمر بتمهيد أرض هذه المنطقة، ثم أنشأ قصرًا أسماه: القصر العالي انظر لوحة (19)..

وفي واقع الأمر، كان القصر العالي مكونًا من قصرين يجمعهما سور واحد، القصر الجنوبي خصصه لزوجته الأميرة خوشيار هانم قادين، والدة إسماعيل، والقصر الشمالي خصصه لزوجته الأميرة شيوه كار قادين، وقد سكن إسماعيل هذا القصر، وبه ولد توفيق في 30 إبريل سنة 1852م،

وفيه تمت مراسم أفراس الأناجال التاريخية، ثم آل القصر إلى الدائرة السنوية، فباعته سنة 1906 بثلاثة أرباع مليون جنيه مصري!.. إلى شركة «شارك باكوس».. ونقلت واجهة القصر بالكامل إلى حوش عائلة الوقاد بقرافة المماليك، وعليها شارات الخديوية، وقامت الشركة بهدمه وبيع أنقاضه وأثاثه الفاخر وتحفه الثمينة وأشجار حدائقه النادرة إلى كبار الأعيان!

وقد حدد علي باشا مبارك شوارع القصر العالي، وهي تبدأ من شارع مصر العتيقة (قصر العيني) على النحو التالي: شارع الشيخ يوسف (عبد القادر حمزة) وينتهي إلى شارع عماد الدين، وشارع الداخلية (محمد باشا سعيد - حسين حجازي) وينتهي بشارع منصور، ثم شارع الطرقة (إسماعيل أباطة) وينتهي بشارع الدواوين وشارع الإنشا (صفية زغلول) وكان به سراي الإنشا..

وقد وهب الخديو إسماعيل هذا القصر إلى والدته الأميرة خوشيار هانم، بمقتضى أمر كريم في 19 رجب سنة 1280هـ إلى سعادة مصطفى الكريدي محافظ مصر، منطوقه:

«نحيطكم علمًا أنه اقتضت إرادتنا وهب القصر العالي وسائر الأراضي والأبنية الملحقة به، المحدودة غربًا بساحل البحر وشرقًا بالطريق الموصل إلى بولاق ومصر القديمة، وشمالًا بقصر أخينا المرحوم أحمد باشا، وجنوبًا بالطريق الفاصل أرض القصر العالي عن قصر العيني، لحضرة صاحبة الدولة والعصمة والدتنا المحترمة..».

وتضمنت حاشية هذا الأمر: «أن الأملاك والأراضي المتعلقة بالميري الموجودة ضمن الحدود الأربعة المذكورة، مثل فابريكة السكر وجميع الأبنية الأخرى داخلة ضمن حكم الهبة»، كما وهبها مخازن قصر المرحوم أحمد باشا، بناء على التماس دفعته قرينة أحمد باشا: صاحبة العفة شمس هانم، بالتنازل عن هذه المخازن، مقابل منحها أبعدية مقدارها ألف فدان من الأطيان المتروكة.

ووالدة الخديو إسماعيل، كانت جميلة محبة للمرح والانشراح، أقامت لفترة مع حاشيتها بسراي الزعفران بالعباسية، ثم انتقلت مرة أخرى إلى القصر العالي.. ويقول أحمد شفيق باشا في مذكراته، عن الحياة الداخلية بسراي الوالدة باشا:

«.. في أيام الأعياد والمواسم والاستقبالات الكبيرة وفي أفراس الأناجال، كانت الموسيقى تعزف في كشك من الخشب متصل بالحريم، وعند دخول الزائرات تعزف بالسلام، وبالأدوار العربية والتركية والأفريقية، وكان بالبهو الداخلي فرقة أخرى موسيقية وترية مصحوبة بمغنيات مصريات وتركيات، بالسراويل المزركشة بالقصب، وفي مكان آخر، كانت توجد فرقة راقصات في أحسن زي، وكلهن من ربات الجمال، وكان للأميرة خوشيار هانم غرام بالفن الجميل، وكانت تنتقي الجواري الحسان.. وهؤلاء الجواري كن يشتريين من بعض الأتراك، الذين كانوا يأتون بهن من الأستانة، وأغلبهن من أصل شركي..

وكل شيء في هذه السراي كان أميل للطريقة الشرقية، فكانت الوالدة تجلس مع البرنيسيات والزائرات غير الأجنبية على حشايا مغطاة بقماش مزركش بالقصب، توضع على الأرض بهيئة

دائرة في وسطها كرسي توضع فوقه صينية من الفضة وأدواتها كذلك، إلا في المناسبات الخاصة، فتكون جميعها من الذهب، ويقوم بالخدمة جوار يرتدين اللباس الفاخر وكان استقبال الزائرات على النظام المتبع بقصر عابدين، إلا أنه يختلف في جلوس الزائرات في غرفة الاستقبال على مقاعد شرقية عالية، في حين تجلس الوصيفات على حشايا أرضية، وتقدم للزائرات القهوة مثلما في عابدين، وكان يقدم لهن شبكات التدخين لمن يدخن.. ثم تقاد الزائرات إلى غرفة استقبال الوالدة، التي ترتدي الملابس الشرقية الثمينة، وكانت ترحب بهن باحترام وبشاشة، ثم ترجع الزائرات إلى الصالون ويشربن الشربات أو السوييا، وبعدها يرافقهن الأغوات إلى الباب الخارجي».

وسراي الإسماعيلية الصغرى، بجوار كوبري قصر النيل، وسميت بهذا الاسم عندما شرع في تشييد سراي الإسماعيلية الكبرى..

وكان الخديو إسماعيل قد اشترى موقع سراي الإسماعيلية الكبرى أو (السراي المستجدة) في 6 جمادى الآخرة سنة 1288هـ/1871م، بمقتضى الأمر الكريم الصادر إلى المالية ومنطوقه: «قد اقتضت إرادتنا أن الأراضي والأماك التي صار مشتراها بجهة جزيرة العبيط، التي حدها البحري: طريق كوبري قصر النيل، والقبلي: جنيئة أحنيا المرحوم أحمد باشا، والشرقي: طريق الشيخ يوسف الموصل للقصر العالي ومصر القديمة، والغربي: البحر الأعظم، جميع ذلك يكتب به حجة شرعية، بما في ذلك الأرض الجاري وسيجرى بها بناء السراي المستجدة هناك..». وجزيرة العبيط، كانت أشبه بقرية صغيرة، يفصلها الماء عن منطقة باب اللوق، ثم ردمت واختلطت بأرض اللوق، وهدم إسماعيل مبانيها، وضم جامع وضريح العبيط بداخل السور الغربي للسراي، وموقعها الآن في المنطقة التي تضم مبنى وزارة الخارجية وجامع عمر مكرم (في موقع جامع العبيط) ومجمع المصالح الحكومية.

بعد هدم القصر العالي، قسمت أراضيه عام 1906م، بدءًا بمنطقة قصر الدوبارة (مقر السفارة البريطانية) والذي كان قصرًا للأميرة أمينة هانم بنت إلهامي باشا ابن عباس الأول، قرينة الخديو توفيق، ووالدة الخديو عباس الثاني، وشيدت القنصلية الإنجليزية التي ضمت عددًا من المباني المطلة على النيل، وبدأ ظهور القصور والفيلات الفاخرة وسط حدائق رائعة شاسعة، على شوارع ذات تصميم مستدير على النمط الإنجليزي، ومن أجمل القصور التي كان يتألق بها حي جاردن سيتي، على سبيل المثال: قصر الأميرة نعمة الله ابنة الخديو توفيق، وقصر الأمير عباس حلیم، وقصر إلهامي حسين زوج الأميرة شويكار. ثم شهد الحي، في مرحلة تالية، عمارات حديثة ومقار للبنوك والمكاتب التجارية بين القصور والفيلات التي هُجرت حدائقها وتآكلت واجهات مبانيها!

حدائق وشارع شبرا:

كانت شبرا فيما مضى هي «فردوس القاهرة» هكذا وصفها الأديب الرحالة البريطاني «دوجلاس سلادين» في منتصف القرن التاسع عشر، وأشاد بالقصور المشيدة على الطراز الإيطالي، محاطة

بأندر النباتات والزهور وأشجار النخيل، والبرتقال والموز والتين.. وأشار إلى أن شبرا كانت المقر المفضل والمحبب إلى محمد علي باشا.

وتحت عنوان «ذكرى من شبرا».. يصف الأديب الرحالة الفرنسي الشهير: جيرار دي نير فال، انطباعاته التي سجلها عن رحلته في الشرق، فيقول: «منذ سنين زرت في القاهرة، مقر والي مصر، وهو مقر جميل في شبرا، جعل منه محمد علي: جنة الشرق»!.. ووصف شارع شبرا بأنه «لا مثيل له في العالم»! انظر لوحة (20).

ويصف الفنان الرحالة الفرنسي «مونتبار» حدائق شبرا، بأنها «شانزليزيه Champs Élysées -الشرق».. تترادها الطبقة الراقية من القاهريين، والعربات الفخمة تجرها الجياد المجرية المطهمة، تحمل أفراد الأسرة الخديوية، والأمراء وكبار الأعيان، يتقدمها قمشجية (سياس) بستراتهم المزركشة يفسحون لهم الطريق.

وإذا اطلعنا على خريطة القاهرة، التي وضعها علماء الحملة الفرنسية عام 1800م، سيتبين لنا أن قسم شبرا: كان أرضًا زراعية بها كثير من البساتين وبعض المساكن المتناثرة بجزيرة بدران. وعندما شيد محمد علي قصر «شبرا الخيمة».. تم تمهيد طريق تحفه أشجار الجميز والأكاسيا أطلق عليه «سكة شبرا» وافتتح عام 1808م، وفي الفترة من عام 1830م إلى عام 1835م، لوحظ انتشار كبير للقصور والحدائق على جانبي شارع شبرا، فقد كان لشق الترع البولاقية وخليج الزعفراني، وتطوير نظام توزيع المياه، أثر كبير في زراعة ونمو الحدائق، رغبة من الأمراء في الاقتداء بالوالي والالتفاف حوله، أو التواجد بالقرب منه!.. وكان محمد علي قد أنشأ شمالي سكة شبرا، قصرًا لابنته زينب هانم، وقصرًا آخر لنجله حليم باشا.

ثم أنشأ الخديو سعيد «قصر النزهة» عام 1858م، كما شيدت حرمة «انجوا هانم» قصرًا ومسجدًا بجزيرة بدران، عام 1865م، وشيد شيكولاني قصره الشهير عام 1873م..

وفي عهد الخديو إسماعيل، شهدت شبرا نموًا عمرانيًا متزايدًا، وكان قد أهدى قصر النزهة «بطريق شبرا والأراضي الموجودة بداخل سور القصر إلى صاحب الدولة طوسون باشا» في 29 شعبان 1279هـ، وقد زار السلطان عبد العزيز هذا القصر (مدرسة التوفيقية الثانوية حاليًا) في 22 شوال، في ضيافة الأمير عبد الحليم باشا عم إسماعيل، بعد أن رأس حفل توديع المحمل المصري إلى الحجاز، وفي عام 1869م، شيد الأمير طوسون بن سعيد باشا، ووالد الأمير عمر طوسون، قصره الشهير، بجوار مصنع المبيضة الذي أمر بإنشائه محمد علي، بشارع أبي الفرج وهذا السراي تحتلها اليوم مدرسة شبرا الثانوية!.. ثم تبعه عدد من الأمراء والأميرات وكبار التجار والأعيان، فشيّدوا القصور الفخمة والبساتين الزاهرة على جانبي شارع شبرا، ثم امتدت حركة العمران إلى شاطئ النيل وجسر السكة الحديدية وترعة الإسماعيلية، وأصبحت ضاحية للإقامة والنزهة، وانتشرت بها بعض المقاهي، مثل قهوة «سي خليل»..

وفيما بين عامي 1863م و1865م، تم تنفيذ بعض الأعمال الهندسية لتحويل مجرى النيل إلى الشرق، تجاه القاهرة وبولاق، لتظهر أرض جديدة «طرح النهر» عام 1866م غربي شارع أبي الفرج وجسر طراد النيل القديم، وهذا الطرح هو ما يعرف بروض الفرج والساحل.

في عام 1881م، تم تمهيد شارع شبرا بالحجر الجيري، وفي العام التالي، تمت إنارته بمصابيح الغاز، وفي عام 1892م، ظهر أول تقسيم للأراضي في شبرا، بين خط سكك حديد الصعيد وشارع جزيرة بدران، بالقرب من ورش السكك الحديدية، وبدأ العمران يزحف من الجنوب إلى الشمال على جانبي شارع شبرا، ليحل مزيد من تقسيمات المباني للإسكان الشعبي محل الحدائق، والقصور والدور الفخمة التي بدأ أصحابها بهجرها، مع بداية القرن العشرين، وتحول قصر شيكولاني إلى مصنع للسجاير!.. وترك تطوير شبرا للشركات العقارية وشركات البناء الخاصة، وابتعث المشروع الحضري، بحصول الشركة البلجيكية لترام القاهرة، على امتياز بمد خط من باب الحديد، يمر بكوبري شبرا، إلى نهاية شارع شبرا، يتفرع منه خط إلى ساحل روض الفرج، واحتفل بافتتاحه في 19 مايو سنة 1903م، بعد أن أعيد تمهيد الشارع بحجر البازلت.

وهكذا أفرزت حدائق شبرا، مدينة كانت عناصرها الوحيدة: شارع شبرا والترعة البولاقية، التي ردم الجزء الجنوبي منها عام 1905م، أما الطريق العرضي الوحيد - شارع روض الفرج - فقد أنشئ عام 1901م، بعد نزع ملكية عدد من العقارات، ليخدم الميناء الذي أقيم في بداية هذا القرن.

حلوان - التوفيقية:

تحت وطأة النمو السكاني المتزايد، كان من الطبيعي أن يتسع عمران القاهرة في ذلك العهد، وإن تركز هذا التوسع في المناطق التي أدمجها إسماعيل باشا في إطار مشروعاته لتطوير القاهرة، وشهدت المنطقة الواقعة غرب حدائق الأزبكية حركة عمرانية نشطة، حيث تزاحمت وتلاصقت فيها المباني التجارية والمؤسسات المالية والاستشارية، لتتكامل مع العمارات السكنية والفيلات - كما سبق أن أشرت - وامتدت المنطقة التجارية من حي الموسكي حتى ميدان الأوبرا غربًا، وسرعان ما تمكن التجار اليهود واليونانيون والأرمن، من بسط سيطرتهم على مركز التجارة الأوروبية في هذه المنطقة.

وتحول شارع درب الجماميز بحي السيدة زينب، إلى منطقة تزينها العمارات الأنيقة وبدأ استكمال حي الحلمية، الذي كان أبرز معالمه: قصر الحلمية، الذي بناه عباس حلمي الأول، ثم آل إلى حفيدته الأميرة أمينة هانم قرينة الخديو توفيق..

وكانت منطقة حلوان قد حظيت باهتمام الخديو إسماعيل، وكانت عيون المياه المعدنية (الكبريتية) التي اكتشفت في عهد عباس الأول عام 1850م، قد نالها الإهمال، إلى أن قام الخديو بزيارتها عام 1871م، فأمر بضرورة الاهتمام بها، وإنشاء حمامات بجوار العيون، على هيئة أكشاك خشبية، وبناء فندق للمسافرين، وحوض سعته 5 آلاف متر مكعب ودار للاستشفاء، وقد أشارت جريدة «الوقائع» في عددها الصادر بتاريخ 13 يناير سنة 1874م، إلى ما شهدته حلوان من إقبال وعمران

«.. والآن نرى تلك الجهة كل يوم في زيادة العمرية، في الظلال الوارفة الخديوية، وبها محل الماء يكون من جملة الحمامات المعدودة الشفائية، والمنتزهات العامة لجميع البرية».

وشيد الخديو قصر «الوالدة».. وفي 21 يناير سنة 1877م، افتتح خط سكة حلوان من ميدان محمد علي إلى حمامات حلوان.

وحتى نهاية عصر إسماعيل، ظل هناك جيب كبير من الأراضي المعدة للبناء - داخل نطاق المدينة - عبارة عن مثلث يحده جنوباً شارع بولاق (فؤاد) وشرقاً شارع نوبار، وفي الشمال الغربي ترعة الإسماعيلية، وهذه المنطقة كانت أسفل مجرى النيل، قبل أن يغير اندفاع الفيضان مساره إلى جهة الغرب، وظلت أرضاً منخفضة تتجمع بها المستنقعات ومياه الرشح.. إلى أن أمر الخديو توفيق بتصريف مياه تلك المستنقعات وتسويتها وردم الترع الفرعية التي كانت تتخلل هذه المنطقة، التي بدأت حركة العمران تزحف إليها، إلى أن تكاثفت ليظهر إلى الوجود الحي الذي نعرفه الآن «حي التوفيقية»، والذي يمثل جزءاً هاماً من المنطقة المركزية الحالية أو ما يمكن أن نسميه: قلب القاهرة الأوروبية!

أقول نجم إسماعيل:

كانت طموحات إسماعيل في إنشاء مدينة حديثة على الطراز الأوروبي، بكل مظاهر تلك الحضارة، ومحاولات تحديث وتطوير القاهرة القديمة، وتعميم المرافق، وتشبيد القصور الفخمة، وإنشاء البساتين والمنتزهات العامة، وتمهيد الشوارع الجديدة، وإقامة الحفلات الصاخبة، ومشروع قناة السويس، فضلاً عن ضخامة الجزية التي كانت تنتزعها استانبول، ثمناً لكل امتياز جديد من امتيازات الحكم الذاتي التي منحها له.. كل ذلك كان له آثاره المباشرة في رفع مصروفات الحكومة المصرية إلى مستوى غير معهود، مما أدى إلى اتساع الفجوة بين النفقات المتضخمة للحكومة الخديوية ومواردها، فلجأ إسماعيل إلى الاستدانة من بيوت المال الأوروبية، الأمر الذي أدى إلى رهن نصيب مصر من أسهم وأرباح شركة قناة السويس..

وتصاعدت الأزمة المالية عام 1875م، وتفاقت أحداثها، إلى أن سارع «ديزرائيلي» رئيس وزراء بريطانيا آنذاك - دون انتظار لموافقة مجلس الوزراء - لشراء كل أسهم مصر في قناة السويس، مقابل أربع ملايين من الجنيهات!.. دفعها «روتشيلد» أحد ذئاب الرأسمالية اليهودية العالمية، ليحقق دزرائيلي أعجب «صفقة مالية في التاريخ!.. كانت سبباً مباشراً في تدخل إنجلترا لإدارة الشؤون المالية لمصر، حتى انتهى الأمر في عام 1882م باحتلالها العسكري للبلاد.

وفي عام 1878م، تحول الخديو إسماعيل إلى «ملك دستوري» بمقتضى نظام «الرقابة الثنائية» الذي فرضته بريطانيا وفرنسا، للإشراف على الموارد والإنفاق، ثم تحولت السلطة الحقيقية إلى مجلس النظار، الذي ضم ناظرًا بريطانيًا للمالية، وآخر فرنسيًا للأشغال العامة، وذلك بعد أن ألغى نظام الرقابة الثنائية..

وفي 26 يونيو عام 1879م، أعلن السلطان التركي - بضغط من بريطانيا وفرنسا - عزل إسماعيل عن عرش مصر، فرحل إلى إيطاليا، ووافته المنية في 2 مارس عام 1895م باستانبول، ودفن بجامع الرفاعي في 11 مارس.

وهكذا هوى نجم الخديو إسماعيل، بعد أن منح القاهرة وجهًا جديدًا متألّفًا، في السنوات الاثنتي عشرة الأولى من حكمه، ولكنه فقد عرشه في السنة السادسة عشرة!

معالم السياسة الحضارية:

في السطور التالية، سأحاول أن أعرض - في إيجاز - أهم معالم القاهرة وما أبدعه إسماعيل باشا - في إطار سياسته الحضارية - في مجالات الخدمات والمرافق العامة، واستكمال ما بدأه جده محمد علي باشا في مشروعات البنية الأساسية القومية: شبكة هائلة من الترع والجسور والقناطر والأهوسة، وشبكة الطرق الرئيسية، وشبكة السكك الحديدية، والعديد من المؤسسات الدستورية والعلمية والثقافية..

ففي عصره الزاهر، فتحت أهم شوارع القاهرة:

* محمد علي (القلعة كلوت بك، الفجالة، عبد العزيز، العباسية، السكة الجديدة، قصر النيل، عماد الدين، المغربي (عدلي) المناخ (عبد الخالق ثروت) المدابغ (شريف) الشيخ حمزة (هدى شعراوي) سليمان باشا (طلعت حرب) وشارع الأهرام، وإعادة تمهيد شارعي شبرا وبولاق.

* شيد حدائق: الأزبكية، الأورمان، الجزيرة، الأسماك، الحيوان، ومنتزهات شبرا.

* أسس أحياء جديدة: الإسماعيلية، الأزبكية، عابدين، الفجالة، وشملت خطط التطوير أحياء الحلمية، الموسكي، السيدة زينب، الجيزة..

* أنشأ ميادين: إبراهيم باشا (الأوبرا) الإسماعيلية (التحرير) عابدين، وأعاد تخطيط ميدان القلعة وغرس به الأشجار.

* كان أول من قام بعمل تماثيل في الميادين العامة، فبالإضافة إلى تمثال محمد علي باشا بميدان (القناصل - المنشية) بالإسكندرية، أقام تماثلاً لإبراهيم باشا بميدان الأوبرا حالياً، وآخر لسليمان باشا.

* جدد أسوار قلعة صلاح الدين، وتجديد وتوسيع المشهد الحسيني، كما شرع في تشييد جامع الرفاعي، الذي تكلفت بنفقاته الأميرة خوشيار هانم (الولدة باشا).

* أولى إسماعيل السكك الحديدية اهتمامًا عظيمًا.. حيث أصدر «إرادة لنوبار باشا ناظر الأشغال العمومية» في 9 رجب سنة 1281هـ: «كما هو مبين في أمرنا الصادر إلى سعادتك رقم 1 قد صار توجيه نظارة ديوان الأشغال العمومية الذي تأسس حديثًا لتنظيم الأمور والمصالح المؤدية لتقدم بلادنا على الوجه اللائق إلى فطانتكم، حيث إن مصلحة السكة الحديدية هي من أعظم أسباب وبواعث تمدن وعمران البلاد وتقدمها، فبناء عليه قد اقتضت إرادتي ضم هذه المصلحة إلى مأموريتكم وجعلها من فروع الديوان المذكور» وكانت خطوط السكك الحديدية، قبل توليه العرش، تبلغ 245 ميلًا، وفيما بين عام 1863 - 1872م، وصلت الشبكة إلى 1112 ميلًا.

* شراء مكاتب البريد الإيطالية، التي كان يديرها مسيو موتسي، وصدور أمر عال بتاريخ 14 يناير 1865م بإقرار الصفقة وضم الأرباح إلى إيرادات الدولة، وشيد المبنى المركزي لمصلحة البريد بالعتبة عام 1874م.

* شراء المطبعة الأميرية «على اسمه وذمته» بمبلغ 20 ألف جنيه في 15 رمضان 1281هـ، بناء على إرادة لناظر الدائرة السنوية، وكانت قد أهديت في عهد سعيد باشا إلى عبد الرحمن رشدي بك «... حيث إن هذا المحل من الآثار الجلية ومنافعه وفوائده للعامّة عظيمة، وأن المروءة والإنسانية لا ترضى ولا تقبل أن تشاهد هذا الأثر الجليل مشرفاً على الخراب وأن تنظر تعطيله واندراسه..»

* تشكيل ديوان المدارس، وإنشاء المدارس التجهيزية والمبتديان، بمقتضى الأمر العالي الصادر في 26 يناير 1863م، وكان مقرها بسراي العباسية، كما أنشأ عددًا من المدارس الحربية بالعباسية: القيادة (المشاة) السواري (الفرسان) الطوبجية (المدفعية) ومدرسة أركان الحرب، ومدرسة صف الضباط.

* أعاد تنظيم مدرسة الطب، ومدرسة المهندسخانة خلال عام 1865م.

* أنشأ عددًا من المدارس العليا: مدرسة الإدارة والألسن (الحقوق) في إبريل 1867م، ومدرسة المساحة والمحاسبة في يناير 1868م، ومدرسة اللسان المصري القديم (علم المصريات) عام 1869م، وكان أشهر خريجها عالم المصريات أحمد كمال باشا، ودار العلوم في أغسطس 1872م.

* في عهده أقيمت أول مدرسة للبنات في مصر: مدرسة السيوفية للبنات، في يناير 1873م، شيدها زوجه الثالثة: الأميرة جشم أفت هانم.

* افتتاح الأنيقة خانة (دار العاديات - المتحف المصري) ببولاق، في 18 أكتوبر عام 1863م، أما المتحف الحالي بميدان التحرير، فقد افتتحه عباس حلمي الثاني عام 1902م. انظر لوحة (21).

* في 4 يناير 1868م، افتتح المسرح الكوميدي بالأزبكية، وفي الأول من نوفمبر 1869م، افتتح إسماعيل باشا: دار الأوبرا الخديوية، وفي نفس العام، أصدر أمرًا عاليًا بإنشاء دار الآثار العربية، وعهد بتنفيذ المشروع إلى فرانس باشا كبير مهندسي الأوقاف، إلا أن هذا المشروع صادف بعض

العقبات، إلى أن افتتح في 28 ديسمبر سنة 1903م، وعقب ثورة يوليو، أطلق عليه: متحف الفن الإسلامي.

* أنشأ دار الرصد خانة (المرصد) بالعباسية عام 1879م، نقلت فيما بعد إلى حلوان، وعهد برئاسة الرصدخانة إلى العالم الشهير: إسماعيل باشا الفلكي، كذلك أنشئت مصلحة المساحة، وعهد بإدارتها إلى سيركليفين، ثم الجنرال استون باشا رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصري.

* أنشأ «الكتبخانة الخديوية - دار الكتب المصرية» عام 1870م، وكانت تشغل الطابق الأرضي بسراي مصطفى فاضل باشا بدرب الجماميز، إلى أن نقلت إلى ميدان باب الخلق عام 1904م.

* شيد كوبري قصر النيل (قنطرة الجزيرة وكوبري البحر الأعمى) (الجلاء) عام 1872م.

* أسس «الجمعية الجغرافية الخديوية» في 19 مايو 1875م.

* شيد العديد من القصور الفاخرة، التي كانت إحدى سمات عصره:

ففي القاهرة شيدت سرايات: الجزيرة (عمر الخيام - ماريوت) الإسماعيلية، عابدين التي ولد بها الملك فاروق في 11 فبراير 1920م، الجزيرة، الزعفران (مقر إدارة جامعة عين شمس) النزهة، سراي الوالدة باشا بطوان، التي أهداها قصر العباسية (الحصوة) وقام بتجديد سراي القبة، وقصر المسافر خانة الذي ولد به في 31 ديسمبر 1830م.. وسراي القصر العالي، الذي شهد أفراح الأبطال الأمراء: محمد توفيق باشا انظر لوحة (22)، حسن باشا، حسين كامل باشا، والأميرة فاطمة هانم، في 15 يناير 1873م، كما شهد من قبل الاحتفال بزواج الأميرات: جميلة هانم، توحيدة هانم، فائقة هانم، عام 1869م.

* شيد عددًا من السرايات للأميرات لبناته:

- سراي الأميرة توحيدة هانم، حرم منصور باشا عضو المجلس المخصوص، والذي أطلق اسمه على شارع سكة حديد حلوان، وكانت السراي تمتد من شارع جامع البنات إلى درب سعادة، في موقعها الآن: مديرية أمن القاهرة ومحكمة مصر وسراي أخرى بشارع الفلكي (وزارة الإنتاج الحربي) انظر لوحة (23).

- سراي الأميرة جميلة هانم، حرم محرم باشا بن كنج شاهين ناظر الجهادية (وزير الحربية) وكانت مقر المدرسة السعودية الثانوية حتى الحرب العالمية الأولى حيث استخدم كمستشفى للقوات البريطانية، ثم مقرًا لمدرسة محمد علي للبنات، ثم لوزارة المعارف العمومية، وبموقعه الآن وزارات: التموين والتجارة الداخلية، الإسكان، والبحث العلمي.

- سراي الأميرة فائقة هانم، الابنة المتبناة للزوجة الثالثة: الأميرة جشم آفت هانم، وكانت فائقة هانم تتمتع بمكانة خاصة لدى إسماعيل، اقترنت بمصطفى باشا بن إسماعيل صديق المفتش، ثم تزوجت محمد عزت باشا، والواجهة الشمالية للسراي تطل على شارع الطرقة الغربي (إسماعيل أباطة) والواجهة الشرقية على شارع الفلكي، وهي الآن مقر وزارة التعليم..

وفي رسالته للدكتوراه - غير المنشورة - بعنوان: تحديد المواقع لمدينة حديثة من 1867 إلى 1907م، يقول الباحث الفرنسي: جان لوك أرنو: «كان إسماعيل أهم الملاك في الناصرية وكانت المساحات الأربع التي يملكها تجتمع على طول شارع قصر العيني، جنوبي هذا الحي، عام 1874م، وكان قد شيد ثلاثة قصور لبناته على هذه الأراضي، بينما كان القصر الرابع قيد الإنشاء في المواجهة بمحاذاة النيل، وكان شارع قصر العيني هو المحور الرئيسي لهذا التجمع، وكانت مدرسة البنات النبيلات مجرد مشروع في تلك الآونة».. وقد ظهرت مواقع السرايات الثلاث على خريطة «جران بك» 1874م، في المنطقة الواقعة بين شارع قصر العيني وشارع منصور، جنوبي شارع الطرقة الغربي.

- سراي الأميرة فاطمة هانم، حرم الأمير طوسون باشا ابن الخديو سعيد، وكانت إلى الجنوب من سراي عابدين عند مدخل شارع البراموني وكان إسماعيل قد أهداها سراي بولاق الدكرور، وقد تبرعت الأميرة بالأرض والأموال ومجوهراتها الخاصة من أجل إنشاء الجامعة المصرية - جامعة القاهرة الآن!

- سراي الأميرة زينب هانم، وكانت بالقرب من سراي القصر العالي، في موقع السفارة الأميركية بجاردن سيتي. هذا بالإضافة إلى سرايات أشقائه: أحمد باشا ومصطفى فاضل باشا، وسراي شقيقه في الرضاع: إسماعيل صديق باشا، ناظر المالية، وكانت عبارة عن ثلاثة قصور، على الطراز الفرنسي، تحيط بها حدائق رائعة وسور شاهق، وقد أشار علي باشا مبارك إلى أن هذه السراي قد تحولت إلى مقر لدواوين المالية والحقانية (العدل) والداخلية.

وحتى يمكننا الوقوف على التطورات الحضارية الهائلة التي شهدتها القاهرة، في ذلك العصر، وكثير من هذه الأحياء والشوارع والمعالم، مازال يشكل وجه القاهرة الحديثة في يومنا هذا، علينا أن نرجع إلى خريطة «جران بك - Grand Bey» التي وضعها عام 1874م بأمر من الخديو إسماعيل، وهذه الخريطة اعتمدت بالأساس على خريطة القاهرة في كتاب «وصف مصر» وسجل بها التعديلات الضخمة التي طرأت على المدينة، منذ بداية القرن التاسع عشر حتى عصر إسماعيل، وخريطة جران بك هي التي اعتمدها «هرتس باشا» مدير لجنة حفظ الآثار العربية، وهو يضع خريطة الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة عام 1914م.

وإذا كانت القاهرة الإسلامية تزدهر بآثار وروائع خلفائها وسلطينها.. فإن القاهرة الحديثة سجل لتاريخ إسماعيل باشا ومرآة لعصره.

حكاية «الأوبيره» الخديوية ..

أجمل دار أوبرا في العالم !

«الأوبيره الخديوية».. هكذا كانت تكتب في بطاقات الدعوة وفي إعلانات عروضها بصحف ذلك العصر الجميل .. كانت هذه الدار الشهيرة كالقصر المسحور، الذي لا تدب فيه الحياة إلا مع انتشار الظلام، فتزهو وتتألق بالأضواء، وهي تستقبل عليّة القوم والسعداء ممن ابتسم لهم الحظ لقضاء أمسية لا تنسى بين مباحج الفن الراقي .

لم يرض إسماعيل باشا على دار الأوبرا بكل ما يحيطها بالروعة، ويضفي عليها جمال الفن وجلاله لتكون إحدى فقرات الاحتفاء بضيوف افتتاح قناة السويس، فأسند الخديو الإشراف على أعمال البناء إلى المهندس الإيطالي «بييترو أفوسكاني» الذي شيد قصر رأس التين لمحمد علي باشا، وكان أحد مستشاريه المقربين، كما كان صديقاً لمعظم حكام أوروبا وفناني عصره، كذلك أشرف على تنفيذ ديكورات قصور العباسية، الحلمية، الجزيرة، وشبرا، ومسرح سعيد باشا بقصر القباري، ومسرح زيزينيا بالإسكندرية .. وتصميم البناء الرئيسي كان للمهندس الإيطالي «فاسكيوتوي» والمبنى الخفي من تصميم المهندس «جيوفاني سالومون» واكتمل البناء في أربعة شهور !..

وكانت الفرمانات الخديوية قد صدرت إلى أفوسكاني في منتصف إبريل عام 1869م ليتولى أعمال بناء الأوبرا كمسرح مؤقت يتم إنجازه خلال بضعة شهور وفي نفس الوقت لا ينقصها الفخامة اللائقة بعظمة الملوك .. وذخرت تلك الفترة بفيض من المراسلات التي تبادلها أفوسكاني من القاهرة إلى «بول درانيت» بك في باريس الذي تولى تدبير كافة احتياجات الدار الملكية حتى في أدق التفاصيل .. بينما كان إسماعيل باشا يتابع أعمال التشييد بنفسه حتى أنه زار الموقع أربع مرات خلال الأسبوعين الأولين !

وبالنسبة لأعمال الأثاث فقد اتفق درانيت بك مع محلات «كريجر» الشهيرة في باريس، والمرايا الذهبية الضخمة تولى تنفيذها الفنان الإيطالي «جوزيبي بارفيس» وتصميم الستائر كانت من إبداع الإيطالي «هانيبال جاتي». وأشار المهندس «أفوسكاني» في مراسلاته إلى أن أساسات المبنى استنفدت 3500 متر مكعب من مواد البناء .. وروعي أسفل خشبة المسرح تصميم ممرات للفنانين، وغرف لإعداد الأطعمة والمشروبات، كل أدواتها وارد باريس .

افتتحت دار الأوبرا، في أول نوفمبر سنة 1869م، بأوبرا «ريجوليتو» وكان بالمقصورة الملكية الخديو إسماعيل والإمبراطورة أوجيني وفرانسوا جوزيف ولى عهد بروسيا، واحتشدت المقاصير وصالة الدار بكبار الشخصيات في عالم السياسة والأدب والفن في أوروبا ومن بين فواصل الستائر الفخمة المطرزة باللونين القرمزي والذهبي كنت تلمح أجمل العيون، وتيجان مرصعة بالجواهر، وصدور رائعة تزيد الدر واللؤلؤ تألقاً! .. وكانت الدار تسع لـ 850 مشاهداً، وأعدت بها أكثر من استراحة، وقاعة خاصة للتدخين، حيث حرم التدخين أثناء مشاهدة العرض، صيانة لعداسة الفن .

كانت سعة القاعة 306 مقاعد، وستين مقصورة موزعة على ثلاثة طوابق، بكل مقصورة خمس مقاعد على الأقل، وقد خصصت المقصورات الثلاث الأولى بالطابق الثاني، على اليمين، لحريم

السراي، وكانت تتصدر واجهة هذا الطابق: قاعة المآدب الرسمية الفاخرة، بجوارها قاعة الموسيقيين، ثم القاعة الفخمة التي كانت شرفتها تطل على الميدان، وعرفت بـ«قاعة إسماعيل» وهي على شكل مسرح صغير بمقصورتين تمتدان على الجانبين، مرتفعتين بمستوى يكفل حجب الحریم فیهما عن الرؤية، أثناء الحفلات ذات الطابع الخاص، سقفها يزدان برسومات زيتية، تتوسطها أربع لوحات لمغنيات أوبرا شهيرات: باتي، فريتشي، جريمالدي، بيكولوميني.. المقصورات الثلاث التي كانت مخصصة للحریم، كان يصعد إليها بدرج خاص ملحق بالحديقة، وقد غشيت بالنفوش المذهبة، وستائر حريرية غاية في الفخامة، وقد وضع أمامها حاجز معدني مشغول بأشكال نباتية جميلة، مطلي باللون الأبيض، متناثرة عليه باقات من الزهور الذهبية.. وغرفة مدير الدار في الطابق الثاني من الجهة القبليّة، كما خصصت مقصورة لرجال الإطفاء (ألغيت فيما بعد!) يصعد إليها بدرج خشبي.. وصدن القاعة بمقاعده الثلاثمائة وستة المكسوة بأفخم أنواع الحرير القرمزي، ربما فاق أفخم مسارح القرن التاسع عشر، أطلق عليه أفوسكاني «Le paradis» أي الفردوس أو الجنة!

وأسفل قاعة إسماعيل كان هناك بهو رائع تميز بالفخامة وبعشرة أعمدة وأبوابه الخمسة المصنوعة بالحديد المشغول والزخارف، ويؤدي هذا البهو إلى قاعة المشاهدة، وإلى يساره مقصف فاخر، بينما يمتد إلى يمينه الصالون الكبير. انظر اللوحة (24).

ومبنى الملحق كان يتكون من ثلاثة طوابق، الأول خصص لتغيير الملابس، والطابق الثاني لتخزين المناظر، بأسلوب روعي فيه الترتيب والتصنيف، بشكل يسهل معه استخراج المنظر المطلوب ثم إعادته إلى مكانه، وكان يغلق ببوابة ضخمة حديدية، كأنها لأحد حصون أو قلاع أوروبا في القرون الوسطى، وقد قبع في هذا المخزن ولمدة نصف قرن تقريباً، نموذج لسفينة شراعية استخدمت في أوبرا «الإفريقية» للفنان «مايربير» توحى بمشهدها وما أحاط به من لوحات ومناظر: كأننا وسط ميناء يموج بالسفن ذات الشراع، بينما طويت لوحات الخلفية كاملة ورصت بعضها فوق بعض، وقد ظل مشهد هذه السفينة راسخاً في أذهان العاملين بالدار.. أما الطابق الثالث، فقد قسم إلى عدة غرف، لحفظ الملابس والأثاثات، فكان وحده متحفاً يحوي ثروة فنية هائلة، بما ضمه من وثائق كالخطابات والعقود الموقعة بين فيردي والخديو، وإسكتشات رسمها مارييت لملابس أوبرا عابدة، ودروع وسيوف وحلي بلغ من روعتها ودقة صنعها حدّاً يضاهي صحيح الجواهر، وملابس وأثاثات فخمة تتناسب العصور التاريخية المختلفة، وكان يتولى صنعها فريق من أمهر الحرفيين في ورشة خاصة بنفس الطابق، الذي ضم أيضاً مرسمًا للمصورين، وورشة لحياكة ملابس الروايات الجديدة، وترميم الملابس القديمة.

قبيل افتتاح قناة السويس بخمسة شهور، كتب «مارييت» إلى شقيقه إدوارد: «تخيل أنني كتبت أوبرا.. أوبرا ضخمة سيقوم – فيردي – بوضع موسيقاها، خصص لها الخديو مليون فرنك!».. لقد قام مدير الآثار المصرية بكتابة القصة والسيناريو، وصمم إسكتشات الملابس والديكور ولكن لم يتم عرض أوبرا «عابدة» في الافتتاح الذي تم في الأول من نوفمبر عام 1869م، وشهد ضيوف إسماعيل باشا أوبرا أخرى هي «ريجوليتو» من ألحان الموسيقار فيردي، وكان لافتاً للنظر اختيار

مارييت لاسم «عايدة» وهو اسم له رنين عربي «في أحداث تدور على ضفاف النيل في زمن سطوة ومجد الفراعنة»! امتد موسم الافتتاح إلى 14 مارس سنة 1870م، وشمل 70 حفلة!.. وهو عدد من الحفلات لم يكن متاحًا في موسم واحد وفي دار واحدة، إلا للنادر من المسارح العالمية، وقد شملت العروض إبداعات فنية خالدة، منها: «تروفاتوري» «حلاق أشبيليه» «فاوست» «هيلين الجميلة» التي كانت موضع إعجاب الخديو .. «أكسير الحب» «سميراميس» «غادة الكاميليا» «عروس الأربعاء السمينية»!

وجه إسماعيل العظيم بتكليف عالم المصريات الفرنسي الشهير «أوجست فرانسوا مارييت» بكتابة أوبرا ذات موضوع مصري تخليدًا لافتتاح قناة السويس، كان مارييت عملاقًا مهيبًا يشاهد دائمًا بالطربوش الأحمر - كعادة معظم الأجانب في مصر آنذاك - والنظارة السوداء، وكان مكلفًا من الحكومة الفرنسية بالإشراف على أعمال التنقيب عن الآثار في مصر وكشف غموض النصوص المصرية القديمة، كان مارييت شغوفًا بمصر وحضارتها وآثارها، وأسهم في اكتشاف «السرابيوم» بمنطقة سقارة، وقد كافأه الخديو إسماعيل بمنحه لقب «بك» كما أشرف على تشييد المتحف المصري القديم «متحف بولاق» ومنحه لقب «باشا»، كما رأس بعثة الشرف المرافقة لضيوف مصر وعلى رأسهم «أوجيني» إلى الأقصر وأسوان، كما كان كاتبًا وشاعرًا ورسامًا! .. واستعان في كتابة رواية عايدة بكتابه «عروس النيل» وأبدع تصميم الملابس التاريخية وبعض المشاهد، وقد أهدى ابنه «الفريد» بعض وثائق هذا العمل إلى المكتبة الوطنية بباريس، وتعرض حاليًا بمتحف دار الأوبرا الفرنسية، ولقد كانت أوبرا القاهرة من أجمل دور الأوبرا في العالم، وسرعان ما فاقت شهرتها أعرق دور الأوبرا في أوروبا: «لاسكالا» بميلانو، ودار أوبرا بروكسل، كذلك لم تشهد أيامنا من الفرق العالمية، ومن مشاهير الضيوف والزوار، مثلما شهدت تلك الدار التي شيدها إسماعيل!

في 24 ديسمبر سنة 1871م، عرضت أخيرًا .. وبعد سلسلة من المفاوضات والعقبات «أوبرا عايدة» بحضور إسماعيل باشا وكبار ضيوفه من نخبة المجتمع وأقطاب الجاليات الأجنبية في القاهرة ومراسلو أشهر الصحف الأوروبية الذين وصفوا الدار بـ «أجمل دار أوبرا في العالم»، وكانت سعادة جناب الخديو تفوق كل وصف، بالنجاح المذهل الذي حققته «عايدة» مما جعل «درانيت» أول مدير للدار يبرق عقب الفصل الثاني إلى «فيردي» بالبرقية التالية: «المايسترو فيردي - جنوه لقد لاقت أوبرا عايدة نجاحًا يفوق الخيال، وقد قوبلت الخاتمة الموسيقية الأولى والثانية وأداء ثنائي السوبرانو والقطعة الموسيقية الكبرى والمشهد العام بحماس رائع، ولقد حيا الجمهور - المايسترو الغائب - بعاصفة من التصفيق والإعجاب .. كل تهنئتي».

لعبت «انطونينا بوزوني» رائعة الجمال دور عايدة وتقاظت مبلغ 100 ألف فرنك، واسند دور «امنريس» للفنان «اليونور جروسي» الذي ارتدى تاجًا من الذهب الخالص المطعم بالأحجار الكريمة! .. ولعب دور «امونا سترو» الفنان «فرانيسكو سلتر» ولعب دور الكاهن الأكبر «راداميس» الفنان «ماديني» الذي ارتدى درعًا من الفضة الخالصة، وقاد الإوركسترا العظيم

«مارياني» .. حضر «فيردي» العرض وما إن شاهده الحضور حتى صفقوا له بحرارة لمدة ربع الساعة متواصلة !

ويجدر بالذكر، أن درانيت كان صيدليًا في بلاط محمد علي باشا، ومديرًا للسكك الحديدية في عهد سعيد.. ثم مديرًا للمسرح الكوميدي والمسرح الخاص بقصر النيل، وكان قد بعث إلى فيردي برسالة من الخديو، نصها: «إن باختيارك أيها المايسترو العظيم، أن تكون مبدعًا موسيقيًا لأوبرا تدور وقائعها في دولتي، أكون قد حققت أمنيته في أن أخلق إنتاجًا وطنيًا، ربما يصبح واحدًا من أمجد الذكريات لعصري ..! وتحققت نبوءة إسماعيل ..!

و أول مدير مصري لدار الأوبرا كان «منصور غانم» لمدة عام 1937 1938م تولى هذا المنصب من خلال السلم الوظيفي وليس «السلم الموسيقي»! ثم خلفه أشهرهم الفنان «سليمان بك نجيب» سليل الباشوات الذي مزج الفن بالواقع في بساطة وتلقائية، لمدة 16 عامًا، حتى سنة 1954م، ثم الشاعر «عبدالرحمن صدقي» الذي قال: «إذ كانت القاهرة هي عاصمة مصر، فدار الأوبرا هي عاصمة القاهرة!» وفي سنة 1956م، تولى إدارتها المهندس محمود النحاس، ثم الفنان التشكيلي «صلاح طاهر» وأعقبه الفنان «صالح عبدون» الذي كان أول مدير أوركسترا سيمفوني حكومي. آخر عرض بالدار كان «كارمينا بودانا» لكارل أورق، وقاد الأوركسترا الفنان «بيلارد نيللي» وذلك قبل أربعة أيام من إتمامها العام الثاني بعد المائة .. وقبل شهرين من انقضاء مائة عام على مولد «عايدة».. وكانت النهاية الحزينة المرعبة !!

وأذكر في اليوم التالي، أنني رأيت «مواطنًا مصريًا» بسيطًا واقفًا على رصيف «الكونتنتال» يبكي بكل جوارحه وهو يرنو إلى الأطلال المحترقة ويقيني أنه مثل الملايين من عامة الناس، لم يدخل الأوبرا الملكية في حياته، لكنه عبر عن حزنه على أحد شواهد العظمة لعصر مضى.. كما عبر أيضًا عن مدى ألفة الأشياء والأماكن في حياة المصريين!

«الانتيكخانة» الخديوية!

تبدأ قصة الحفاظ على كتوز تراثنا الأثري، بأمر من محمد علي باشا، بمنع خروج آثار مصر من البلاد، وتجميع ما يكتشف منها بمنزل الدفتردار بحي الأزبكية.. غير أن هذا، لم يمنع استمرار النهب والتهرب، حتى أتخمت متاحف أوروبا!

وفى عهد عباس الأول، كانت السلطات الحاكمة تهدي من هذه المجموعات إلى الضيوف من الأمراء وكبار الشخصيات..! وما تبقى نقل إلى القلعة، وفي عام 855، زار مصر الأرشيدوق النمساوي «ماكسمليان» وأبدى إعجابه الشديد بالمجموعة المتبقية، وكان عباس غير مقدر قيمة تلك الكنوز أو غيرها.. فوهبها كلها إلى الأرشيدوق!

ويأتى إلى مصر، عالم المصريات الفرنسي الشهير «أوجست مارييت» وكان أمينًا مساعدًا بقسم الآثار المصرية بمتحف اللوفر، موفدا من الحكومة الفرنسية للبحث والتقيب عن الآثار

والمخطوطات النادرة، وتركزت أعماله بمنطقة سفارة، وكانت أبرز اكتشافاته «السرابيوم».. ويسعى من مسيو «دي ليسييس» أصدر الخديو سعيد أمرا بتعيين مارييت بك، في يونيو سنة 1858م «مأمورا لأعمال العاديات» بمصر.. ومجموعة الآثار التي حفظت بمخازن بولاق، كانت النواة الأولى كما عرف بـ «متحف بولاق» سنة 1959م.

وقاد مارييت فريق العمل، في سلسلة من الحفائر العلمية المنظمة، شملت كانيس، الجزيرة أبيدوس، أدفو، أندرة، الكرنك، الدير البحري، جزيرة ميلة.

وفي الثاني من ذي القعدة سنة 1279هـ (يونيو 1863م) أصدر الخديو إسماعيل عدة أوامر «كريمة» إلى سعادة الباشا مفتش أقاليم الوجه القبلي، نوجزها فيما يلي:

«حيث إن من مقتضى إرادتي إبقاء استمرار أشغال الآثار الموجودة تحت نظارة مارييت بك - كما كانت قبلا، فبناء عليه يجب أن تبادروا بإجابة كافة طلبات إيليري الموماً إليه، من عمال وفؤوس ومقاطف وكافة اللوازم مع الاهتمام باعتدال أجره العمال»!.

«حيث إن الآثار القديمة الموجودة بإقليم مصر، هي أعظم مدار لبقاء ودوام سيرة المملكة في التاريخ العام، وأن حفظ هذه الآثار وبقائها في عهدنا من أجل رغائبي، فبناء عليه يجب أن تبادروا بإصدار التنبيهات الأكيدة لمنع كسر وإتلاف هذه الآثار ونقل أحجارها ووضعها في عمارات الميرى أو في أبنية منازل الأهالي منعا شديدا، وأن تبلغوا كافة المديرين بخصوص ترتيب وإعطاء خفراء بالأجرة إذا حصل طلب من طرف مصلحة دار العاديات»!.

«في كثير من الأوقات، يعثر بعض أهالي القرى بطريق المصادفة على قطع أثرية (أنتيكات) وحيث اقتضت إرادتي ضرورة قيامهم بتبليغ مصلحة دار العاديات (الأنتيكخانة) عند ظهور شيء من هذا القبيل»!

«حيث إن أهالي بلاد الأقصر والكرنك والقورنة، ميالون للتحرى والعتور على الآثار القديمة ولاستخدام حجارة الآثار في بناء منازلهم وسائر الأبنية، فبناء عليه يجب منعهم فيما بعد.. وحيث أعطى في عهد أسلافنا لهذا وذاك رخص شاملة للتقيب عن الآثار، فيجب أن يكلفوا بالانتظار، وأن تؤخذ صورة الأمر الشامل على الرخصة حرفيا وترسل إلى طرفنا لنبدى رأينا في هذا الباب»!.

«قد لزم التنبيه، بخصوص تدارك وإعطاء كل الطلبات الواردة في إشعارات مارييت بك مأمور دار العاديات (الأنتيكخانة) مثل الجمال والخيل والمراكب والأخشاب والنسيج والمسامير وسائر الأشياء اللازمة لحفظ ونقل الآثار القديمة»!

المتحف القديم، على ضفاف النيل مباشرة، بضاحية بولاق، كان عبارة عن عدة مخازن، تتقدمها حديقة كبيرة محاطة بالأشجار، وإلى يمين المبنى، بعض الأكشاك التي استخدمت كمكاتب إدارية، وقد تحولت هذه المخازن إلى قاعات فرعونية، يتسلل إليها الضوء من خلال نوافذ بأعلى الجدران،

بطريقة تزيد المشهد جاذبية وإثارة، ورواق صغير يؤدي إلى القاعة الكبيرة، حيث أهم المعروضات، وإلى اليسار قاعة الدولة القديمة، ويمينا قاعة الهكسوس، التي كانت تضم تابوتا للملك خوفو عنخ، ومجموعة جميلة من تماثيل الخدم أثناء عملهم، وبعض تماثيل لأبي الهول اكتشفت في تأنيس، وقطع أثرية تنسب إلى الملوك الرعاة، من الأسرة الخامسة، والأسرة السادسة عشرة.

وضمت القاعة الكبيرة، تماثلاً لخفرع، أجمل التماثيل الملكية، الذي اكتشف بمعبد أبو الهول، وشيخ البلد، أشهر تماثيل فرعونى، والذي اكتشف بسقارة، وتماثيل لايزيس وأوزوريس وحتحور، ومجموعات مجوهرات وحلي لبعض الملكات، والمتحف بشكل عام، كانت تتهدده مياه الفيضان كل عام.

وكان من الضروري إجراء الترميمات اللازمة للحفاظ على سلامة المبنى، وفي 15 شعبان سنة 1281هـ يصدر إسماعيل باشا «أمر عالي» إلى ناظر المالية، منطوقة:

«قد علم لدينا من الإفادة المتقدمة إلى ديوان المعاونة من - لبنان بك - بتاريخ 13 رجب، نمرة 23، الميينة على ما ورد له من مدير الآثار التاريخية، بخصوص عمارة الدور الفوقاني بالأنتيكخانة، التي اقتضت إرادتنا أجزاها، وأمرنا بأن يجري ما يلزم لطلب واحد مهندس، لينظر قيمة المقتضى صرفه إلى المقاول، وتعيين من لزم من المهندسين أولاد العرب والفرنساوية».

وقبل الانتهاء من عملية تجديد المتحف، يصدر إسماعيل باشا أمراً إلى ديوان المالية: «قد عرض لدينا - الأنهى - الوارد من مدير الآثار التاريخية، رقم 9، بناء على أمرنا الشفاهي السابق إليه عن تنظيم - الأنتيقة خانة - تكون جاهزة للتفرج عليها، وأن تعمل المصاريف اللازمة وتتقدم قايمتها، وأوضح بأنه أجرى العمل، ومن أول شهر نوفمبر صار فتحها، وكثير من المتفرجين يحضرون للتفرج عليها، ولكون المصاريف التي صرفت على ذلك تبلغ خمسة وخمسين ألف فرنكا وأربعين فرنكا وخمسة وخمسين سنتيم، يرام صدور الأمر بصرفه وبترجمة القوايم التي وردت بمعرفة زكى بك، ورد له إفادة من الخواجة جابي أمين الأنتيقة خانة».

ويفتح متحف بولاق - بعد التجديد وقبل الموعد المحدد، بحضور الخديو إسماعيل في 18 أكتوبر سنة 1863م.. ويواصل مارييت باشا جهوده، حتى وفاته عام 1881م، ويظل المتحف في موقعه هذا حتى عام 1891م، عندما بدأ التفكير جدياً في تشييد متحف أكثر اتساعاً وحدائثاً ونقلت المجموعات الأثرية إلى سراي إسماعيل بالجيزة، حيث ظلت هناك لأكثر من عشر سنوات، وأطلق على السراي «متحف الجيزة».

وفى 1 إبريل سنة 1897م، وضع الخديو عباس حلمي الثاني «بيده الكريمة» حجر الأساس للمتحف الجديد (الحالي بميدان التحرير)، وبدأ التنفيذ تحت إشراف المهندس المعماري الفرنسي «كارسيل دورنو».. على مساحة 13.600 متر مربع، ونقلت إليه رفات مارييت لتدفن تحت نصب تذكاري، وافتتح عام 1902م، ويتضمن طابقاً تحت الأرض، يستخدم كمخازن لحفظ الآثار، ثم الطابق الأرضي، وهو مخصص للمعروضات الثقيلة: تماثيل، توابيت، مسلات، لوحات منقوشة.. مرتبة

طبقاً لتسلسل الأسر المصرية القديمة، وأهم معروضات الطابق العلوي بقسميه الشمالي والشرقي: كنوز الملك توت عنخ أمون وتضم أروع مجموعة من الحلي والجواهر، والعرش المصنوع من الخشب المذهب، والقناع الذهبي، وصناديق جميلة، وأسلحة وأدوات لعب ومرآح.. انظر لوحة (25).

ويضم المتحف معامل، وقسمًا للتصوير، وقسمًا للترميم والصيانة، كتاب، بدأ تكوينها منذ عام 1886م، والمتحف بصفة عامة، يضم أكثر من 100 ألف قطعة، تشكل أعظم وأندر مجموعة عالمية من روائع الفن المصري القديم!

الجمعية الجغرافية الخديوية

هي إحدى الصفحات الذهبية في تاريخ مصر وعصر الخديو إسماعيل باشا.. وهي أقدم مؤسسة علمية في مصر والشرق بعد «المجمع العلمي المصري» الذي أنشئ عام 1798م إبان الحملة الفرنسية على مصر .

ومن خلال إحدى رحلات البحث في الدوريات «العتيقة» عثرت على خبر تأسيس «الشركة الجغرافية المصرية»!.. وذلك في صحيفة «الوقائع المصرية» في عددها رقم 610 الصادر في يوم الأحد 9 جمادى الأولى 1292هـ الموافق 13 يونيو 1875م على النحو التالي: «في الساعة التاسعة الإفريقية صباحًا من يوم الأربعاء الثاني من يونيو أجريت رسوم افتتاح – شركة – جغرافية خديوية تحت رئاسة الدكتور شواينفورت الرحالة الشهير بتشريف حضرة دولتو حسين كامل باشا (السلطان فيما بعد) وحضور كل من إسماعيل صديق باشا وحضرات بارو بك والجنرال استون وأفلاطون باشا وقناصل أوستريا والمانيا و(أمريكا) المتحدة وبلجيكا الجنرالية ومارييت بك وبروجس بك (عالما الآثار المصرية الشهيران) والكولونيل لونج...» وتلا حضرة بارو بك منطوق الإرادة السنوية أعقبه «كاتب سر» الشركة بتلاوة نظامها الأساسي!.. ثم قرأ بحثًا مطولاً عن أهمية استكشاف كل شبر في الأرض وحاجة الإنسانية إلى علم الجغرافيا وأهمية إفريقيا بالنسبة لمصر والإرادة «السنوية» المشار إليها أو «الأمر العالي» الخاص بتأسيس «شركة جغرافية خديوية» صدر في 19 مارس عام 1875م .. وقد أكون أول من توصل إلى «المسمى الأصلي» للجمعية الجغرافية المصرية!

ومما جاء في هذه الإرادة السنوية: «.. ونظرًا لما يعود على مصر من نفع جزيل وفوائد جلييلة من العلوم الجغرافية والمصالح الصناعية والتجارية بارتياح الأمصار وأقطار إفريقيا وما يجاورها من بلدان، أمرنا بما هو آت: أن تؤسس بالقاهرة شركة صرحنا بأن تحمل اسم الشركة الجغرافية الخديوية، وأن يصدق على قانون إنشائها، وأن يصرف مبلغ أربعمئة جنيه مصري إعانة سنوية، وأن يعين (السايج) الرحالة الشهير شواينفورت رئيسًا للشركة ..!»!

وتم تخصيص المبنى – التاريخي – الحالي في 109 شارع قصر العيني بالقرب من ميدان الإسماعيلية (التحرير) ورصد لها «أحمد خيرى باشا» 60 فدانًا من أوقافه للإنفاق عليها من ريعها،

وهو صاحب القصر الشهير الذي أصبح مقرًا للجامعة الأمريكية بالقاهرة! انظر لوحة (26)

ومن أشهر رؤساء الجمعية:

- د. أوجست شواينفورت 1879 – 1875م

- جنرال ستون باشا 1882 – 1879م

- إسماعيل ايوب باشا 1883 – 1882م

- الأمير (الخدوي) عباس حلمي 1889 – 1883م

- الأمير (الملك) فؤاد في 30 أكتوبر 1915م

- إسماعيل صدقي باشا (رئيس الوزراء الأشهر) في 15 ابريل 1918م

مقتنيات المكتبة:

تعد مكتبة الجمعية الجغرافية نموذجًا لثراء المعرفة في جميع مجالاتها ولا تقتصر فقط على علم الجغرافيا وتضم أكثر من خمسين ألف مجلد بالإضافة إلى 12500 من الخرائط نادرة إلى جانب مكتبة الدوريات التي تضم 500 دورية علمية تصدرها الجمعيات الملكية العلمية والجامعات ومراكز البحوث العالمية، وقد أهداها إسماعيل باشا 1500 مجلد، وتضم ذخائر علمية للأمير عمر طوسون والأمير يوسف كمال وأحمد حسنين باشا (رئيس الديوان الملكي في عهد الملك فاروق والرحالة والمستكشف العظيم)، ومن أهم مقتنياتها أيضًا: مكتبة العالم محمود باشا الفلكي، ومكتبة الأمير محمد علي توفيق (ولي العهد) ومكتبة الأمير حيدر فاضل .. كما أهداها عدد من أمراء البيت المالكة مقتنياتهم من كتب نادرة قاموا بشرائها خلال جولاتهم في أوروبا .. بالإضافة إلى الآلاف من المخطوطات النادرة .

كما تضم نسخة من الطبعة الأولى لموسوعة «وصف مصر» – عام 1808م ومجموعة نادرة من أقدم الخرائط منها: خريطة الشريف الإدريسي، وخرائط علماء الحملة الفرنسية والأطلس الجغرافي لمصر للأمير يوسف كامل .. وخرائط الحملة وأطلس الأمير يوجد نسخة منها محفوظة في مكان بمكتبة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية IFAO حيث كنت أعمل في زمن الشباب! .. وغير مسموح للاطلاع عليها سوى للأساتذة المتخصصين والعلماء فقط !

عصر اكتشاف منابع النيل:

وكانت الجمعية تصدر مجلة سنوية ضخمة بالفرنسية حتى نهاية عصر الملكية، احتوت على أبحاث وتقارير علمية غاية في الأهمية لعلماء مصريين وأجانب، وكانت لها إصدارات قيمة بالفرنسية

والعربية – خاصة في عهد الملك فؤاد – أبرزها موسوعة ضخمة عن «النيل» وروافده وبحيراته ومنابعه.. وعن فتح محمد علي باشا للسودان عام 1828م .. وعن علاقات مصر التاريخية بإفريقيا.. وتوثيق جهود اكتشاف بلاد السودان والمناطق المجهولة في إفريقيا، وحركة الاستكشافات العظيمة لمنابع نهر النيل في عهد إسماعيل العظيم!

كذلك تضم المكتبة وثائق وتقارير أهم مؤتمر دولي عقد بمقر الجمعية عام 1932م كانت أبرز نتائجه: أدق الخرائط الجغرافية والإدارية السياسية لمصر وأواسط إفريقيا والمشرق العربي.

عصر اكتشاف منابع النيل

خلال الاحتفالات الأسطورية بافتتاح قناة السويس نوفمبر 1869م عرض الخديو إسماعيل باشا على الرحالة البريطاني الشهير «صامويل بيكر» والذي كان مقرباً من الأسرة المالكة البريطانية، قراره بإيفاد حملة عسكرية بقيادته لضم أعالي النيل لمصر .. أبحرت الحملة بعد إتمام تجهيزاته العسكرية والعلمية في 8 فبراير عام 1870م حتى وصلت إلى «جوندوكرو» التي رفع عليها العلم المصري، وكذلك المديرية التي تم فتحها فيما بعد، وطوال تقدم الحملة عانت كثيراً من الغارات الليلية للقبائل إلى أن وصلت إلى «فاتيكو» والتي وصفها آلان مورهد بأنها «الرمز الرائع للعهد الفيكتوري في قلب إفريقيا»!.. عاد بيكر إلى لندن، وبحث الخديو عن أوروبي آخر يتولى حملته إلى مديرية خط الاستواء والمناطق المحيطة بمنابع النيل، فوقع اختياره على الكولونيل «شارلز جوردون».. وبالتجاوز عن تفاصيل كثيرة، واصلت حملة جوردون زحفها حتى تحقق له فتح «لوجندا» أوغندا كما تعرف اليوم، حتى اقترب من بحيرة «فيكتوريا» ومنبع النيل ثم اتجه جنوباً ليكتشف الجزء غير المعروف من النهر والمؤدي إلى بحيرة «البرت».. وشارك في هذه الحملة الإيطاليان «رومولو جيسي» و«كارلو بيداجيا»..

ومن فوق الباخرة «الخديو» كانت خريطة نهر النيل ترسم بدقة لأول مرة لمسافة 60 ميلاً من منبعه .. وتوالت الحملات الاستكشافية التي أرسلها إسماعيل باشا، منها حملة العالم شواينفورت والذي وصف بأنه «أحد مستكشفي أعالي النيل» وهو صاحب كتاب «قلب إفريقيا» الصادر عام 1873م وقد تركزت جهوده في اكتشاف طرق المواصلات القديمة ومناجم المعادن والمحاجر ..

في عام 1874م وبتكليف من إسماعيل باشا اكتشف الأمير لاي الأمريكي «شالي لونج» الضابط النشط بالجيش المصري «بحيرة إبراهيم» ومعظم المجرى المسمى بنيل فيكتوريا وتحقق أنه يصب في بحيرة البرت .. ثم حملة الكابتن «هـ. مكيلوب» عام 1875م وعقب فتح دارفور أرسل الخديو ثلاث بعثات لاكتشاف بلاد دارفور وكردفان برئاسة المهندس الأمريكي «ميتشل» ورسمت خرائط دقيقة لهذه البلاد ولوجندا وتاجورا .. وخلال حملات الحبشة رسمت خريطة لبحيرة «أوسا» نفذها «محمد أفندي عزت»، كما رسم كل من محمد مختار باشا وعبدالله فوزي باشا خريطة بلاد هرر «بالحبشة».. وفي عام 1877م توغل الأمير لاي «ماسون بك» في أعالي النيل واستكمل ما بدأه ص. بيكر وبدأت أوروبا تنتبه لحملات وجهود الخديو إسماعيل لاكتشاف منابع النيل التي اعتبرها

«حدود مصر الجنوبية»!.. وارتداد أعالي النيل ومحاولات اكتشاف منابعه حافل بالتفاصيل، وصراعات الدول الكبرى والجمعيات الجغرافية الأوروبية حول منطقة الكنوز البكر الجديد التي نبه إليها إسماعيل العظيم!.. عالم لمع في سمائه وعلى أرض إفريقيا أسماء مستكشفون عظام: ليفنجستون وشارلز بيرتون وسبليك وستانلي ..

المتحف الفريد!

ويضم هذا المتحف الفريد أربع قاعات كبرى على النحو التالي:

1- المتحف الأنثروبولوجي للعادات والتقاليد المصرية والحرف والصناعات اليدوية المتوارثة من مئات السنين والتي اختفت في عصرنا هذا، بالإضافة إلى «المحمل المصري» وآخر كسوة مصرية للكعبة المشرفة، نموذج لكوشة عروس وفرح شعبي، ملابس من عصور مختلفة وتمثيل شعبية «بائع العرقسوس» على سبيل المثال.

2- قاعة قناة السويس: يميزها اللوحات التي خلدت الافتتاح الأسطوري لقناة السويس نوفمبر عام 1869م كما تضم «رايوهاما» لمجسم مصور فريد من نوعه يمثل سفينة تتحرك خلال رحلتها في قناة السويس أهداه الملك فؤاد للجمعية عندما كان رئيساً لها .. وتمثال لـ «فرديناد دي لسييس» صاحب فكرة المشروع، ومجسم رائع ليوم الافتتاح حيث دي لسييس يشرح المشروع وتأثيره العالمي للإمبراطورة أوجيني وضيوف مصر من أمراء أوروبا!.. كما تضم القاعة لوحات نادرة من الفن الاستشراقي.

3- قاعة النيل: وتضم مجسمات بيانية لنهر النيل وروافده وبحيراته ومنابعه، ولوحة ضخمة للخدو إسماعيل، وبورتريهات مرسومة لمهندس القناطر الخيرية: لبنان دي بلفون ومحمد مظهر باشا وموجيل بك .. وأشهر مهندسي الري مثل: السير ويلكوكس وإسماعيل باشا محمد وحسين سري باشا .. وتمثال للعالم الكبير محمود باشا الفلكي .. وصور لرؤساء الجمعية منذ تأسيسها .

4- قاعة إفريقيا: تزدان بأهم خريطة تحدد ما وصلت إليه الكشوف الجغرافية من خلال الحملات التي وجه إليها إسماعيل باشا وهو الذي أمر بتنفيذ هذه الخريطة النادرة، كما تضم عدة خرائط لفتح السودان في عهد محمد علي باشا، و«السودان المصري» كما كان يطلق عليه في الدوائر الأوروبية في ذلك العصر!.. وخرائط للمملكة المصرية في عهد إسماعيل وما ضم إليها من بلاد الحبشة والصومال حتى أواسط إفريقيا!

كما تضم القاعة: نماذج محنطة لحيوانات نهر النيل مثل التماسيح وفرس النهر .. وبعض من حيوانات الغابة، ونماذج من مصنوعات جلدية يدوية، ومجموعات من أسلحة القبائل الإفريقية: رماح ونبال وسيوف وخناجر متنوعة ..

وتستوقفني – حقيقة مريرة – هي أن الأجيال المعاصرة لا تعرف شيئاً عن هذه «المفخرة العلمية» ولا عن معالم أخرى من بقايا العز القديم!!

أعجب شارع في العالم ..!

على رأسه جامع وفي وسطه متحف ومكتبة وتحت أقدامه مسرح!

بعض الزمان يتعلق بأحجار المبانى ويلتصق بها كالتراب .. وقلب القاهرة هو دائماً قلب مصر: حضارياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً سواء كان في ساحة الأزهر قديماً أو في ميدان التحرير حديثاً، وإذا كان القلب القديم عتيق الطراز شرقاً، ففي الغرب كان القلب الجديد – في عصر إسماعيل باشا – يتنامى ويزدهر مبشراً بعصر جديد وفكر جديد .

كان تحديث القاهرة بالنسبة لإسماعيل رمزاً لارتقاء مصر حضارياً وتجسيداً لرغبته العارمة في أن يشهد الغرب – عاصمة أوروبية في القاهرة – تحكم دولة عصرية تمتد من الإسكندرية إلى الخرطوم !

أشار علي باشا مبارك – مهندس السياسة الحضارية للخديو – إلى أن شارع محمد علي «من أعظم ما عمل بمدينة مصر القاهرة، إذ بوجوده حصل نفع كبير وفوائد جمة للعامة.. وبعد أن كانت جميع الجهات التي مر بها قليلة القيمة، مشحونة بالقاذورات، أصبحت بمروره منها عالية القيمة مرغوبة السكن .. وقد بني في ضفتيه البيوت المشيدة الكبيرة والصغيرة والحوانيت العديدة المتسعة».

وأضاف علي باشا مبارك أن شارع محمد علي – البالغ طوله نحو الميادين – قد تطلب هدم نحو 400 دار كبيرة و300 دار صغيرة، فضلاً عن المطاحن والمخابز والحمامات والحوانيت وبعض المساجد !! وتم تعويض الأهالي عن الأملاك التي أزيلت..

في عام 1872م افتتح شارع محمد علي (القلعة) الذي فاق في اتساعه شارع «السكة الجديدة – الأزهر» وتميز عنه بوجود أرصفة متسعة على جانبيه، تظللها الأشجار والبواكي (على طراز منطقة Champ de mars بباريس) كما أضيء بطول امتداده بمصابيح الغاز، وكان سرور الخديو به عظيماً حتى أنه أمر بتنظيفه ثلاث مرات يومياً للحفاظ على رونقه وبهائه!!.. ولننظر إلى حالة شوارع القاهرة اليوم والتي وُصفت في كتابات رحالة ذلك العصر بأنها «أنظف من شوارع باريس»!!

ليس مثل القاهرة عاصمة في العالم .. لأن فيها شارعاً واحداً هو شارع محمد علي: على رأسه جامع وفي وسطه متحف ومكتبة وتحت أقدامه مسرح .. أربع منشآت كبرى لها تاريخ ومعنى .. الجامع والمتحف والمكتبة والمسرح، بطول امتداد الشارع من ميدان القلعة (الرميلة- صلاح الدين) إلى ميدان العتبة الخضراء (الزرقاء سابقاً) !

واحد من عجائب الدنيا ..!

كتب عالم الآثار الإسلامية الجليل د.حسن عبدالوهاب: «إن حق لمصر الفرعونية أن تفخر بأهرامها، فإن لمصر الإسلامية أن تتيه عجباً بمدرسة السلطان حسن التي لا يعادلها بناء آخر في الشرق بأجمعه، فقد جمعت فيها كل الفنون الإسلامية» .

وشموخ البناء يدل على العظمة والمقدرة الفنية الهائلة، وقد أجاد مهندس «محمد بن بيليك الحسني» وضع تصميمه، وفي تناسب أجزاءه واختيار زخارفه الرائعة وكتاباته الكوفية تمثل في مجموعها ثروة فنية، قال عنه المؤرخ العلامة المقرئزي «لا يعرف في بلاد الإسلام ما يحاكي هذا الجامع» وكتب عنه «جومار» أحد أبرز علماء الحملة الفرنسية: «إنه من أجمل مباني القاهرة والإسلام ويستحق أن يتبوأ عن جدارة المرتبة الأولى في العمارة العربية».. وقال عنه المؤرخ ابن تغري بردي «هذا الجامع من عجائب الدنيا» !

وهو بالفعل واحد من مفاخر العمارة الإسلامية، كان في موقعه قبل إنشائه قصران: أحدهما للأمير يلبيغا اليحياوي والآخر للأمير طنبيغا المارداني، أمر السلطان حسن بن السلطان الناصر محمد بن المنصور قلاوون بهدمهما، وبدأ التنفيذ سنة 757هـ / 1356م ليكون مسجدًا ومدرسة للمذاهب الأربعة، ألحق بها مساكن للطلبة، وكان الافتتاح سنة 760هـ / 1359م قبل الفراغ من البناء، واغتيل السلطان حسن سنة 1362م ولم يدفن تحت قبته!.. وأكمل البناء الطواشي «بشير الجمدار» .. ويحيط بالصحن المفروش بالرخام الملون أربعة أروقة للمذاهب الأربعة، تتوسطه فسقية فوقها قبة، ويحيط بالصحن أربعة إيوانات متعامدة أكبرها الأيوان الشرقي يحيط به إفريز من الجص مزخرف بآيات من سورة الفتح بالخط الكوفي، و«دكة المبلغ» من الرخام الفاخر، والمحراب من الرخام المزخرف بالأوئمة المذهبة، يجاوره منبر من الألباستر، وعلى جانبه بابان يؤديان إلى القبة، الجنوبي منها مغشى بالنحاس المطعم بالذهب، ويتدلى من أسقف الإيوانات مشكاوات زجاجية منقوشة بالمينا، يحتفظ متحف الفن الإسلامي بمجموعة رائعة منها .

وقد قرر السلطان لكل مذهب شيخًا ومائة طالب، ومدرسًا لتفسير القرآن ومعه ثلاثون طالبًا، ومدرسًا للحديث الشريف ومعه أيضًا ثلاثون طالبًا، كما عين عالمًا مفتيًا بالإيوان القبلي، وشيخ عالم بالقراءات السبع ومقرئًا، ومكتبة عُين لها أمينًا، ومكتبتين لتعليم الأيتام وحفظ القرآن وقرر لهم الكسوة والطعام، أيضًا عين طبيبين أحدهما باطني والآخر للعيون، وثالث للجراحة وقد أرصد السلطان في وقفه مرتبات الشيوخ والطلبة والموظفين والسدنة وقيمة ما يصرف لهم من الطعام كل ليلة جمعة وما يصرف لهم من الكساوي في الأعياد .

وقد أحصى العالم البريطاني كريسويل - عاشق الآثار الإسلامية - ما كتبه الرحالة والمؤرخين الأجانب عن درة العمارة الإسلامية ...

الكتبخانة الخديوية :

اكتملت لعللي باشا مبارك نظرتة للإصلاح والنهوض بمصر، وقد اجتمعت له نظارات المعارف والأشغال والأوقاف .. فقام بإنشاء «الكتبخانة الخديوية» في الطابق الأول من سراي الأمير مصطفى فاضل باشا بصدر الإرادة السنية في 23 مارس 1870م، وقد جمع بها نفائس المخطوطات العربية والإسلامية، مما حبسه السلاطين والأمراء والعلماء على المساجد والأضرحة ومعاهد العلم، كما أهداها الخديو إسماعيل 3458 من نوادر المخطوطات عقب شرائه المكتبة الخاصة لشقيقه الأمير مصطفى فاضل عقب وفاته بمبلغ 13 ألف ليرة عثمانية، كما ضم إليها مقتنيات المكتبة الأهلية التي أسسها محمد علي باشا بجوار بيت المال خلف جامع الحسين، كما ضم إليها مكتبتي وزارتي الأشغال والمعارف العمومية، ومجموعة «الجمعية المصرية» التي أنشأها بعض الأجانب الذين اهتموا بخدمة العلم في مصر ثم نسخ من الكتب المطبوعة في «مطبعة بولاق» ..

حتى عام 1896م كان المكان قد ضاق بما يحتويه من مقتنيات، فرجع ديرنارد موريتز المدير الألماني للكتبخانة تقريراً إلى وزير المعارف بضرورة الإسراع في بناء جديد يستوعب الكتب ومجموعات المخطوطات والبرديات وما سيضاف إليها، وتم تشييد المبنى الحالي على الطراز المملوكي وجاء البناء شامخاً في عمارته كالجوامع الكبيرة في إطلالتها على الميادين وبلونها المميز الطوبي والأصفر .. وافتتحه الخديو عباس حلمي الثاني في 28 ديسمبر عام 1903م ليكون مقرّاً للكتبخانة ودار الآثار العربية (متحف الفن الإسلامي) .

وقد أحدثت الكتبخانة «دار الكتب المصرية» منذ افتتاحها مناحاً ثقافياً وفكرياً هائلاً، وكانت إحدى ركائز المشروع الوطني الثقافي الكبير، توافد عليها جمهور الباحثين عن المعرفة، وما من عالم ولا أديب ولا مفكر، مصرياً أو عربياً أو مستشرقاً إلا وله في هذه الدار العريقة ذكريات رائعة، وقد تميزت بسلاستها المرتفعة بشكل ملحوظ وكأنها تمهد للقارئ الصعود والارتقاء إلى آفاق ثقافية رحبة وثرية !

متحف الفن الإسلامي :

يرجع التفكير في إنشاء متحف للآثار الإسلامية إلى المهندس «سالزمان» الذي اقترح هذه الفكرة على الخديو إسماعيل عام 1869م فأصدر أمراً إلى «فرانز باشا» رئيس قلم هندسة الأوقاف بتخصيص دار حكومية لجمع التحف من المساجد والبيوت الأثرية، وتم تجميع القطع الأثرية بالإيوان الشرقي من جامع الحاكم بأمر الله .

في 18 ديسمبر عام 1881م صدر «أمر عال» بإنشاء «لجنة حفظ الآثار العربية» تحت إشراف وزير الأوقاف محمد زكي باشا وعضوية: مصطفى باشا فهمي الذي تولى عدة وزارات، ثم رئاسة الوزارة عام 1896م ومحمود سامي باشا ومحمود بك الفلكي وإسماعيل بك الفلكي مدير المهندسخانة وفرانز باشا وروجرز بك وتيجران بك ويعقوب أفندي صبري وعلي أفندي فهمي .. وكان لهذه اللجنة فضل العناية بآثار العصر الإسلامي، في إبريل 1892م تولى رئاسة اللجنة

«هرتس بك» كبير مهندسي اللجنة وكان أبرز أعماله: إعداد دليل لمحتويات الدار عام 1895م، كما أعد تقريراً عن ضرورة تشييد دار جديدة للآثار الإسلامية .

وضع الخديو عباس حلمي الثاني الأساس للمبنى الحالي بميدان باب الخلق عام 1899م واكمل البناء عام 1902م على مساحة 1058 مترًا، وبدأ نقل المقتنيات إليه، وكان الافتتاح الرسمي في 28 ديسمبر عام 1903م، وخصص الطابق الأرضي لدار الآثار العربية حتى استقل المتحف بالمبنى الحالي عام 1974م.

تجدر الإشارة إلى أن المتحف قد حصل على كثير من مقتنياته بطريق الإهداء، قدمها بعض أمراء الأسرة المالكة من هواة الفن الإسلامي، كما أهدى الملك فؤاد ثم الملك فاروق مجموعات ثمينة من المنسوجات والنقود والموازين، ومجموعة الأمير محمد علي توفيق، ومجموعة د.علي إبراهيم باشا التي تضم أندر مجموعات السجاد الشرقي .. كما يضم المتحف أندر مجموعة في العالم من المشكاوات التي كان يهبها سلاطين المماليك للجوامع، ومجموعة التحف الخشبية المتميزة بزخارفها وتنوعها في الطرازين الفاطمي والمملوكي، ومجموعة «رالف هراري» المعدنية، إلى جانب المجموعات الخزفية والمنسوجات المصرية والإيرانية والتركية، وأروع مجموعات التصوير الإسلامي المهداة من شريف صبري باشا، أيضًا من أبرز المقتنيات مجموعات المصاحف النادرة من عصور إسلامية متعاقبة لا يضارعا إلا مجموعة دار الكتب .. ومن أروع مقتنيات المتحف مجموعة «شبابيك القلل بزخارفها ونقوشها التي تشهد بالمستوى الفني الرفيع الذي بلغته الحضارة الإسلامية في مصر» .

تياترو الأزبكية أو المسرح القومي :

في 1867م أمر إسماعيل باشا – في إطار تحديث القاهرة – بردم بركة الأزبكية وإقامة حديقة عامة في موقعها على مساحة 18 فدان والحديث عنها يطول، وعلى مقربة من حديقة الأزبكية شيد المسرح الكوميدي الفرنسي في 4 يناير 1868م ودار الأوبرا الخديوية في 1 نوفمبر 1869م لاستقبال الوفود المشاركة في الاحتفالات الأسطورية التي واكبت افتتاح قناة السويس، وشهد عروض الفرق العالمية الزائرة لإمتاع الأرستقراطية المصرية والأجانب بروائع المسرح والموسيقى.

ثم شيد «تياترو حديقة الأزبكية» القديم 1870 – 1919م على بعد خطوات من دار الأوبرا، والتياترو كان أيضًا مقصدًا للفرق الأجنبية إلى جانب الفرق المسرحية المصرية والشامية .. ثم شيد «مسرح حديقة الأزبكية» في نفس موقع التياترو القديم عام 1920م، وأسند التصميم والتنفيذ للمهندس الإيطالي «فيروتشي» مهندس المعية السنية .. وقد جاء تصميم الصالة والألواح مماثلًا لطرز الأوبرا الخديوية، وإلى «طلعت حرب باشا» يعود الفضل في إضفاء طابع الأرابيسك على عمارة المسرح، كما روعي في زخرفة المبنى وتجميله لمسات من الفن الإسلامي .. يحيط بالصالة عشرين بنوارًا على شكل حدوة الحصان في الطابق الأرضي، ويضم الطابق الأعلى 22 لوجًا بنفس

توزيع البناوير تفتح أبوابها على ممر دائري، وفي الجزء الخلفي منه غرفتان، الأولى مخصصة للمكتبة في ركن منها نصوص وتراث «المسرح القومي» الاسم الجديد عقب ثورة 1952م والغرفة الثانية مخصصة لإداريي المسرح.. وفيما مضى كانت الغرفة الأولى هي استراحة طلعت حرب عندما كان يحلو له أن يقضي بها ساعات المساء بين أصدقائه من الفنانين بعيداً عن «حسابات وأرقام» بنك مصر!

شارع الصحافة كمان!!

تلازمت في شارع محمد علي مهنتان متلازمتان: «المطابع ومحلات الزنكوغراف» و«الصحافة» وكانت بعض الصحف تتخذ من هذه المطابع مقرّاً لها، وبعضها استمر لبضع سنوات أو أقل، والصحف التي كانت تصدر من شارع محمد علي:

- 1- الصادق: 94 ش محمد علي، 1886 – 1888م
- 2- الفلاح: بالقرب من الكتبخانة الخديوية، 1895 – 1896م
- 3- المؤيد: سراى الكخيا 106 ش محمد علي ثم من دار المؤيد 104 ش محمد علي 1894 – 1908م
- 4- المؤيد الأسبوعي: 104 ش محمد علي، 1907 – 1910م
- 5- منفيس: بجوار الكتبخانة الخديوية، 1895 – 1897م
- 6- البريد: مطبعة المنار، 1898 – 1900م
- 7- الأفكار: 7 ش محمد علي، 1905 – 1913م ثم في 5 حارة عبدالقادر بشارع محمد علي
- 8- الصحافة: شارع الخليج المرخم بجوار الكتبخانة، 1905 – 1909م
- 9- المنبر: شارع الخليج المرخم، 1908 – 1915م، ثم عمارة المؤيد حتى أكتوبر 1919م
- 10- النظام: شارع محمد علي بالقرب من سوق الخضار، 1909م
- 11- القطر المصري: حارة العنبة بشارع محمد علي، 1909م
- 12- الحقائق: حارة الأمير حسين بشارع محمد علي، 1920 – 1941م
- 13- عاصمة الشرق: 160 ش محمد علي، 1923 – 1927م

- 14- الأمة: 12 درب العنبة بشارع محمد علي، 1929 – 1931م
- 15- لسان العرب: 12 درب العنبة، 1930 – 1934م
- 16- الشيخ: 4 درب الدقاق، 1930 – 1960م
- 17- المخزن: دار المؤيد بشارع محمد علي، 1931 – 1934م
- 18- فرعون: عمارة الأوقاف بميدان باب الخلق، 1932م
- 19- الجامعة الإسلامية: حارة الأمير حسين بشارع محمد علي، 1932 – 1955م
- 20- مصر الفتاة: 160 ش محمد علي 1948، ثم في 132 ش محمد علي 1949 – 1953م
- 21- مجلة الصاعقة: عمارة الأوقاف، 1935- 1941م
- 22- مجلة المسامير: ش الخليج المرخم، 1911- 1929م
- 23- مجلة الشباب: دار المؤيد، 1919 – 1920م
- 24- مجلة النيل: دار المؤيد، 1921 – 1935م
- 25- مجلة السيف: دار المؤيد 1921م ثم 11 درب الطواشي 1922م وحتى 1930م بحارة العنبة
- 26- مجلة الرقيب المصري: درب العنبة، 1925 – 1929م
- 27- مجلة مسامرات الخليل: 105 ش محمد علي، 1926 – 1929م
- 28- مجلة الحسان: دار المؤيد، 1926 – 1927م
- 29- مجلة الفنون: دار المؤيد، 1926 – 1928م
- 30- مجلة الهادي: 73 ش محمد علي، 1929م
- 31- مجلة التلغراف: 107 ش محمد علي، 1942 – 1945م
- 32- مجلة الصداقة: 2 ش الكتبخانة، 1943م
- 33- مجلة الغرائب: دار المؤيد، 1946 – 1948م

قهوة العنبة ودرب العوالم !

وتجدر الإشارة إلى «حارة المدابغ القديمة» بالقرب من ميدان باب الخلق (أحمد ماهر حاليًا) وهي من بقايا القرن التاسع عشر، قبل نقلها إلى ميدان الأزهار ثم إلى منطقة سور مجرى العيون، وكان شارع محمد علي أحد الشوارع الرئيسية التي امتدت بها خطوط الترام عام 1896م، ومازالت بقايا من محلات «الزئكوغراف» من عهد الصحافة والطباعة، كما كانت تنتشر على جانبيه محال بيع الأثاث القديمة وكثير من المقاهي أشهرها قهوة «المضحكخانة» بالقرب من دار الكتب، وكان من أشهر روادها: منصور فهمي باشا ولطفي السيد وتوفيق الحكيم وحافظ إبراهيم وأحمد رامي ممن أداروها أو عملوا بها .. و«قهوة العنبة» التي اشتهرت بمباريات مصارعة الديوك الهندية بين حماس المتفرجين وسخونة المراهقات .. كما اشتهرت مقهى لاستئجار «الندابات» .. ولازالت بقية من «فن» تباع العود والناي والطبلة والرق «سادة التخت الشرقي» .. ومازال قائمًا «درب العوالم» بدون عوالم!.. وقد كان لبعضهن شهرة وتاريخ!

شارع عماد الدين - برودواي مصر !

أما شارع عماد الدين – شارع الفن فقد كانت شهرته تضارع شهرة شارع «برودواي» في نيويورك، وحي «البيجال» في باريس، فقد شهد هذا الشارع نهضة وتألق المسرح المصري.

كان شارع عماد الدين عند تخطيط حي الإسماعيلية «وسط البلد» أرضًا زراعية شاسعة تزدان بالحدائق وبساتين الفاكهة يملكها «جلال باشا» صاحب الشارع الشهير (زكريا أحمد حاليًا)، وكان هذا الشارع شاهدًا على العصر الذهبي لأشهر الفرق المسرحية المصرية، وقدمت على مسارحه عروض لفرق أوروبية.

وتجدر الإشارة إلى أن أول عرض سينمائي كان في «حمام شنييدر» بالقرب من شبيرد أوتيل في 28 يناير عام 1895 باسم «الفوتوغراف المتحرك» وخلال سنوات العشرينيات من القرن الماضي تأسست أول دار للسينما في مصر والشرق عامة في موقع دار السينما «أوديون» زمان إلى أن مضت السنوات وتهدمت وشيدت مكانها عمارة وبالتحديد في شارع «حمامات العوم» المتفرع من عماد الدين!

وتألق في سماء شارع عماد الدين عدد من المسارح، كان أشهرها: مسرح وكازينو دي باري، وكانت تملكه الفرنسية مدام مارسيل (أقيمت في موقعه دار سينما ريتس) ومسرح رمسيس (في موقع مسرح الريحاني) ومسرح الإيجيبسيانا، والماچستيك، والكورسال، والرئيسانس، ومسرح وكازينو الأولدرادو، ومسرح عباس (كان من قبل سينما الكوزموجراف الأمريكي)، ثم مسرح برنتانيا (كانت الأرض رملية والسقف مغطى بقماش الخيام والكراسي من القش اشتراه الخواجة ديمو كانجوس ثم امتلكه الحاج حنفي وهدمه وشيد مسرح برنتانيا الجديد)، بالإضافة إلى مسارح:

متروبول، بيجال، لوكس، محمد فريد، سمير اميس، ومسرح أوبرا ملك ... كما كان شارع الألفي بك يتألق بعدد من المسارح والملاهي أشهرها: مسرح المنوعات، الأريزونا، شهر زاد.

واشتهرت صالات عماد الدين: الست بديعة (بدعدع .. ملكة الليل) وألف ليلة وليلة ونزهة النفوس وصالة رتيبة وإنصاف رشدي (وكان لها إعلان دائم بمجلة الكواكب في الثلاثينيات من القرن الماضي) وصالات ببا عز الدين وسعاد محسن ونعيمة المصرية وفؤاده حلمي..

كما اشتهرت مقاهي عماد الدين وعلى رأسها: راديوم، رچينا، بايرون، البوديجا وقهوة الفن التي كان من روادها: توفيق الحكيم ود. حسين فوزي وأحمد رامي وإبراهيم ناجي ومحمد التابعي وفكري أباطة وعزيز عيد وفاطمة رشدي وعزيزه أمير وغيرهم من نجوم الفن والصحافة. أيضاً تجدر الإشارة إلى أن أشهر الفرق المسرحية قدمت عروضاً تضمنت تعريضاً بالاحتلال البريطاني من خلال الدراما والفودفيل والروايات الغنائية التاريخية .. وعندما أدمجت فرقة جورج أبيض وفرقة الشيخ سلامة حجازي (فرقة أبيض - حجازي) قدمت مسرحية «صلاح الدين ومملكة أورشليم» !! .. فهل يمكن أن تعرض هذه المسرحية أو مثلها في عصرنا الحاضر؟!

شبرد أوتيل .. عاصمة القاهرة !

«شبرد» .. هو واحد من المعالم التي اكتسبت مع الزمن: طابعاً أسطورياً، وما بين الأروقة والحدائق والشرفات وغرف النوم، ندخل في الحلم مباشرة.. يوم كان السحر يقود الخطى والطريق في مدن الغموض وبهجة الألوان وصخب الزحام وعبق التوابل..!

أول مقر لفندق شبرد، كان في قصر «محمد بك الألفي» الذي اتخذه الجنرال كليبر مقرّاً لقيادة الحملة الفرنسية، ثم تحول إلى «مدرسة الألسن» وأغلقت في عهد عباس الأول!.. وموقعه كان على حافة بركة الأزبكية، عند تقاطع شارعي الألفي والجمهورية حالياً.

أسس هذا الفندق الشهير عام 1841م مستر «صامويل شبرد» تحت اسم «فندق بريطانيا» وشارك في إدارته مستر «هيل» الذي كان يدير بعض الاستراحات على الطريق الصحراوي وفندقاً بمدينة السويس .. مستر شبرد، البريطاني الجنسية، كان ابناً لفلاح، هرب من حياته البائسة إلى البحر وفي جيبه «شلمن» إنجليزي!.. لم يكن يدرك شيئاً عن الفنادق، سوى تواضع إمكانياتها في ذلك العصر، لكنه كان ينتمي إلى ذلك الطراز من العباقر، ومع تطور التجارة وحركة السفر النشطة بين أوروبا والشرق، بلغت شهرته الآفاق، وخلال عام 1845م ظهرت لافتة «فندق شبرد»!

كانت إعلانات الفندق، تفخر بأنه المكان المفضل للعائلات الملكية والإمبراطورية والأرستقراطية، وتشير إلى وجود «دهبيات» للإيجار وإقامة أسواق خيرية ومسابقات رياضية وحفلات تنكرية راقصة، وأصبح الفندق، محور ارتكاز للحياة القاهرية، والزوار ينحون جانباً «لدليل المسافر» حين يدفون إليه، فيجدون به كل تفاعلات الحياة، ومن يكن محظوظاً ينزل بحجرة تطل على الحدائق الرائعة المشمسة، ومجموعات البجع الجميلة التي تمرح بين أشجار النخيل السامقة، وكان وقوف

بعض النبلاء والأمراء وقريناتهم بالشرفة الشهيرة ذات المظلة، يجسد كل خيالات ورؤى مجتمع «رينوار» في قمة الحياة الباريسية!.. ومن المعالم الشهيرة للفندق «شجرة كليبر» التي لقي تحتها الجنرال كليبر مصرعه على يد «سليمان الحلبي»!

في بداية عصر الخديو إسماعيل باشا 1863م زارت مصر الأدبية الفرنسية الكونتيس «جوليت دي روبرسا» التي دونت مشاهداتها في كتابها «الشرق مصر – يوميات رحلة» كتبت بحس فنانة اعتبرت خبرتها وملاحظاتها موضوعاً يدفعها للإبداع فجمعت انطباعاتها في رؤية خاصة بها انبهرت بالقاهرة وخصوصيتها وصخب الزحام وتنوع الأجناس والثقافات والأزياء بينما يتضوع في الأجواء روائح البخور والعطور .. وحرصت على تدوين انطباعاتها عن «شبرد أوتيل» فكتبت: «ذلك الفندق الذي يفاخر في إعلاناته بأنه المكان المفضل للعائلات الملكية والإمبراطورية والأرستقراطية .. ويعلن عن وجود – دهيبات – ورحلات في النيل حتى جزيرة فيله، ولقاءات تعارف وسباقات العدو ومباريات التنس، وإقامة أسواق خيرية وحفلات تنكرية راقصة، شبرد أوتيل هو محور الحياة في القاهرة، وزواره عندما يجتازون مدخله الرئيسي، ينحون جانباً كتب «الدليل السياحي» فهنا كل تقاعلات الحياة القاهرية، وتتألق في ممراته رؤى الحياة الباريسية: نبلاء، تجار مرسليليا، أثرياء لندن ...».

وأبدت إعجابها بطعام العشاء في مطعم شبرد: «توليفة غريبة .. مطبخ فرنسي ذو مسحة إنجليزية، معظم النزلاء إنجليز، الخدم ذوو البشرة الداكنة تعلق رؤوسهم عمامات بيضاء، وتميزهم الصديريات المطرزة ذات اللون الأرجواني .. وترى النزلاء يتحلقون حول الموائد ربما طبقاً لنوع المهنة أو العمل الذي يجمع بعضهم، فهذا ركن الخبراء بشئون السياسة الدولية، وركن للمصورين، وآخر للعلماء، وذاك ركن الكتّاب والمراسلين الصحفيين، كل ذلك بدون تخطيط، وقد ينتقل بعض النزلاء والزوار من ركن إلى ركن، ويتناولون القهوة التركية أو الأوروبية، وتتصاعد أذخنة السيجار الفاخر، بينما أطباء ألمان يتحدثون في الفن والجمال مع فنانيين فرنسيين، ورجال أعمال وجنرالات يتحدثون إلى صحفيين .. والمشهد من سطح شبرد أوتيل مفعم بالحركة والحياة، خاصة في ذروة الموسم السياحي، النزلاء والزوار جالسين في استرخاء يستمتعون بالقهوة والتدخين سواء في شرفات الفندق أو بامتداد حدائقه تحت ظلال الأشجار والنخيل حيث تنهذى أسراب البجع! .. وحيث ينتثر الجمال الأوروبي وتتألق الأزياء .. وتنزوي سيدة إنجليزية رائعة الجمال ترتدي فستاناً أبيض مشغول الصدر، وتزدان بقبعة بيضاء وأسدت على وجهها الجميل خمار أبيض خفيف، وقد اندمجت بالتأكيد في رواية عاطفية، تقرأ باستغراق تام، بينما تتابعها بشغف عيون وقلوب المعجبين !

وفي عام 1891م، هدم المبنى القديم للفندق، وشيد مبنى آخر يشرف على حدائق الأزبكية وشارع كامل، ولأكثر من نصف القرن، كان الفندق قلباً للمجتمع الأوروبي المترف في القاهرة، وضم أكثر من ثمانين غرفة نوم بحمام مستقل، وقاعة للقراءة وأخرى للموسيقى، وقاعة للرسم ثم قاعة ضخمة للطعام، تتسع لخمسمائة مدعو، ذات طابع ينتمي لطرز عصر النهضة، وكان مستر «فيليب زي» أول مدير للفندق الجديد .. في يناير 1901م، نشرت مجلة التايمز تحقيقاً، جاء فيه:

«إن المشهد من أعلى فندق شبرد، مفعم بالحركة والحياة، ففي ذروة الموسم السياحي، ترى جموع زوار الفندق وهم جالسون في استرخاء، يستمتعون بتناول القهوة التركية، في الشرفات وتحت ظلال النخيل، وتتنوع الأزياء في مشهد فريد للسياح الأوروبيين والأمريكان، والقادمين من اليابان والهند واستراليا وجنوب إفريقيا.. وجوه باسماء تدل على الثراء والتحضر»!

وأقام به السياسي البريطاني الأشهر سير «ونستون تشرشل» إبان مؤتمر القاهرة عام 1921م، وخلال الحرب العالمية الثانية، أصبح شبرد مركزاً للشئون السياسية، ومكاناً مفضلاً للقاعات الجواسيس والجنرالات، وفي عام 1942م، وبينما «روميل» يتقدم الفيلق الإفريقي شرقاً إلى الإسكندرية، انتشرت الشائعات بأنه قرر أن يتخذ من فندق شبرد الشهير: مقراً للقيادة الألمانية!.. وقيل إنه سيكتفي بحجز جناح له!.. وفي رواية ساخرة، أن أحد ضباط الحلفاء سأل موظف الاستقبال عما إذا كان السيد «روميل» قد وصل وأقام بالفندق؟!.. فما كان من الموظف المندهبش إلا أن راجع كشف الحجز بالفندق، ثم أجابه بهدوء: لا يا سيدي لم يصل بعد.. قد يكون في الطريق!..

والكتاب الذهبي للفندق، كان فكرة مديره في العشرينيات والثلاثينيات «فريدي الورت» الذي خصص لنفسه أيضاً كتاباً ذهبياً آخر، فكان كبار الشخصيات يوقعون في الكتابين معاً، وكانت أشهر التوقيعات لأمير ويلز، فيصل ملك العراق، الأغاخان، الملك البرت، فرديناد ملك بلغاريا، اليزابيث ملكة بلجيكا، ماري ملكة رومانيا، أريك أمير الدانمارك، دومرج ولي عهد السويد، والملك الفونسو الذي شغل توقيعه صفحة كاملة بخط عريض جميل، برنارد شو، ملك ومملكة إيطاليا، ليوبولد ملك بلجيكا، الملك امبرتو، دوق لوكسمبورج، بيتر ملك يوغوسلافيا، بارادو ملك سيام، أسقف لندن، الإمبراطور هيلاسلاسي.. وحشد من الأمراء والأميرات والجنرالات وأدباء وفنانين، وكان كثير من نزلاء الفندق، يستعدون إلى قصر عابدين، للتوقيع في سجل الزوار.

وعندما قرر الملك فؤاد، زيارة الملك فرديناد، في شبرد، استقبل من باب جانبي، عقب وقوف سيارته الليموزين، على حافة بساط أحمر فاخر، فرش خصيصاً لصاحب الجلالة، الوحيد من بين الأسرة الملكية، الذي رفض التوقيع في الكتاب الذهبي، معترفاً بأنه «لا يوقع إلا في كتاب جديد.. وفي الصفحة الأولى»!!

في يوم «السبت الأسود» 26 يناير 1952م الشهير بـ«حريق القاهرة» احترق الفندق ودمر ضمن ما نال منشآت العاصمة من خراب شامل، وعبرت الكاتبة البريطانية «ايفلين وو» عن مشاعرها قائلة:

«القاهرة، لن تكون القاهرة بدون فندق شبرد.. ولا بد أن ينهض ثانية «كطائر العنقاء في الأسطورة المصرية القديمة، الذي ما إن يحترق، حتى يخلق ثانية في مكان آخر، أكثر بهاء وجمالا»!

لوحة (9)

بركة الفيل في زمن الحملة الفرنسية



لوحة (10)
بركة الأزبكية
عام 1800م



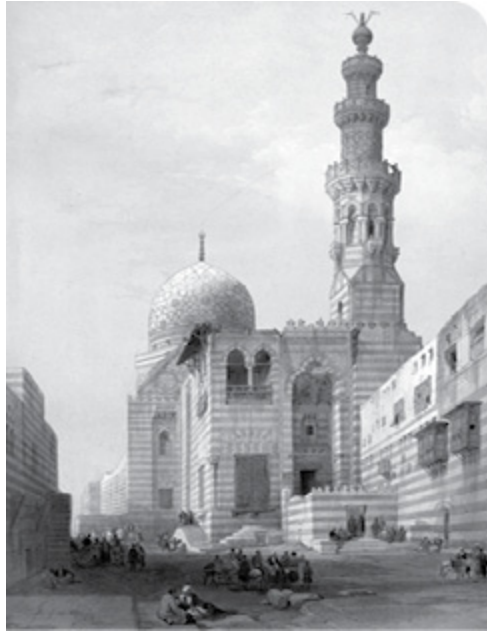
لوحة (11)

بقايا جامع أزيك بالقاهرة
عام 1868م

لوحة (12)

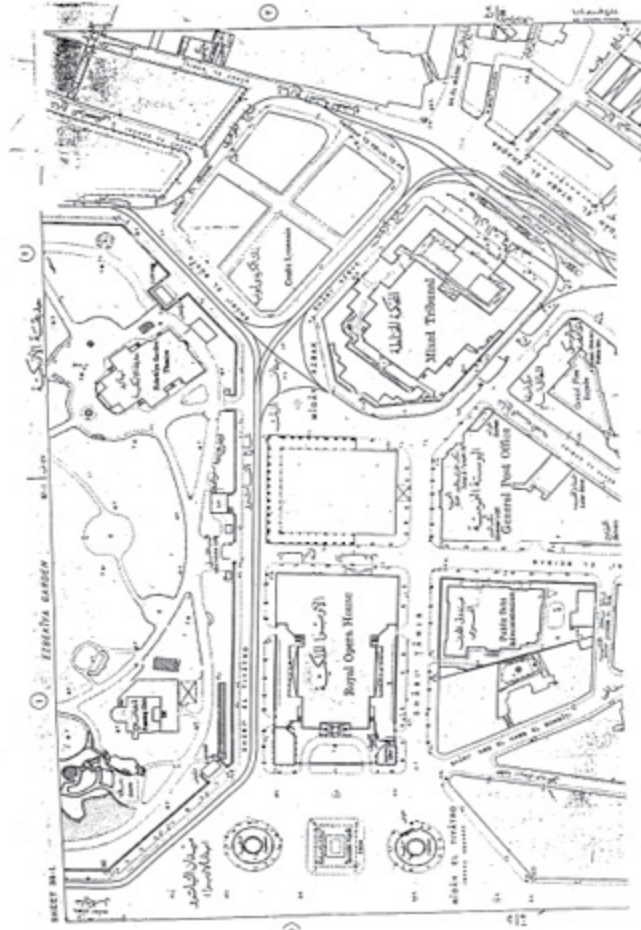
جامع قايتباي

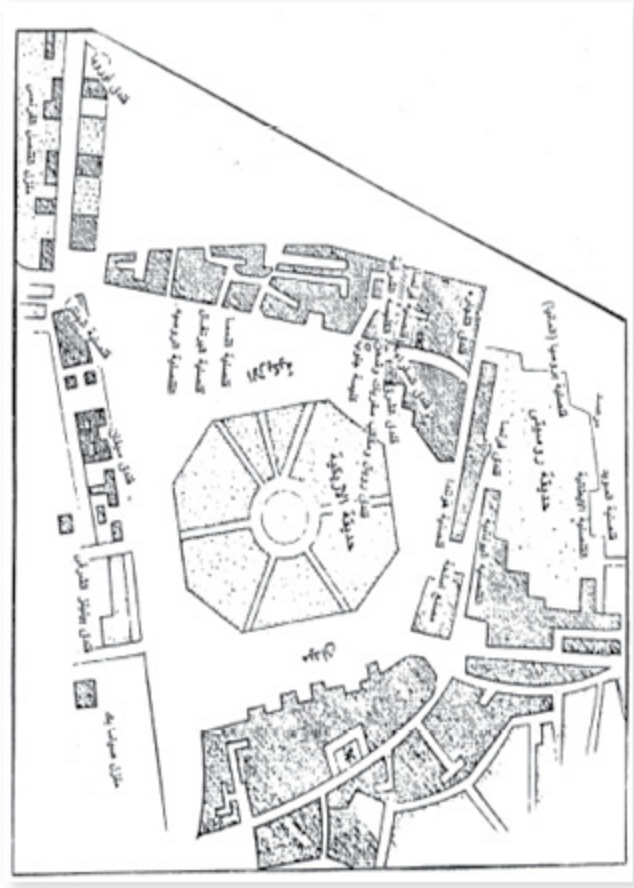
عام 1840م





لوحة (13) جانب من بحيرة الأزبكية وكشك الموسيقى





لوحة (14)

شارع بولاق (فواد الأول) ثم (26 يوليو) في أواخر القرن 19



لوحة (15)

الأميرة جشم أفت هانم الزوجة الثالثة

للخديو إسماعيل



لوحة (16)

شارع عبد الخالق ثروت سنة 1874 «شارع المناخ سابقاً»





لوحة (17)

ميدان سليمان باشا



لوحة (18)

كوبري الخديوي إسماعيل (قصر النيل حاليًا) كما كان يبدو عام 1876م

كوبري الإنجليز «الجملاء» عام 1928.



الكوبري الإنجليزي
أو كوبري بديعة ثم كوبري الجلاء



لوحة (19) الصورة الوحيدة للقصر العالي



لوحة (24) صورة نادرة لشارع شبرا كما كان يبدو عام 1873م



لوحة (21)

المتحف المصري وجزء من تكنات قصر النيل
عام 1914م



لوحة (22)

الخدو توفيق باشا الابن الأكبر للخدو إسماعيل.. ونرى في الصورة قرينته أمينة هانم وأولاده
الأميرة خديجة والأمير عباس حلمي (الخدو فيما بعد) والأمير محمد علي توفيق.



لوحة (23)

الأميرة توحيد هانم

لوحة (24) الأوبرا الخديوية والمبنى الملحق الخلفي الخاص بغرف الممثلين والإكسسوارات
1880م





سراي الجيزة كانت مقرًا للمتحف المصري عقب غرق متحف بولاق و قبل انتقاله الى ميدان التحرير .



لوحة (25)

المتحف المصري 1910م

لوحة (26) واجهة الجمعية الجغرافية المصرية



لوحة (27) الملك فؤاد وسعد زغلول باشا رئيس الوزراء وكبار الشخصيات في زيارة للجمعية
1924م





لوحة (28)

شارع عماد الدين عام 1930م



لوحة (29)

شبرد ملتقى الملوك والأمراء وشبكات التجسس ومشاهير العالم

لوحة (30) المدخل الرئيسي لفندق شبرد



«فارمان»

في عاصمة الخديو!

* استقبال الخديو لفارمان بقصر الجزيرة.

* مشاهد من الحياة الاجتماعية بالقاهرة في عصر إسماعيل.

* صوم رمضان وخروج المحمل.

* أفول نجم أفندينا ورحيله عن مصر.

«ألبرت فارمان»

في عاصمة الخديو

اعتمدت المعرفة الغربية عن الشرق، كتابات الرحالة والأدباء والمغامرين وتقارير العلماء والمستشرقين والفتاوى.

ومن أبرز الكتابات التي استوقفتني كثيراً، ما أبدعه «ألبرت فارمان» قنصل عام الولايات المتحدة الأمريكية في مصر، إبان عهد الخديو إسماعيل وبداية حكم ابنه الخديو توفيق، وقد وصل إلى مصر في 28 إبريل سنة 1876م، ودامت إقامته بها خمس سنوات، وتوطدت خلالها أواصر صداقته بـ «أفندينا» وقد رصد في كتابه المتفرد «مصر وكيف عُدر بها» أدق تفاصيل الحياة السياسية والاجتماعية في «عاصمة الخديو» على حد تعبيره... في ذلك العصر المفعم بالأحداث والتطورات الهائلة، ووصف لنا في براعة وموضوعية استقبال سمو الخديو وزياراته المتعددة له، ومراسم القصور الملكية وتقاليد الأسرة الخديوية، والاحتفالات بالمناسبات الدينية والقومية في إطار التقاليد الموروثة للشعب المصري:

«هياً لي الصباح مشاهدة أول منظر لمدينة القاهرة. وكان الفندق (الكونتنتال) وهو بناء ضخم، من بين الممتلكات الخاصة للخديو في ذلك الوقت، فقد أقيم أصلاً لكي يتسع لإقامة الضيوف الذين حضروا الاحتفال بافتتاح قناة السويس وكان له شرفة ذات أرضية من الرخام حيث يستطيع الضيوف أن يجلسوا، وقد أظلتهم خميلة تحميهم من وهج الشمس، ويشاهدوا المناظر العابرة التي تتطرق بالفتنة الجارفة، كما يستنشقون الهواء الصحي الذي يمتاز به هذا الجو الممتع، حقاً، إن - الزائر الذي يملك وقت فراغ كاف يستطيع أن يقضي الساعات والأيام في هذا المكان، ينعم بمشاهدة مناظر متجددة تتكشف أمام ناظره على الدوام. انظر لوحة (31).

والشوارع مكتظة بالمارة يتجاوب فيها باستمرار وقع أقدام خليط كبير من الناس وهم يسرعون في طريقهم. هنالك توجد الحمير لركوب السائحين أو النساء المحجبات اللاتي يرتدين ملابس سوداء واللاتي ينتمين إلى القشرة الدنيا من الطبقة المتوسطة، ويسرع خلف الحمير المكاريون يستحثونها بصرخاتهم العالية أو يلهبون ظهورها بسياطهم. وتوجد أعداد كبيرة من الجمال محملة بالحبوب، وأخرى أسرع منها تحمل بعض البدو على ظهورها كما توجد عربات يركبها بعض النسوة الجميلات من حريم الخديو تغطي وجوههن غلالات رقيقة ويرافقهن أغواتهن. وهناك عربات أخرى أقل فخامة تحمل بعض النساء الأكثر تحفظاً (هن زوجات وبنات البكوات والباشوات) ويرافقهن كذلك أغواتهن.

أما السقا أو «حامل الماء» فهو يسير حاملاً قريبته مملوئة بالماء يرش بها الشارع، أو يوزع جرعات من الماء على المارة في أكواب مصنوعة من النحاس الأصفر وهو ينادي «يعوض الله» أملاً في أن ينال صدقة يسيرة. انظر لوحة (32).

ويمر القناصل والباشوات في مواكب حافلة يتقدمهم سائسون يرتدون ملابس مزركشة ويسرعون الخطأ، كما يتقدم موكب الخديو حراسه على صهوة جيادهم وسائسوه وهم يصيحون: «أفسحوا الطريق».

وإلى جانب ذلك يوجد بعض الجنود تصاحبهم فرق الموسيقى وترى إلى جانب ذلك الشحاذين القدرين، وتسمع وقع أقدام لا ينقطع من اليهود والأقباط والمسلمين والعرب والأتراك والسوريين والأرمن والعجم والأوروبيين وكل منهم في زيه الذي يتميز به، هذه هي المناظر اليومية لذلك الشريط الذي لا ينتهي من المناظر الخلابة التي تجري في شوارع القاهرة.

وتكتنف شرفة الفندق من كل جانب حدائق مليئة بأشجار ونباتات المناطق الحارة. وعبر الشارع في قلب الحي الأوروبي، تقع حديقة الأزبكية ببحيراتها ونافوراتها وجبلاتها، ومغاراتها، وتحتل عشرين فدائاً أو يزيد. كما تتخللها الطرقات الجميلة، والشجيرات والأشجار العديدة النادرة التي تجلب أغلبها من الهند.

ومن بين هذه الأشجار يوجد عدد كبير من أشجار «البنيان» تتدلى فروعها إلى الأرض وتمتد أغصانها إلى باطن الأرض فتكون أصولاً جديدة، وإنك لتسمع صوت البط في مجاري المياه الصناعية، وترى البجع الأبيض والأسود وهو يتهادى في رشاقة على سطح البحيرات، كما تشاهد قوارب النزهة الصغيرة تشق الماء ويمرح فيها الأطفال.

ويتدفق القاهريون الذين ينتمون إلى الطبقتين الوسطى والدنيا، عصر كل يوم ومسائه، إلى هذه الحديقة لكي يستمتعوا بصوت الموسيقى ويشاهدوا ألعاب الشعوذة. وبهذه الوسيلة يتيحون للأجنبي فرصة عجيبة لكي يشاهد خليطاً من الناس - من كل الأشكال والألوان والأديان والجنسيات - الذين يتكون منهم سكان القاهرة كما يحيط بالحديقة من جميع الجوانب مبان فخمة، من بينها دار الأوبرا.

ولقد تركت نزهة الصباح القصيرة أثرًا طيبًا في نفسي عن مقر إقامتي المؤقت كما منحنتي أملاً، تحقق بعد ذلك بأكمل معانيه، في إقامة سارة في عاصمة الخديو!

استقبال سمو الخديو لفارمان بقصر الجزيرة:

وكان فارمان حريصاً على تدوين ملاحظاته عن «واجب» زيارته للخديو إسماعيل فكتب:

كان أول واجب أقوم به في القاهرة هو زيارة الخديو إسماعيل باشا. ولقد تم ذلك في قصر الجزيرة الواقع على الشاطئ الغربي للنيل في مواجهة المدينة. ولقد أحاط شريف باشا - وزير الخارجية - سموه علمًا بوصولي، وتحدد ميعاد ومكان هذه المقابلة غير الرسمية.

ولقد عبرت النيل على ذلك الجسر الفخم إلى تلك الجزيرة الطويلة البيضاء الشكل حيث اتجهت إلى اليمين مخترقاً شارعاً عريضاً تفصل بينه وبين شاطئ النيل أشجار نخل باسقة. وعلى الجانب الآخر، أي الجانب الأيسر، تقع حدائق النباتات والحيوانات. وتشتمل الأخيرة على مختلف أنواع الحيوانات الواردة من إفريقية وآسيا من بينها قطع صغير من الفيلة يقوم على خدمتها حراسها الهنود، وقد أرسلت هذه الفيلة فيما بعد، بناء على نصيحة الجنرال ستون إلى مناطق أعالي النيل لكي تقوم بمهمة النقل. وفي آخر هذا الطريق المتسع يقع قصر الجزيرة، وهو قصر صغير نسبياً، ولكنه مسكن رائع منيف، بدئ في بنائه أثناء حرب الاستقلال التي اشتعلت في بلادنا بينما كانت مصر منتشية بسبب ثروتها المفاجئة الناشئة عن ارتفاع ثمن القطن. ولقد أنشأ إسماعيل باشا هذا القصر خصيصاً لملذاته لمدة محدودة من كل عام، وكان يتصل به حدائق غناء، كما أقيم به كشك قد زين على الطراز المراكشي. وعلى مسافة قصيرة من القصر أقيم بناء خاص بالحريم. انظر لوحة (30).

ولقد أقام في هذا القصر أيام الاحتفال بفتح قناة السويس سنة 1869م، الإمبراطورة يوجيني أولاً ثم فرنسيس جوزيف إمبراطور النمسا بعد ذلك، كما أقام فيه بعض الشخصيات البارزة أمثال «البرنس أوف ويلز» انظر لوحة (33).

ولقد بيع القصر واستبدل بفندق يشرف على إدارته بعض الضباط الإنجليز، هذه الجزيرة تكون على هذا الحال في وقت فيضان النيل فقط، ذلك أن الفرع الغربي للنيل يجف في الأوقات الأخرى.

دخلت القصر فتقدمني كبير التشرفيات على سلم كبير صنع من الرخام (الكارارا) حيث لقيني الخديو في غرفة استقبال فاخرة. ولقد استقبلني سموه عند الباب استقبلاً حاراً. وبعد التقديم والتحية المعتادة اتخذت مقعدي عند طرف إحدى الأرائك الكبيرة وأخذ الخديو مقعده في الطرف الآخر وقد امتدت قدماه أمامي على الطراز التركي.

وكان حديثنا يدور حول موضوعات عامة ورحب بي الخديو في بلاده وسألني ما إذا كنت مسروراً بزيارتي، كما سأل عن صحة رئيس الولايات المتحدة وحالة البلاد العامة ثم تمنى لي أن أستمتع

بإقامة طيبة في بلاطه، كما أبدى استعداده لعمل كل ما بوسعها لجعل زيارتي مريحة. ولما كان لا يتكلم الإنجليزية فقد كانت محادثتنا باللغة الفرنسية التي كان يتكلمها بطلاقة.

لم يكن إسماعيل باشا جذاباً من الناحية الجسمانية، فقد كان يبلغ من العمر حوالي السابعة والأربعين، قصير القامة، عريض المنكبين، ضخم الجثة، ولون بشرته أكثر سمرة من لون بشرة الأوروبيين: أما جفناه فكانتا مرتختين، وجفنه اليسرى أكثر ارتخاء من اليمنى. وعندما تكون ملامحه ساكنة تبدو عيناه وكأنهما نصف مغلقتين. وكان حاجباه فاحمي اللون، خشنين، كثة الشعر، بارزتين إلى الأمام. أما لحيته البنية الداكنة فكانت قصيرة وكانت أذناه كبيرتين وليست من الحسن بمكان وكان يرتدي حلة إفرنجية سوداء، غير أن معطفه كان من الطراز «الإستامبولي» أي أنه معطف «بصف واحد» ذو ياقة منتصبة، كما كان يرتدي على رأسه الطربوش الأحمر.

ولا يظهر الأثرak عراة الرؤوس قط، إذ إن هذا العمل يعتبر دليلاً على المهانة البالغة. ولقد أخبرني شاب كان أبوه أحد وزراء السلطان، وكان هو نفسه يعمل في إحدى المصالح في القاهرة، أخبرني أنه لم يظهر أمام والده عاري الرأس مطلقاً، حتى ولا في طفولته المبكرة، وأنه لا يجرو على مثل هذا العمل، ذلك أنه لا يستطيع أن يعرض أباه لمهانة بالغة.

ولقد أخبرني رياض باشا، الذي أصبح رئيساً للوزراء فيما بعد، في معرض الحديث عن أول زيارة له لأوروبا، أنه دهش حينما طلب منه موظف الكنائس في ألمانيا، وكان يزورها في ذلك الوقت، أن يخلع طربوشه، ولو تصادف أن دخل مسلم أحد المساجد وهو عاري الرأس لطرده على الفور، ولكن محظوظاً إذا لم يصبه سوء!

ويلبس الطربوش أو العمامة في المسجد، وفي حفلات الاستقبال العامة والخاصة وفي الولائم، والواقع في كل مكان يذهب إليه التركي أو المسلم. أما المرأة التي تبدو في الشارع فينبغي عليها ألا تكون محجبة فحسب بل عليها أن تغطي رأسها كلها. ويعتبر خرقاً صريحاً لأداب اللياقة أن تظهر المرأة الجزء الخلفي من رأسها، تماماً كما لو أظهرت وجهها. فإن أقدمت على شيء من ذلك كانت فضيحة العمر!

وكان للخديو عادة التحدث وإحدى عينيه مغلقة، بينما يمعن النظر بعينه الأخرى في أدق تفاصيل، وحركات، وطريقة الحديث، وحتى أفكار هؤلاء الذين يتحدث معهم.

ورغم كل نقائصه ومساوئه الجسمانية، كان محدثاً ممتعاً، يبتسم في كثير من الأحيان، بشوشاً دائماً، ومثيراً للاهتمام. كان صوته هادئاً يبعث على السرور وألفاظه منتقاة ومعبرة. وكان فائق الذكاء، ولديه معلومات دقيقة حتى عن التفاصيل التي تخص حكومته وشؤونه الخاصة الشاسعة، وتبرهن نظراته الحادة الثاقبة (حينما تكون عيناه مفتوحتين من أثر حديث شائق) وإجاباته السريعة الدقيقة، ومعلوماته الخاصة بموضوعات ليس من المفروض أصلاً أن يكون ملماً بها، تبرهن لكل هؤلاء الذين استمتعوا بالحديث معه، أنه رجل يمتاز بقدرة غير عادية.

وحسب العرف الجاري في البلاد لم يكن في مقدور أي أمريكي أن يتقدم إلى الخديو إلا عن طريق ممثله الدبلوماسي. وقد أتاحت لي الفرصة في أن أقوم بهذا الواجب مراراً أثناء السنوات الخمس التي أقمتها في القاهرة، وكثيراً ما كان يدهش الزائر لما كان يلمسه من ذكاء الخديو النادر. فعندما قدم له قائد إحدى البوارج الأمريكية، أخذ الخديو يوجه إليه سلسلة من الأسئلة التي تخص سفينته، ولم يستطع القائد أن يجيب على بعضها، ثم تطرق إلى وصف سفنه الخاصة وصفاً تفصيلياً.

وقد عبر القبطان وغيره من الضباط الذين كانوا يرفقته عن بالغ دهشتهم بعد أن انصرفوا من حضرة سموه، نظراً لما لمسوه منه من معلومات حربية وكان القول نفسه ينطبق على غير ذلك من الشئون. ولذا كان العسكريون والمدنيون على السواء يدهشون من معلوماته المفضلة. أضف إلى ذلك أنه كان يملك القدرة النادرة على أن يكتسب ثقة زائره بأن يزيح عن كاهله كل حرج ممكن ويجعله على طبيعته تماماً. وقد تأجلت مقابلي الرسمية مدة طويلة نظراً لعدم وصول أوراقى الضرورية من القسطنطينية، ذلك أنه من الوجهة الاسمية يعتبر الخديو من رعايا السلطان، ولذلك قبل أن يتعرف رسمياً بممثل حكومة أجنبية في مصر، لا بد من الحصول على موافقة أو إذن السلطان. ويتم هذا عن طريق الحكومة التي ترسل ممثلاً. ومن ثم تتصل حكومة السلطان بحكومة الخديو لكي تؤكد ما إذا كان المرشح مقبولاً، أي ما إذا كان «شخصاً مرغوباً فيه». كما أن أعمال الدواوين في القسطنطينية غاية في البطء، وربما تكون أبطأ من أعمال أية دواوين لأية حكومة في العالم، أضف إلى ذلك أن مقتل السلطان عبد العزيز الذي حدث عقب وصولي بأسبوعين، قد أدى إلى زيادة تعطيل وصول الوثائق الرسمية المطلوبة، وحال كذلك دون وصول الأوراق عاجلاً، كما أدى إلى زيادة التعطيل موت طوسون باشا، وزير البحرية وزوج الأميرة فاطمة هانم، ابنة الخديو الثانية التي كان يؤثرها على غيرها. وكانت الأوراق التي أرسلها هوراس ميلنارد وزيرنا المفوض لدى «الباب العالي» تتضمن فرماناً موجهاً إلى الخديو وتوجيهاً مرسلاً إليّ يحدد امتيازاتي الرسمية، وقد كتبت هذه الأوراق باللغة التركية بأسلوب منسق وبحروف كبيرة، كما كانت سطورها المتعاقبة مختلفة الألوان، وهي الآن ضمن الهدايا الكثيرة التي تلقيتها في مصر، ولقد قمت بترجمة هذا الفرمان إذ إنه مثل عجيب على التعبيرات الشرقية:

«إلى وزيرى النبيل، سمو الخديو، المثل الأعلى، والمدير القدير لأعمال الدولة منبع الحزم والإنسانية، بل ومؤسس صرح العزة والمجد، أنت يا مدعم قواعد السعادة والخلص، خليل العناية الإلهية، خديو مصر، مزداناً بنياشين الدولة العثمانية اختارته قدرة الله. عند استلام هذا الأمر ليكن معروفاً لديك بأن البعثة الدبلوماسية للولايات المتحدة التي تقطن عند بوابتنا السعيدة قد قامت برفع تقرير تحيطني فيه علماً بوفاة المستر بيردسلي الذي كان قنصلاً عامّاً للولايات المتحدة في مصر، والتي تشرف على أعمال التجار التابعين للولايات المتحدة الذين يروحون ويغدون في هذا القطر، كما أحاطتني بترشيح مستر ألبرت فارمان الذي اعتمد مني بأمر سلطاني ذلك الأمر الذي قدم إلى الوزير المفوض ليحفظه لديه. ولقد أعطاه أمري السلطاني هذا سلطة الإشراف على أعمال المدنيين والتجار التابعين للولايات المتحدة المترددين على هذه البلاد، كما نص على أن يعامل، دون أي تدخل من جانب أي شخص غريب طبقاً للشروط المنصوص عليها في المعاهدات المبرمة حالياً. لقد أعطيته فرماناً آخر وسوف تعامله شخصياً وفقاً للمعاهدات المبرمة، وأنت أيها الخديو، لسوف

تتصرف بمقتضى نصوص هذا الأمر المشار إليه، وتسمح له بجمع الضرائب القنصلية المستحقة على الواردات والصادرات التي يتعامل فيها التجار الأمريكيون، وعليك ألا تسمح بأي نوع من أنواع التداخل في حقوق القنصلية».

خاتم السلطان

كبير الوزراء

ولقد تجنب الباب العالي ذكر اختصاصات القنصل العام في مصر وتعتبر واجبات المعتمد البريطاني والقنصل العام للولايات المتحدة في مصر واجبات دبلوماسية وقنصلية وإن كانت الأولى هي أهمها أساساً. والمعتمدون والقناصل العامون التابعون لدول أوروبا الكبرى التي لها قناصل يقومون بالواجبات القنصلية تعتبر وظائفهم دبلوماسية محضة. وعلى كل فإن الباب العالي لا يعترف بهؤلاء الممثلين الدبلوماسيين إلا على أنهم قناصل عامون ويعتبرون في نفس مرتبة غيرهم من المعتمدين والقناصل العامين لدى الخديو.

وفي حفل الاستقبال الرسمي الذي أقيم في قصر عابدين قدمت خطاب اعتمادي شخصياً إلى الخديو بناء على التعليمات الصادرة إليّ وكان هذا الخطاب موجهاً من رئيس الجمهورية الجنرال جرانت. وكانت وزارة الخارجية في واشنطن قد أرسلت نسخة منه إلى شريف باشا لهذا الغرض. وكان نص الخطاب كما يلي:

- من يوليسيس س. جرانت، رئيس جمهورية الولايات المتحدة إلى سمو خديو مصر صديقي العظيم البار. لقد وقع اختياري على ألبرت. أ. فارمن، من مواطني الولايات المتحدة كمعتمد وقنصل عام للولايات المتحدة الأمريكية في مصر، لكي يقيم في القاهرة ويشرف على مصالحنا ويبدل كل ما في وسعه من وسائل شريفة كي ينمي ويحافظ على الألفة والنية الصادقة بيننا.

ولذا ألتمس من سموكم أن تعامله على هذا الأساس وأن تمنحه الاحترام اللازم، وأن تواليه بالثقة التامة في كل ما يمثله من قبل حكومته وعلى الأخص عندما يؤكد لسموكم توافر الصداقة الخالصة بيننا..

حرر في واشنطن في 13 من إبريل سنة 1876م

بأمر رئيس الجمهورية

وزير الدولة صديقك المخلص

ج. ل. كادوالدر ي. س. جرانت

وقبل تقديم الخطاب قمت بإلقاء كلمة قصيرة أكدت فيها لسمو الخديو الصداقة الحارة من قبل الرئيس، ورغبته في دوام علاقات الصداقة الموجودة بين حكومة مصر وحكومة الولايات المتحدة، فأجاب الخديو بالفرنسية مبيّناً تقديره لعبارات الصداقة، كما سماها، التي ألقيتها باسم حكومتنا، راجياً مني تبليغ مشاعر الصداقة إلى جناب الجنرال جرانت، كما عبر عن رغبته التي لا تقتصر على دوام العلاقات المخلصة بل ترمي إلى تقوية هذه العلاقات بمختلف الوسائل بين كل من الولايات المتحدة الأمريكية ومصر، كما أكد لي أنه على استعداد لمساعدتي في إنجاز المهمة التي كلفت بها من قبل حكومتي.

في هذه الزيارة كان يصحبي طبقاً للعرف الجاري، الوزير المفوض المساعد وسكرتيري الخاص وأربعة من المترجمين، ولم تكن وظائف هؤلاء المترجمين سوى وظائف فخرية فحسب، وذلك لأنهم لا يقومون بخدماتهم إلا في بعض المناسبات الرسمية العامة. ولقد كانوا أشخاصاً من ذوي النفوذ والمال الذين يقومون بخدمات صغيرة من حين إلى حين في مقابل ما يتمتعون به من حماية، ولما كانوا ملحقين بالمفوضية كان لهم حق التمتع بحقوق وامتيازات المواطنين الأمريكيين، وعليه فقد كان هذا سبباً في تخلصهم من طلبات الابتزاز للحكام وغيرهم من الموظفين المحليين لتلك الحكومة الاستبدادية.

والدولة العثمانية تسمح بأربعة من المترجمين لكل وزير مفوض جرياً على التقاليد القديمة، وهم من الوجهة النظرية يكونون جانباً من حاشية الوزير المفوض. والواقع أنهم سكرتيروه ومترجموه ومساعدوه.

وبعد تقديم خطاب الاعتماد كان من بين الحاضرين، وهم من الموظفين المصريين شريف باشا، وقد جلس الجميع على أرائك تركية، وقدمت إليهم نراجيل مرصعة بالماس أجسامها مرتكزة على أطباق من الفضة. وكانت اللاتيات طويلة بشكل يسمح للإنسان باستخدام النرجيلة بطريقة ملائمة. وبعد أن أخذوا بضعة أنفاس قدمت إليهم القهوة التركية وبعد حديث قصير بيني وبين الخديو قام سموه ورافقني حتى باب غرفة الاستقبال. وعندما كنت على وشك الخروج أبدى أسفه على أن الظروف قد حالت بينه وبين استقباله لي بالطريقة المألوفة، ثم أردف قوله: إنه سوف يكون سعيداً إذا ما قام بهذا العمل في المستقبل.

كنت أعتقد أن هذه المقابلة سوف تكون بديلاً لحفل الاستقبال الفخم المؤلف الذي يقام طبقاً لما يجري به العرف في مصر، ذلك أنه لم تكن قد انقضت مدة الحداد وهي أربعون يوماً على وفاة المرحوم طوسون باشا، ولذا فإننا قد أبلغنا في الخطاب الذي حدد مكان وميعاد الاستقبال بأنه سوف يتم دون «أي احتفال».

وفي الوقت المحدد للاستقبال النهائي، حضر زكي باشا، كبير التشريفات إلى مقر إقامتي بصفته ممثلاً للخديو ومعه عربتان: إحداهما، وهي العربية الملكية وخصصت للباشا ولشخصي، وكانت مطلية بطلاء ذهبي وتجرها جياد بيضاء مزركشة يصاحبها بعض السائسين والحراس. أما العربية

الأخرى فكانت لحاشية القنصل وكان الباشا محوطاً بعدد من رجال السواري على جياذ بيضاء وصهباء ساروا في حراستنا حتى القصر. وعند مدخل القصر ظهرت فصيلة من المشاة على جانبي الميدان وعندما اقتربنا بدأت طلقات المدافع تدوي من القلعة وبدأ الجنود يحيوننا عند مرورنا.

وعند مدخل القصر استقبلنا طونينو بك مساعد كبير التشريفات يصحبه آخرون من أتباع الخديو. وحينما ارتقينا السلم الضخم، استقبلنا الخديو وقادنا إلى غرفة الاستقبال وبعد أن تبادلنا مع سمو الخديو قليلاً من كلمات المجاملة جلسنا جميعاً ودارت علينا - الغلابين وفناجين القهوة كما حدث في المناسبة السابقة وحينما استأذنت للانصراف قدم لي الخديو سيفاً مقوساً ذا نصل دمشقي وغمد مرصع بالذهب، كرمز لسلطتي في بلاده وعندما غادرنا القصر مررنا بين صفوف الجند الذين قاموا بتحيتنا مرة ثانية، ووصلت إلى مقر إقامتي بنفس الطريقة التي حضرت بها، يصحبي نفس الأشخاص الذين رافقوني إلى القصر، ثم تبادلت الزيارات بعد ذلك، كما جرت العادة، مع شريف باشا ومع أبناء الخديو وغيرهم من الشخصيات البارزة.

وفي الصباح التالي ترتب على هذه المقابلة أن حضر إليّ سائقو العربات والسائسون وغيرهم من خدم الخديو وخدم ناظر التشريفات ووزير الخارجية الذين أسعدهم الحظ بحضورهم هذه المقابلات. وقد حضروا جميعاً لتناول «البقشيش» الذي كان من حقهم كما يقتضي العرف في مثل هذه المناسبات. وقد حدد العرف المبالغ التي تعطى لهم فيما يلي: سائق الخديو، ستة جنيهاً إسترلينية، السائق الثاني، أربعة جنيهاً، السائسون، أربعة جنيهاً، حرس ناظر التشريفات، خمسة جنيهاً، حرس وزير الخارجية، عشرة جنيهاً، سائق الوزير وسائسوه وخدمه، خمسة جنيهاً، الحرس القنصلي، جنيه واثنا عشر شلماً، فيصبح المبلغ الكلي خمسة وثلاثين جنيهاً واثني عشر شلماً إسترلينية، أو مائة وثلاثة وسبعين دولاراً.

ولقد منح الخديو القائم على خدمتنا (حسن) ستة عشر نابليوناً (تقدر بما يزيد على ستين دولاراً) وذلك ليشتري بها حلة رسمية جديدة من المفروض أنه يحتاج إليها عند دخوله الخدمة لدى القنصل العام الجديد. وكان من عادة الخديو حينئذٍ أن يقوم بإهداء أي قنصل عام جديد - بمناسبة استقباله الرسمي - جواداً رشيقاً، جهاز سرجه ولجامه على أحسن طراز شرقي، فقد وشى سرجه الكبير بالذهب بينما زخرف بقية الطاقم بنفس الأسلوب الفاخر.

ولقد قبل القناصل العامون لكل الدول هذه الهدية بما فيهم قناصل الولايات المتحدة، فيما عدا سلفي الذي تلقى تعليمات بالألا يقبل الهدية، وقد تكرر هذا الحظر في التعليمات التي صدرت إليّ. ولما كان من المعلوم أن الحصان لا يمكن قبوله لم يقيم المسؤولون بتقديمه إليّ. وعلى كل فقد سبق أن سأني شريف باشا في حديث جرى حول هذا الموضوع.. عن الحق الذي يكفل للولايات المتحدة أن تتدخل في عاداتهم القديمة، ثم لمح بأنه ينبغي عليه أن يقدم الحصان، تاركاً لي أمر رفض الهدية.

ولم يتوان سائس الخديو عن أن يحضر إليّ لكي يتناول نصيبه من «البقشيش» كما لو كان قد تبني من القصر مقتاداً لجواد، وكما لو كنت قد قبلت الهدية، ولم يكن ذنبه أن حكومة الولايات المتحدة قد

اتخذت قرارًا يفيد بأن هذه الهدية عمل غير دستوري بعد أن كانت قد سمحت بقبول الجواد لأمد طويل.

وإهداء الحصان عادة قديمة يرجع أصلها إلى الزمن الذي لم يكن فيه ثمة طرق ممهدة للعربات في مصر، حتى ولا في المدن الكبرى مثل الإسكندرية والقاهرة، ولذا كان وجود الحصان ضرورة بالنسبة لأي شخص ذي مكانة وعندما وصلت لم يكن ثمة طرق للعربات خارج هاتين المدينتين وضواحيهما القريبة وليس هناك الآن سوى بضع طرق قليلة أطولها - على حد معرفتي - الطريق الممتد من القاهرة إلى الأهرامات وهي مسافة تبلغ حوالي تسعة أميال.

وقبل حفل الاستقبال الرسمي الذي أقيم لي، كثيرًا ما قمت بزيارة الخديو الذي أشعرني بأني على صلة وثيقة بسموه بفضل شخصيته الاجتماعية اللطيفة. وكان ينبغي عليّ أكثر من مرة أن أقوم بواجب غير سار، وهو المطالبة غير الرسمية - وإن كانت بطريقة ملحة مهذبة - بدفع التعويضات الأمريكية ضد الحكومة المصرية، وعلى حين أنني كنت أقوم بهذا العمل أمام وزير الخارجية أو وزير المالية، كان من الضروري في بعض الأحيان أن أثير الموضوع أمام الخديو شخصيًا، وكانت الحكومة المصرية في ذلك الوقت في ضائقة مالية شديدة، ولذا كان مجرد ذكر أي تعويض مالي لا بد وأن يسبب بعض الضيق. وعلى كل، لم يكن بي حاجة للمطالبة بشيء آخر خلاف ذلك، في الوقت الذي كان فيه الممثلون الأوروبيون لا يلحون في طلب التعويضات المالية فحسب، بل يقومون كذلك بتنفيذ مشروعات سياسية، ذات أهمية حيوية بالنسبة للخديو، الأمر الذي أدى في النهاية إلى أن يفقده عرشه.

وعندما أعلن نبأ وصولي في القصر، لم يكن الخديو يخشى مطلبًا مجحفًا أو مؤامرة سياسية من جانب حكومتي، ولذا لقيني بإخلاص تام دون أي خوف من تعريض مصالحه للخطر. والواقع أن الولايات المتحدة وروسيا كانتا في ذلك الوقت الدولتين الكبيرتين الوحيدتين اللتين لم تكن لهما مطمع سياسي مباشر أو غير مباشر بالنسبة لمصر، مثل هذه الظروف ساعدت كثيرًا في دفع التعويضات الأمريكية التي سويت أخيرًا بطريقة مرضية، ودفعت عن آخرها. ولقد كنت مدينًا بهذه النتيجة لصداقة الخديو.

ينتقل بنا «ألبرت فارمان» إلى وصف انطباعاته عن مشاهداته عن معالم القاهرة وتفصيل الحياة اليومية وغرائب العادات والتقاليد في المعتقدات الشعبية المصرية:

«مصر بلد العجائب، والقاهرة مدينة ساحرة فاتنة، من أجمل مدن العالم. وقلما تجد مدينة تضاهيها في بهجتها وقلما تجد مملكة حديثة العهد في مظاهرها وروعها كمصر، بل قلما يجد الباحث وراء اللذة أو الباحث وراء العلم ما يضاهيها. ففي كل زاوية من زوايا البندر أو الريف تجد المدهش العجيب والجديد اللذيذ، فالمساجد وقياب المساجد لسلطين المماليك، ومقابر العائلة المالكة وجبانة العرب، والقصور العتيقة والشوارع المكتظة بالكتل البشرية المتحركة ذهابًا وإيابًا، ومبانيها ذات الطراز العربي، والأسواق العجيبة الممتلئة بالبسط والسجاجيد الشرقية الفاخرة، ومجموعة الآثار

الفرعونية والقلعة بقصورها ومسجد محمد علي المبني من المرمر والمناظر الباهرة والصحاري والغابات المتحجرة والصخور الفسفورية البيضاء بجبل المقطم والأهرامات وأبي الهول والأضرحة العتيقة الرائعة والنيل، والحقول المحيطة بواديه وعادات أهله المختلفة، كل ذلك يجتمع ليحدث أثراً ليس له نظير في أي مكان آخر فوق سطح المعمورة.

ولقد نقشت هذه المناظر على الذاكرة أثراً لا يبلى، وذلك أنه بعد مضي سنين عديدة على تلك المناظر يشتاح «الإنسان الذي شرب من ماء النيل مرة» أن يمرح ثانية في طقس مصر الجميل ويعود إلى مسراتها وملذاتها التي تظهر له حينما يسرح الطرف فيها وكأنها حلم لذيد عن أرض عجيبة تضيئها أشعة مصباح علاء الدين السحرية!..

وإبان إقامتي في القاهرة أقيمت بمناسبة فيضان النيل أعياد واحتفالات كثيرة يرجع أصلها إلى الأزمنة التي كان النيل فيها لا يزال سراً من الأسرار الخفية ومحلاً للتقديس والاحترام، ففي ليلة 17 يونية سقطت دمعة الآلهة إيزيس من السماء إلى نهر النيل مسببة فيضانه كما كان يعتقد المصريون القدماء، والواقع أن النيل كان يبدأ فيضانه السنوي في هذا التاريخ من كل عام، هذه الليلة - ولو أن حفلاتها كانت أقل بهجة من العام الماضي - فقد احتفل بها هؤلاء الأهالي المقيمون على ضفتي النيل ومعهم أصدقاؤهم الذين ساهموا معهم في هذه الاحتفالات التي أقيم فيها عديد من الطقوس الخرافية.

ومن أهم الاحتفالات التي شاهدتها كان قطع الخزان الذي كان يقام كل عام في فصل التحاريق على قناة «الخليج» التي كانت تمتد مدينة القاهرة بالمياه قبل حكم إسماعيل باشا وقيل مد شبكة من أنابيب المياه، وكانت هذه القناة تمتد عدداً كبيراً من الأهالي بمياه الشرب حتى وقت قريب - هؤلاء الذين كانوا يفضلون في شربهم النظام العتيق معتقدين اعتقاداً خاطئاً بأنه أصح لهم من النظام الحديث.

ولقد كانت القناة عميقة الغور، وتجري مبتدئة من مصر القديمة في مواجهة جزيرة الروضة مخترقة الجزء القديم من المدينة الحالية. ويقال إن عمرو بن العاص قائد أمير المؤمنين هو الذي أنشأها بعد غزوه لمصر في عام 641 بعد الميلاد، بقصد توصيل النيل بالبحر الأحمر - ولقد أوصلها حتى أصبحت على مقربة من بوبسطة، حيث اتصلت بقناة قديمة تصب في البحيرات المرة ومنها إلى البحر الأحمر.

وتمتلى هذه القناة - فيما عدا ذلك الجزء الذي يخترق مدينة القاهرة، ثم تصب بعد القاهرة مباشرة في تلك الترعة الكبيرة مباشرة التي توصل المياه العذبة إلى قناة السويس عند الإسماعيلية، ثم بعد ذلك إلى السويس.

هذه القناة القصيرة التي تمتد مدينة القاهرة بالمياه كانت دائمة الجريان بسبب عمليات التطهير المستديمة - ولقد كانت تجف عدة شهور من كل عام - في حالة الفيضان كانت تملأ الصحاريح الضخمة المقامة على جوانبها على طول القناة حيث تنقل المياه إلى المستهلكين بواسطة السقائين طوال أيام السنة، وأنك لتشاهد السقائين يبيعون المياه بصفة مستديمة في الطرقات، وكذلك يهبونها للمارة بدون مقابل أو بمقابل زهيد، كما يتراءى للشارب، وكانت تباع من القرب غالباً أو الأواني

الفخارية (القلل) في بعض الأحيان، وفي كلتا الحالتين تقدم المياه في أكواب نحاسية تضرب إحداها في الأخرى لتحدث رنينًا شديدًا يلفت الأنظار!

وقبيل سفري إلى أوروبا في أول صيف قضيته في القاهرة دعاني محافظ المدينة إلى حضور احتفالات قطع الخزان، وكان ذلك حوالي منتصف أغسطس عندما يفيض النيل إلى درجة تضر بالمحصول. ولقد كان يحتفل بهذا الفيضان بفرحة حقيقية تبدو في غالب الأحيان على وجه الطبقة العامة في أعيادهم الصاخبة بفيضان النيل.

ولقد أقيم الاحتفال الرئيسي في الصباح المبكر عند رأس القناة بمصر القديمة حيث استيقظ أهالي مدينة القاهرة عن بكرة أبيهم قبيل الفجر.. فكنت ترى الأولاد يحملون الأعلام وينضمون إلى المنادين الذين يعلنون الأنباء السارة - أنباء فيضان النيل العميم.

ولقد مررنا فوق طريق قد فرش بالرمال الناعمة يبلغ طوله حوالي ثلاثة أميال.. وقد اخترقنا مختلف الأحياء العامرة حتى وصلنا إلى السد عند مدخل مصر القديمة، ومما يعرف الآن عن مصر القديمة أنها تلك البلدة الصغيرة المقامة حول حصن بابلون الذي أنشأه الرومان في مصر.. وكان حصنًا شاسعًا يعسكر فيه جنود الرومان لضمان خضوع مصر لروما ولأباطرة بيزنطة، حتى فتحها عمرو بن العاص بعد حصار طويل، ولقد كان هذا المكان يسمى بالفسطاط في أوائل العصر الإسلامي. ولا تزال توجد جدران هذا الحصن المتهدمة ومعها الجزء الهام من المدينة الحالية بما في ذلك عدد من المنشآت والكنائس والأديرة القبطية.

وعند وصولي إلى السد وجدت زحامًا شديدًا من الأهالي يبلغ الآلاف من أفراد الطبقة العامة قضاوا هناك ليلتهم - ولقد كانت الخيام مقامة على طول شواطئ النيل والقناة - وكانت القوارب تروح وتغدو محملة بالأهالي في ذلك الفرع الصغير من النيل الذي يفصل جزيرة الروضة عن الشاطئ الأصلي.

ولقد كان سرادق الحاكم الذي دعيت إليه مقامًا على شاطئ القناة مباشرة فوق السد وقد بني أمام إفريز يستوي مع حافة المياه.. وكان يقوم بحراسة هذه السراقات الجند الذين رافقوا المحافظ. وكان يشغلها هو وأعوانه وبعض الأوروبيين، ومن هذا الإفريز كنت ترى منظرًا عامًّا على الشاطئ الغربي للنيل لجزيرة الروضة بأسوارها المرتفعة، وحدائقها الغناء.. ونخيلها ومقياس نيلها وخلف ذلك على مسافة بضعة أميال، في الجانب الآخر من الوادي كنت ترى الأهرامات، وقد حجبت عنا منظر مآذن الجوامع وقبابها، كما حجبت عنا أبراج الكنائس القبطية وأسوار أديرة مصر القديمة.

ومظلات بائعي الحلوى والفاكهة والخبز وغيرها من المأكولات التي تشاهد عادة في أيام المواسم والأعياد كان يؤمها زحام شديد، ولقد كان رنين الأطباق بأيدي السقائين الذين لا ينقطعون عن تلك الأماكن، والنغمات المختلفة للموسيقى البلدي وأصوات القاهريين، والصدى العام لهذا الزحام الشديد بغير شك أكبر مظهر من مظاهر الفرح والسرور الذي يشبع غريزة كل أعرابي محب للجلبة والضوضاء، وإن كان لا يفوق جلبة اليوم الرابع من شهر يوليو بالولايات المتحدة الأمريكية.

وقد كان عدد كبير من الرجال يشتغلون ليلاً في حفر هذا السد من الجهة البحرية حاملين التراب في محاقب إلى البر. وكانوا يعملون في حذر وبكل احتياط، بل وعلى أهبة الاستعداد لترك العمل عند سماعهم أول إنذار، فما كنا لننتظر طويلاً حتى انفجرت المياه منسابة مكتسحة أمامها كل ما يعترضها من حواجز منهمرة بقوة هائلة إلى القناة حيث تغمرها حيث يصل مستواها إلى مستوى النيل تقريباً.

هنالك ظهر محافظ المدينة على حافة الإفريز وبذر قروشاً جديدة في عرض المياه قيمة الواحد منها خمسة سنتات، ظاهرها من الفضة والواقع أنها خليط من المعادن. في تلك اللحظة يخلع الكثير من الأعراب كساءهم البسيط ثم يقفزون إلى الماء بحثاً عن العملة. والبعض منهم كان غير قادر على مقاومة التيار والبعض الآخر كان يندفع بسرعة السمكة إلى القاع جالباً معه تلك القطع الفضية اللامعة. وفي لحظات قليلة كنت ترى القناة قد ملئت بالرجال يسبحون فيها ويتنازعون من أجل مكان في هذا المحتشد.

وعند قطع السد يكتسح التيار أحياناً بعض الرجال وقد يكون سبباً في إغراقهم ولو أن الكثير منهم بارع في السباحة. وكان إلقاء العملة الفضية في الماء عادة قديمة بقيت دون غيرها من العادات. وقد استمرت هذه العادة لترضي اعتقاد الناس الخرافي بأن لها أثراً عظيماً في جلب فيضان النيل.

وفي حديث لي مع المحافظ في مناسبة مشابهة أخبرني أن مسألة التخلي عن عادة إلقاء النقود في النيل كانت موضع نظر، ولكن لم يرغب أحد من المحافظين أن يأخذ على عاتقه مسئولية إلغاء هذه العادة، علماً منه بأنه إذا جاء الفيضان منخفضاً على إثر ترك هذه العادة، سيعتبره الكثيرون السبب في انخفاض مياه النيل، وهكذا تتأثر سمعته ونفوذه بين عدد كبير من الناس.

وكانت قناة الخليج قد ملئت حديثاً وستصبح الاحتفالات بقطع السد من الآن فصاعداً لا يذكرها إلا التاريخ. ونقلاً عن أقاويل المسلمين كان الأقباط قبل فتح عمرو بن العاص لمصر، يقدمون في هذا المكان ضحية لإله النيل هي عبارة عن عذراء جميلة يلقي بها في النيل كل عام - ولكن لم تثبت صحة هذه الأقاويل، ذلك أن بعض الكتاب قرروا أن الضحية التي كانت تلقى في النيل هي صورة عذراء لا عذراء حقيقية. وبالفعل لم يحصل شيء من هذا القبيل في موسم الاحتفالات التي حضرتها.

وبمجرد أن ملئت القناة شرعت القوارب التي أخذت أبهى زينتها، تبحر من النيل إلى القناة، وهمّ المحافظ وحاشيته بالانسحاب، وأخذ الجمهور ينتشر في مختلف الجهات، ولقد ظهرت جزيرة الروضة التي تقع على مقربة من القناة - هي الآن تزار لمشاهدة مقياس نيلها المشهور.

والشائع عند العرب أن ابنة فرعون قد وجدت موسى على شاطئ هذه القناة بين هذه الأعلام، مما يزيد من أهمية هذه الجزيرة كما يوجد على هذا الشاطئ (شجرة موسى) و(شجرة القديسة مندورة).

ولقد عمرت هذه الشجرة أجيالاً طويلة وهي لا تزال قوية شهية، والاعتقاد السائد أن لها قوة عجيبة في شفاء المرضى، تبرئ الأعرج وتجعل الأعمى مبصراً - هذا ولم تكن قاعدة مسلماً بها أن كل

زائر متعبد كان ينشر ملابسه فوق فروع هذه الشجرة يشفى مرضه وعاهته، إلا أن هذه الحقيقة لم يكن لها أي تأثير على شهرة هذا النطاسي البارع، وأن واحداً من كل عدة آلاف من الكاثوليك المتعبدين الذين يزورون معابد اللورد، يدعي بأنه قد استفاد صحياً من الزيارة، على أن هذا لم يمنع مئات الآلاف من المهاجرين المعتمدين في قدسية هذا المكان من زيارته سنوياً، حيث يعتقدون أن العذراء قد ظهرت فيه للراعية دوبر ناديت سوبيروس، فإذا كانت أغلبية المستنيرين الذين يعيشون في هذا الجيل المثقف تعتقد في هذه الأماكن المقدسة هذا الاعتقاد، فمن ينكر على العربي المسكين السلوى التي يستمدّها من مثل هذه الخرافة؟!!

ويبلغ طول جزيرة الروضة التي تأخذ شكلاً مستطيلاً حوالي مليون، ويبلغ عرضها مليون عند المنتصف، وهي محاطة بسور مرتفع، وقد كانت هذه الجزيرة ملجأً للأقباط عندما فقدوا حصن بابلون الذي كان متصلاً بجسر من الزوارق - وبعد هذا الارتداد شرعوا في المفاوضات مع الفاتح عمرو بن العاص، وأخيراً عقدوا شروط التسليم - ولقد عوملوا بكل إنسانية وسمح لهم باسترداد أملاكهم، والواقع أن الكثير رحبوا باتباع النبي وذلك لراحة أنفسهم من حكمهم البيزنطيين الظالمين، ولقد كانت الجزيرة في أول أمرها بسبب برودة هوائها، مصيفاً لعائلات بعض الباشوات القاهريين الذين كانوا يملكونها، وقد ازدانت بالحدائق الغناء المليئة بنباتات المنطقة الحارة كالبرتقال والليمون والموز والحناء وقد علتها جميعاً أشجار النخيل، وشجر الحناء هي تلك الشجرة التي يصنع من أوراقها طلاء الحناء الذي كان يستعمله المصريون منذ زمن بعيد في طلاء أظافرهم وأيديهم.

ويقع مقياس النيل في الجزء العلوي من الجزيرة - ولقد عبرت النيل في زورق حتى وصلت إلى سلم حجري، وما إن - صعدت إلى أعلى حتى وجدت نفسي أمام حديقة قد رصفت ممراتها بالحجارة الصغيرة في أشكال زخرفية، وبعد تجول قصير بين الأشجار والأزهار، قادني المشرف على الجزيرة إلى هذا المقياس العجيب لارتفاع النيل وانخفاضه، ولكن أي سر في هذا الاختراع البسيط لتحديد عمق مياه النيل؟

إنها بئر على شكل مستطيل كبير ذي جدران مبنية من الحجارة يبلغ طول كل جانب منه خمس ياردات، في وسطه عمود مثن الشكل قد نقشت عليه كتابة بالخط الكوفي. ويخرج من قاعدة ممر يؤدي إلى النيل، والواقع أن عدداً قليلاً جداً حتى من بين المتعلمين العرب يعرف قراءة الخط الكوفي. والشخص الوحيد في مصر الذي كان يجيد قراءته كان رجلاً إنجليزياً تخصص سنين عديدة في دراسة العملة الإسلامية، ولكن السر لم يكن في الكتابة المنقوشة على العمود وعلى جوانب البئر، بل كان في الآيات القرآنية، ومن العجيب كما ظهر لنا - النزر اليسير جداً من أهالي القاهرة كان يمكنه أن يعرف فيضان بالنيل بالضبط! انظر لوحة (34).

وانخفاض النيل عام 1877م الذي لم يسبق له نظير قد هيأ لنا الأسباب التي يصح أن نتخذها أساساً لأخطر النتائج، حيث إن أكبر ارتفاع أمكن الحصول عليه في هذا العام هو سبعة عشر ذراعاً وثلاثة قراريط، وطبقاً للتقارير الرسمية الخاصة للثنتين والخمسين سنة السابقة التي أمكن الحصول على

التقارير الخاصة بها كان هذا الانخفاض في فيضان النيل أقل من أي انخفاض آخر حدث خلال هذه المدة بثلاثة أقدام وثلاث بوصات وأقل من متوسط الفيضان بعشرة أقدام تقريباً.

لقد قرر المختصون أن 50 ألف فدان من الأراضي التي تقدر بربع أراضي الوجه القبلي لم يستطع ريها، وبطبيعة الحال كان لا بد من تركها بلا زراعة ولقد علمت أن التقارير الرسمية لم تكن كافية لإعطاء مقاييس صحيحة. ولما كنت أريد أن أقدم تقريراً صحيحاً للمستتر أفارتس وزير الخارجية في ذلك الحين عن هذا الحدث الهام فقد باشرت الحقائق المضبوطة بنفسى.

ولقد طلبت هذه المعلومات من الجنرال «ستون» الذي كان بصفته رئيساً لموظفي الخديو يرأس وزارة الحربية بالقاهرة. يحتفظ بسجل لفيضان النيل وانخفاضه سنين عديدة مستخلصاً أرقامه من القوائم التي كانت تنشر يومياً في الجريدة الرسمية.

وبالفعل كان قد أعد خرائط للرجوع إليها في الشؤون العسكرية قائمة على أساس هذه المعلومات التي كانت تبين ارتفاع مياه النيل عن كل شهر لعدة سنين ولقد وجدت أنه لا يعرف شيئاً عن مقياس النيل فيما عدا أن ارتفاعه حوالي 21 بوصة.. وأنه يعتقد أن كل التقارير مبنية على هذا الأساس. إلا أنني طلبته من محافظ العاصمة حيث إنه المختص بمقياس النيل فأجابني بأنه شخصياً ليس لديه أي علم بكيفية قياس فيضان النيل، وإن هذه الأسرار لا يعرفها إلا الأسرة التي تختص بمقياس النيل.. وقد تبين لي من حديث جرى مع شريف باشا وزير الخارجية آنذاك أنه هو ذاته لا يفقه شيئاً عن هذا الموضوع.

هذا وأن السنة التي بدأ فيها الفيضان ينخفض عن المعتاد في ذلك الوقت هي سنة 1833م، وأن النتائج السيئة لفيضان عام 1877م، الذي جاء منخفضاً أيضاً تظهر لنا الأهمية البالغة للفيضان العادي للنيل.

ويقول هيردوت في حديثه عن النيل «إذا لم يرتفع النيل زيادة قدرها 15 أو 16 ذراعاً على الأقل فإنه لا يفيض على البلاد»، وقد أشار إلى المقياس المقام في ممفيس على مسافة عشرة أميال من جزيرة الروضة. وبعد ذلك بخمسمائة أو ستمائة عام أي في عصر حكم الرومان كانت الحالة تستلزم هذا الارتفاع.

ومن بين الرسوم العديدة التي كانت على العملة المصرية في ذلك الحين كان إله النيل، يتمثل راقداً على الأرض ممسكاً بيده عنقوداً من العنب، وعلى مقربة منه تشاهد تمساحاً أو فرس بحر. ولقد أضيف حرفان يونانيان إلى هذه العملة عندما ارتفع مقياس النيل إلى 16 ذراعاً معمارياً في السنة التي سُكت فيها هذه العملة. ويمثل الحرفان الرقم 16 دالين بذلك على أن العام كان عام خير ويسر. ويحتمل أن يكون مقياس الذراع في ذلك مماتلاً للذراع الحالي. فإذا كان الأمر كذلك فإن ارتفاع المياه المطلوب لغمر الدلتا يماثل الرقم الذي ذكر سابقاً.

كما كان فارمان حريصًا مثل الرحالة الأجانب وكغيره من القناصل الذين عاصروا رمضان في القاهرة وسجلوا انطباعاتهم ومشاهداتهم ، فكتب:

من أمتع المناظر التي يشاهدها الأجنبي في القاهرة هو منظر الحجاج المسافرين إلى مكة والمدينة من كل عام - أي رحيل قافلة الحجاج وعودتها وما يلحق بها من أفراح.

ويسبق هذا شهر رمضان المقدس الذي يبدأ فيه سفر الحجاج، حيث يعدون أنفسهم للقيام بهذا الواجب المقدس - شهر رمضان هو ذلك الشهر التاسع من شهور السنة العربية ويشتمل على ثلاثين يومًا خصصها المسلمون لفريضة الصيام ولو أن مسلمًا تراخى في القيام بالفروض الرئيسية الدينية، إلا أنه شديد التمسك بالصيام المفروض.

فلربما يمتنع عن الزكاة ويفرط في فريضة الحج أو في الاشتباك في حرب مع الكفار، ولربما ينسى القيام بالخمس صلوات في أوقاتها المعلومة، ولكنه لا يمكن بحال من الأحوال أن يفرط في صوم رمضان. وأنه ليعتقد أن القرآن قد أنزل على محمد في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم - ذلك الشهر الذي تفتح فيه أبواب السماء ويلبي الله فيها دعوات التائبين ويغفر لهم خطاياهم.

هذا هو الشهر الذي أنزل فيه الوحي على إبراهيم وبعث فيه بالتوراة إلى موسى وبالإنجيل إلى عيسى. وتشتمل السنة الهجرية على اثني عشر شهرًا قمريًا أو ثلاثمائة وأربعة وخمسين يومًا. ولها ثلاثة أعوام كبيسة كل ثلاثين عامًا حيث تزداد السنة الكبيسة يومًا واحدًا على معدل أيام السنة. ولذا فأبي تاريخ هجري ثابت إذا ما نسبناه إلى تقويمنا الإفرنجي، وجدنا أنه يأتي عادة مبكرًا عن السنة الإفرنجية بأحد عشر يومًا تقريبًا وتختلف السنة القبطية عن السنة العربية، فالسنة القبطية لا تزال مستعملة عند اليونان وتبدأ عادة في اليوم الثاني عشر من شهر يناير، وكان هذا لم يزد مسألة التواريخ بمصر تعقيدًا - ذلك أن الحكومة إبان قيام نظام المحاكم المختلطة كانت تتبع التقويم الجريجوري الذي كان يستعمل في وزارة المالية والمحاكم المختلطة كما كان يستعمله الأوروبيون.

كل هذه النظم كان يستعملها الأفراد على اختلاف جنسياتهم ودياناتهم. فاليوم العربي يبدأ من غروب الشمس والشهر العربي بدأ من وقت ظهور الهلال. ولإثبات أول يوم في رمضان يجب رؤية الهلال عمليًا. وحقيقة ظهوره يجب أن تقرر بعد المغرب بقليل. وهذا الأمر ليس بصعب في جو صاف كجو مصر، حيث يخرج الرجال إلى التلال العالية خلف القلعة وبمجرد أن يشاهدوا تمام الهلال من فوق جبال ليبيا يفتنون راجعين. ولا بد من إثبات ذلك كتابة، بل لا بد من صدور قرار بشأنه وإعلانه على أصحاب المقامات العالية الذين يجتمعون بمنزل القاضي.

وسرعان ما تطلق المدافع من القلعة وتتحرك المواكب في مختلف أنحاء العاصمة مصحوبة بالموسيقى معلنة بدء صيام رمضان في كل مكان. وفي طلعة فجر اليوم الثاني يعلن المنادي الصيام في كل حي ويسمع صوت المؤذنين من المآذن من مختلف أنحاء العاصمة تعلن بدء الصيام.

وصيام المسلمين هو في واقع الأمر الامتناع عن الطعام والشراب والتدخين ما بين شروق الشمس وغروبها طوال مدة الصيام، ولا يعفى من الصيام إلى المرضى والجنود في ميدان القتال.

ويسبب قصر فصول الشتاء في مصر يأتي شهر رمضان في فصل الحرارة سنين متتابعة، والامتناع عن الطعام والشراب في أيام قد اشتد فيها الحر والجفاف طوال شهر كامل من شهور فصل الصيف ليعتبر تضحية عظيمة. وهذا الامتناع عن الطعام والشراب يؤثر في حالة الأهالي الطبيعية حيث تشاهد عليهم توعك المزاج من جهة العمل وسرعة التأثر والانفعال الذي يسبب المخالفات في بعض الأحيان.

ويعوض صيام النهار بإفطار الليل، وأنه لمن المؤلم أن يشاهد الإنسان الناس في بعض الأحيان وهم يلاحظون غروب الشمس بفارغ صبر في يوم قد طال أمده واشتدت حرارته، وعندما توشك الساعات المضنية من النهار على الانتهاء ينتظرون في صمت مطبق دوي المدافع التي تطلق من القلعة معلنة أن الصيام قد انتهى، حينئذٍ تشعل السجائر ويعد البلح والفاكهة وتكثر الطلبات على حمالي المياه حيث إن الظمأ هو أول ما يجب إطفأؤه في مثل هذه اللحظة، هنالك يلقي العامل عدته ويقفز سائق العربة من عربته والجمال من فوق جملة والكل ينتظر بفارغ صبر جرعة من ماء النيل المقدس.

وعندئذٍ يأتي الإفطار حيث ينغمس كل شخص فيما أعد الله له من نصيب، في رمضان تؤجل الأعمال الشاقة إلا أن المقاهي والمطاعم تصبح في أشد حالات رواجها، وتزدان الطرقات بالألوان وتصدح الموسيقى العربية والإفريقية في كل مكان وتتبادل الأحاديث والأغاني حتى الهزيع الأخير من الليل، وقبل الفجر بساعة تسمع صيحة المآذن مؤذنة، بالإعداد للصيام وعندئذٍ تعد أكلة السحور وهي الوجبة الهامة في شهر رمضان تلك التي تتعارض مع عوائد الرق في جعل وجبة الصباح المبكر بسيطة إلى أقصى حد ممكن. وإنها لثلاثون يومًا طويلة إلا أن مدفع القلعة يعلن أخيرًا انتهاء الصيام - وفي الصباح من اليوم التالي لانتهاء الصيام الموافق أول شوال وهو الشهر العاشر من السنة الهجرية تبدأ أيام العيد الثلاثة ويعرف: بالعيد الصغير وهو موسم الزيارات والمقابلات والحفلات وتقديم الهدايا للأطفال والخدم وارتداء الثياب الجديدة.

وفي يوم العيد يسمح الخديو بالمقابلات ابتداء من الساعة السادسة صباحًا حيث يقابل ضباط الجيش - بعد ذلك يتقدم الزوار على اختلاف درجاتهم بترتيب قد أعد من قبل، فيبدأ بمقابلة رؤساء المصالح وكبار الموظفين، ثم رجال الدين فرجال القضاء الأهلي فممثلي التجار والأعيان والوجهاء فأصحاب المقامات على اختلاف درجاتهم، ثم قضاة المحاكم المختلطة وأخيرًا حوالي الساعة الحادية عشرة يتقدم إليه ممثلو الدول الدبلوماسيون هم دون غيرهم الذين يحظون بشرف الجلوس بين يدي الخديو حيث تقدم إليهم القهوة ويدخنون الشبك ويتبادلون الحديث مع سمو الخديو ويقدمون له التهاني بمناسبة حلول العيد.

وسجل فارمان أيضًا انطباعاته عن كسوة الكعبة المشرفة ومراسم الاحتفال الرسمي والشعبي بخروج المحمل وقافلة الحج ، فكتب:

وعقب حلول العيد الذي لا تهمل فيه التقاليد الدينية تعد العدة لسفر الحجاج الذي لا بد منه في اليوم الثالث والعشرين من الشهر. وتحمل قافلة الحجاج أردية جديدة في كل عام تسمى بالكسوة، وهي أبسطه فخمة تغطي بها جدران الكعبة الخارجية في كل عام.

وما الكعبة إلا بناء صغير يقع داخل السور بمكة المكرمة، ذلك الذي يطوي بين جدرانه الحجر الأسود المقدس. وتصنع الكسوة عادة من الحرير الأسود المشجر وتوشى بالذهب وتزين بالآيات القرآنية. وتصنع عادة بالقاهرة، وهي تستمد فخامتها من تلك الحقيقة التي تقرر أن الحكومة المصرية إنما تكلفها 23,300 دولار. ومصاريف الحج التي تنفقها الحكومة المصرية تزيد على 330,300 دولار وهو مبلغ يساوي ضعف المبلغ المقرر للمدارس القائمة تحت الإدارة الأوروبية على وجه التقريب، وتصنع الكسوة من قطع صغيرة ترسل فورًا بعد العيد الصغير إلى مسجد الحسين لحياتها ببعضها ببعض، وعند الانتهاء من أجزاء الكسوة توصل بها حاشية عريضة فاخرة وستار يعلق على باب الكعبة كما تأخذ القافلة معها رداء من القماش المزخرف لاستخدامه غطاء لمقبرة إبراهيم عليه السلام، وكذلك بعض القطع الأخرى المصنوعة من القماش الأخضر الموشى بالذهب والحرير على اختلاف ألوانه لوضعها داخل الكعبة. كما ترسل الكسوة من دمشق لتغطية قبر محمد عليه الصلاة والسلام بالمدينة المنورة، كما تأتي قافلة ثالثة من بغداد - والقوافل الثلاث ترحل من مدنها في وقت واحد على وجه التقريب حيث تدخل حدود الصحراء العربية العظيمة بعد بضعة أيام، وتسير جنوبًا حتى تصل إلى مكة بعد حوالي 40 يومًا.

وتختلف المناظر واحتفالات القاهرة في شكلها العام عند سفر الحجاج من كل عام اختلافًا يسيرًا، حيث ترسل الدعوات الرسمية إلى الممثلين الأجانب بالحضور، وسأروي لكم ما شاهدته في إحدى المناسبات:

يصل الضيوف المدعوون في الصباح المبكر إلى قصر محمد علي بالقرب من القلعة حيث تبدأ القافلة بالرحيل.. هنالك كنت تشاهد فرقًا من مختلف طبقات الجيش قد اصطفت كما تنتظم الجماعات الدينية المختلفة - في الأماكن المجاورة - في موكب كبير.

هذا وقد أعد للخديو أو من ينوب عنه سراق من القطيفة الحمراء والذهبية اللون، وكذلك للوزراء وفضيلة القاضي والمفتي وبعض الشخصيات الكبيرة من العسكريين ورجال الدين، ثم الملكيين. وكان سمو ولي العهد الأمير توفيق باشا يمثل الخديو.

لم يحضر الخديو إسماعيل بنفسه هذه الحفلات الدينية العامة بل كان يمثله فيها توفيق الذي كان يعتبره المؤمنون أكثر إيمانًا من أبيه!.. وعندما تولى توفيق الحكم استمر في الحضور في كل مناسبة من هذا القبيل، وعند وصول سموه اتخذ مقعده في وسط السراق - محاطًا بالموظفين والمدعوين - وسرعان ما تقدم الجزء الذي كانت فيه الكسوة محمولة من الموكب فوقف الجمل أمام سراق

الخدويو. هناك تقدم سمو الأمير وأمسك الجمل من مقوده حيث سلمه إلى فضيلة الشيخ أمير الحج. وبهذا العمل يكون قد أولى ثقته إلى أمير الحج ومنحه السلطة على جميع من معه. انظر لوحة (35).

والمحمل ما هو إلا محفة على جانب من الأبهة والفخامة ذات قمة هرمية عالية، زينت بأبهى الزخارف، وهي مغطاة بقماش موشى بالذهب وقد نقش على كل من جانبيها آيات من القرآن - وهذه المحفة تحمل الآن كرمز للملكية، ولقد كانت تصنع في أول الأمر خصيصاً لنساء الخلفاء اللاتي كن يقمن بالحج - ويقال إن المحمل إنما ظهر لأول مرة في عهد الملكة الجميلة الحكيمة «شجرة الدر» التي أدت الحج سنة 1250 ميلادية في محفة فخمة محمولة على جملين، واستمرت المحفة تصحب الحجاج سنوياً إلى مكة منذ قرون، وهي تعتبر مقدسة بالنسبة للمسلمين البسطاء الذين يزجون بأنفسهم في الزحام للمسها والتبرك بها. أما البعير الذي يحمل الكسوة فيزين بأفخر زينة ويقود القافلة في الصحراء بل ويصبح مقدساً إلى حد ما، فلا يصح استخدامه لأي غرض آخر بل يستمر مخصصاً لحمل المحمل ما دام قادراً على ذلك.

ثم يعقب المحمل شيخ غريب الشكل وهو قائد الجمل الذي يصحب الحجاج في كل عام، ولقد كان شيخاً عربياً متين البنية، شعره مضفر طويل وجسده عار حتى خصره، ويمتطي جملة متمائلاً تارة إلى الخلف وأخرى إلى الأمام بعينيه المسبلتين كأنما هو في نشوة روحية، يعقب ذلك الحجاج، كل على جملة، وفي بعض الأحوال أسر كاملة بكافة لوازمها وخيمها وبعض المواد الضرورية لرحلة الصحراء. ولقد كانت الجمال مزدانة بمختلف الزينات وسعف النخيل وإذا كان شعرها الخشن الطويل قد ابيض من تأثير الشمس فإنه يسترد لونه الطبيعي النحاسي بواسطة استعمال كميات كبيرة من الحناء.

والقسم الرئيسي من الموكب المختص بتكريم الحجاج عن طريق اصطحابهم خارج المدينة، كان يمثل الطليعة متقدماً الموكب بأسره مخترقاً الشوارع الضيقة للأحياء الوطنية بالمدينة متجهاً نحو باب النصر، بوابة الخروج التي تبعد حوالي ميلين عن مقر القلعة. ولم أنتظر شيخ السنانير الذي يسير على مقربة من المؤخرة وهو يسير نصف عار كشيخ الجمال ويشبهه من حيث خشونة المظهر وغرابته ويمتطي جملة العالي وقد أحيط بسلال قد ملئت بعدد كبير من القطط ذاهبة لأداء فريضة الحج المقدس. وهي تطل على الجماهير حيث تقابل بالتهليل والفرح ويبدو عليها أنها تدرك ذلك الامتياز الذي يفضلها على بقية بني جنسها من السنانير!..

في مثل هذا اليوم كانت توقف جميع الأعمال حيث تقفل الحوانيت والمحال الكبيرة وتزدحم الشوارع بالآلاف من الأهالي في أحسن ملابسهم. هنالك يقفون على جانب الطريق الذي يمر منه الحجاج حتى أنك لتشاهد النساء يندمجن في هذا الزحام.

وقد كان هذا الحي الوطني من مدينة القاهرة بشوارع الضيقة ومبانيه الأنيقة المنسقة على الطراز العربي أكثر إثارة للاهتمام من غيره، وعلى الأخص في تلك الفترة التي يمر فيها موكب الحجاج حيث تزدان المباني بأبهى المظاهر، إذ رفعت بجانب فروع النخيل الأعلام والبيارق على اختلاف

أنواعها وأشكالها. ولقد كانت الأسطح والمنافذ مكتظة بالأهالي من كلا الجنسين رجالاً ونساءً، ومن مختلف الطبقات والأعمار وقد تاقت أنفسهم لمشاهدة الموكب أثناء مروره. بل لقد كان المنظر على الجانبين منظرًا عامًا لوجوه البشر المفعمة بالسرور وقد لفت أجسادهم بأفخر الثياب الشرقية.

ثم تركنا طريق الحجاج مارين بشارع جانبي مسرعين إلى البوابة الخارجية للحصول على منظر ذلك الجزء من الموكب الذي كان قد سبقنا، فإذا بنا نشاهد فصائل من الجنود المشاة والسواري تتجه إلى خارج المدينة بالصحراء. ولقد كان يتقدم كل قسم من أقسام الموكب فرقة من الموسيقى وقد امتطى رجالها ظهور الجمال، كما شاهدنا رجال القضاء ورجال العسكرية وغير ذلك من الشخصيات البارزة ما بين ملكية ودينية بملابسهم الرسمية الفاخرة ونياشينهم المذهبة. والكثير منهم كان مصحوبًا بحراسة في زيه الرسمي، ولقد كانت هناك طوائف من الدراويش كل طائفة تختلف باختلاف لون عمامتها، فمنها الأزرق ومنها الأبيض والأحمر وقد حملت الأعلام والبيارق المزدانة بأجمل الزخارف. وقد اشتغل البعض منهم بنوع مخصوص من العبادة حيث كانوا يتلون صلاتهم وهم يتمايلون ذات اليمين وذات اليسار وقد أصبحوا في حالة استغراق كامل، وآخرون كانوا يأكلون الثعابين ويبتلعون قطع الزجاج ويمشون على أطراف السيوف الحادة، وآخرون يرشقون أسياخًا من الحديد في وجوههم فتخترقها من خد إلى آخر!

وينبغي أن نضع في اعتبارنا أنهم كانوا يقومون بهذه الحركات تحت ستار الدين زاعمين أن الضر لا يصيبهم بمعجزة من السماء!

وكان من بينهم رجال أنصاف عراة مدججون بالسيوف وطوائف أخرى ملكية على اختلاف أصنافهم، فمنهم راكبوا الخيل والحمير، ومنهم راكبوا الجمال من العرب المدججين بالرماح والدروع بأرديتهم المزركشة يتخللهم عدد من الجنود.

هذه كانت بعض معالم ذلك الطابور الطويل من المؤمنين الذي استغرق أكثر من ساعتين لمروره من باب النصر.

وهؤلاء الذين كانوا يقومون بالحج، إنما كانوا يعسكرون خارج المدينة الصحراء هنالك يقضون يومين أو ثلاثة في عمل الترتيبات الأخرى والاحتفالات الدينية، فكان الدراويش الذين يذكرون ويرقصون، يواصلون كل ليلة طقوسهم العجيبية. وهكذا كانوا يشجعون ويثيرون مشاعر هؤلاء الذين كانوا على وشك القيام بتلك الرحلة الطويلة الخطيرة إلى المدينة المقدسة للقيام بذلك الواجب المقدس الديني الذي تهون من أجله كل تضحية لدى كل مسلم حقيقي، والحج يعتبر تضحية فعلية، بسبب الأمراض المعدية، وبسبب الحرمان مدى تسعين يومًا بالصحراء يخفق الكثير من الحجاج في العودة. وإنك لترى مكة ورمال الصحراء الممتدة في الطريق المؤدية إليها قد بعثرت بعظام البشر من المؤمنين.

وأول يوم في الرحلة يمرون ببركة الحج التي تبعد مسافة عشر أميال. هذا ويرافق الدراويش القافلة حتى هذا المكان حيث يقضون الليلة الأخيرة في الذكر والتعبد، ثم يعقب ذلك وداع الأقارب

والأصدقاء فالرحيل.

وعند ترك القاهرة متجهًا نحو الشرق، يجد الإنسان نفسه في طريق صحراوية تسمى «درب الحاج» تخترق قنال السويس على مقربة من أطلال «أرسينو القديمة» وتبعد عن السويس شمالًا بعشرة أميال، وعند ذلك يستمر قليلًا إلى الجنوب الشرقي عبر شبه جزيرة سيناء، حتى يصل إلى رأس خليج العقبة. ثم يسير في الطريق على مقربة من شاطئ الخليج وشاطئ البحر الأحمر حتى يصل إلى مكة. وهذا الطريق الصحراوي رملي تكتفه الصخور والنباتات الخضراء في بعض جهاته. وفي مكة تتلاقى القوافل الثلاث بالحجاج الذين أبحروا عن طريق البحر الأحمر من بلاد العجم والهند وتركيا وولايات إفريقيا الشمالية بما في ذلك مصر، حتى يرسوا في جدة على مسافة يومين سفرًا من المدينة المقدسة، ويبلغ مجموع عدد الحجاج الذين يجتمعون من مشارق الأرض ومغاربها حوالي 100 ألف حاج.

وبعد تأدية المراسم الدينية العادية في مكة، تلك التي تصل أبهتها وفخامتها إلى حد ليس له نظير، يتجه الحجاج نحو الشرق حوالي ست ساعات وذلك لصعود جبل عرفات.

وهنا، طبقًا للعقيدة «الإسلامية»، أعد إبراهيم عليه السلام ابنه إسماعيل للذبح.

والمسلمون يعتبرون إسماعيل أبًا للجنس العربي. فهناك بعرفات يتسلق الحجاج جبل عرفات، ويقضون به ليلة، وفي اليوم التالي وهو العاشر من الشهر الثاني عشر الهجري، يضحون بكبش كبير إحياءً لذكرى التضحية التي قام بها إبراهيم تنفيذًا لأمر ربه كما يفسر العلماء، في تلك الليلة على سفح جبل عرفات تقوم مذبحه كبيرة للخراف ويحتفل بهذا اليوم، يوم الضحية، في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

وهؤلاء الذين ليس لديهم المقدرة على شراء كبش أو لحم من أي حيوان يحل ذبحه، يتلقون العون ممن هم أوفر منهم حظًا. ويوم الضحية هو يوم العيد الأكبر، عيد القران الذي توزع فيه الصدقات على الفقراء والهيئات على الخدم والأزياء الجديدة على الأطفال وهو يوم المقابلات الخصوصية والرسمية وتبادل التهاني وإقامة الأفراح والحفلات، وبالاختصار يحتفل به كما يحتفل بعيد نهاية رمضان.

هذا وتستغرق القافلة ستين يومًا في العودة، حيث تسير ببطء إلى المدينة لزيارة قبر النبي ﷺ وقضاء مدة طويلة بالحجر الصحي على مقربة من السويس ثم تسير حتى يلتقي الحجاج على مسافة من المدينة بأقاربهم وأصدقائهم وقد أحاطت بهم الموسيقى ومظاهر الأفراح، فتسمع حينذاك دوي الطبل وغيره من الأدوات الموسيقية الوطنية وطلقات البنادق.. كما تسمع نواح وعويل النساء والأطفال الذين أتوا للترحيب بأزواجهن وأبنائهم فيجدون مكانهم في الموكب خاليًا. ويظنون معسكرين خارج المدينة حتى يحل الميعاد للاحتفالات الختامية فتدخل القافلة المدينة بنفس الموكب والمظهر الذي رحلت به.

كما أن الكسوة التي كانت قد سافرت مع القافلة تحل محلها الكسوة والأغطية القديمة وتقطع إلى قطعها الأصلية وتوزع على المساجد والمشايخ بمثابة آثار مقدسة. ويدخل الموكب المدينة عند البدء في الاحتفالات الدينية التي تقام بمناسبة مولد النبي محمد ﷺ في اليوم الثاني من شهر ربيع الأول وهو الشهر الثالث من العام الهجري. ويجتمع في هذه المناسبة عدد كبير من مختلف الهيئات الدينية وعلى الأخص من الدراويش من مختلف أنحاء الديار المصرية. وعندئذٍ تظهر القاهرة في أبهى حللها وتستمر الاحتفالات بمولد النبي في الحادي عشر من شهر ربيع الأول عند الاحتفال بـ «الدوسة».

وتكتظ الشوارع بالأهالي في أبهى حللهم يتوسطهم بعض الأجانب من الرعايا والسياح، كما تُشاهد في الاحتفال بمولد النبي صفوف طويلة من الأكشاك عامرة بمختلف الألعاب وأشهى الأطعمة من خبز إلى كعك وقهوة وبطيخ وشمام إلى غير ذلك من الفواكه والمأكولات، كما تكثر في ذلك الحين أنواع الملاهي الوطنية، كالموسيقى والشاعر (في المقاهي) والمراجيح واللعب بعصا - هناك تمر الجماعات من الجند والموكب من الدراويش تتقدمهم الموسيقى وتظلم الرايات والأعلام الزاهية الألوان.

ويعقب حرارة النهار مساء جاف جميل. ويبدو أن كل الناس قد خرجوا إلى الشوارع وكانت مظاهر الفرح بادية في أجلى مظاهرها، والمنشدين في كل منعطف من المنعطفات وترى الدراويش يحملون المصابيح المختلفة الألوان، وعربات الحريم تمر بسرعة تتقدمها المشاعل البراقة يحملها المشاعلية الذين يهرعون صائحين: «أفسحوا الطريق».

ولقد أعدت أماكن فسيحة ضربت فيها خيام ضخمة لكل طائفة من الطوائف الصوفية. هنالك كان يطوف في مختلف أنحاء هذه الأماكن أعداد غفيرة من البشر آناء الليل وأطراف النهار، كما كنت تشاهد الدراويش الراقصين وهؤلاء الذين يعرفون باسم المداحين، يقومون بعملية الذكر بلا انقطاع مهذبين بذلك نفسية المسلم وباعتين التسلية والإشفاق في نفس الأجنبي.

ولقد قضينا الليالي الثلاث الأخيرة في مشاهدة اللعب بالنار، وهو فن قد برع فيه العرب، وحيوية الكتل البشرية المتحركة، والسراقات المضيئة وقد فتحت من أحد جوانبها حيث ترى الدراويش بحركاتهم الإيقاعية والأنوار والزهور المعلقة على أحبال مختلفة الأطوال والارتفاع، وكل طائفة يميزها لونها، كل هذا إلى جانب الشموع الرومانية والصواريخ وغير ذلك من مختلف الألعاب النارية يحدث منظرًا غاية في الروعة. وكان الحاضرون يمثلون مختلف الطبقات - وكان الأمير ولي العهد في سرادقه محاطًا بكبار الموظفين وأعضاء أسرته الذكور. وكان يمر عدد كبير من العربات الفاخرة تحمل حريم الخديو وقد ارتدين أبهى الثياب وتسترن بحجاب خفيف، إلى جانب حريم الباشوات والجاليات الأجنبية. هذا وقد اختلط المزارعون بالعمال والصناع، كما اختلطت الطبقات الغنية بالفقيرة، كما ظهر هنالك السائح المتنقل على حماره أو على قدميه أو في عربته، كل بحسب مزاجه وقدرته المالية!

وعاصر فارمان أحداثاً تاريخية فارقة بداية من عزل إسماعيل باشا ومراسم تنصيب ابنه توفيق باشا والوداع الحزين للخديو إسماعيل وعصره الذهبي، فكتب:

عقب تلك الأحداث المريرة التي سبقت عزل إسماعيل باشا، اجتمع أعضاء الوزارة - بالسراي حيث ظهر إسماعيل باشا أمامهم، وقيل رسمياً اعتلاء ابنه عرش مصر، ثم أرسلت مذكرات رسمية عاجلة إلى الممثلين السياسيين بشأن تغيير الحاكم في مصر مصحوبة بدعوتهم لمقابلة سمو توفيق باشا، بعد ظهر ذلك اليوم بسراي الإسماعيلية، ومرافقته إلى القلعة للاحتفال بإعلان تنصيبه خديوياً.

وفي الساعة المحددة وصلنا إلى السراي حيث استقبلنا سمو الخديو، وكان الجميع بملابسهم الرسمية عدا ممثل الولايات المتحدة الذي كان مضطراً إلى الظهور في هذه المناسبة كما هو الحال في المناسبات السياسية الأخرى، مرتدياً حلة بسيطة، وقد أدى افتقار أعضاء مجلس الكونجرس إلى المعلومات الخاصة بعادات الدول الأخرى ورغبتهم في تطبيق أفكارهم بالإكراه على العالم كله إلى حرمان ممثليهم في الدول الأجنبية من حق ارتداء الملابس الرسمية التي تقضي بها العادات الدبلوماسية العالمية.

وانضم إلينا بعد ذلك في القصر قضاة المحاكم الجديدة أو المحكمة الدولية الذين كانوا موجودين في القاهرة. وكانوا يرتدون ملابسهم الرسمية التي كانت تتكون من الطربوش الأحمر والرداء الاستامبولي (وهو عبارة عن معطف ذي صف واحد بياقة منتصبة) ثم وشاح قرمزي عريض تنتهي أطرافه بشرابات ذهبية الألوان، وكان الوشاح يلتف فوق الكتف الأيسر ومثبتاً عند الخصر الأيمن. وقد وضعوا على صدورهم دبوساً كبيراً قد حفر عليه بالنقش البارز «الشمس البازغة»، وكتب عليه باللغة العربية بالطلاء الأسود الكلمات الآتية: «العدل أساس الملك». وكان الخديو الجديد وأخواه (الأمير حسين والأمير حسن) وأعضاء الوزارة وموظفو البلاط، وكبار الضباط يرتدون ملابس زاهية، وكان العلماء والقضاة الأهليون وغيرهم من الأعيان في ملابسهم الوطنية الفضفاضة.

وقد غادر الخديو السراي في عربة صغيرة في رفقة أخويه وشريف باشا. وسارت في أعقابهم عربات القناصل العاملين والقضاة يتبعهم موكب طويل من الأوروبيين وقليل من الأهالي، وكانت القلعة تقع على مسافة تزيد على ميلين وعلى مرتفع في أقصى الجنوب الشرقي من المدينة، وكانت جماعات السواري محتشدة على جانبي الشارع المؤدي إلى السراي كما اصطف بعض الجنود على مسافة طويلة قبل الوصول إلى القلعة.

ولم تدع الأنباء الخاصة بتبديل الحكومة على الجمهور حتى الساعة الثانية بعد الظهر، وسرعان ما انتشرت الأخبار واشتد الزحام عند نهاية الطريق، حتى أن الجند لم يستطيعوا إفساح الطريق إلا بصعوبة. وحينما كنا نرتقي ذلك التل المرتفع في تودة عن طريق ممر ضيق تحوطه جدران سميكة على الجانبين، أطلقت مائة مدفع وواحد معلنة للجمهور بدء الحكم الجديد والنهاية المحزنة لعهد إسماعيل باشا الذي بدأ بداية زاهرة منذ أكثر من ستة عشر عاماً.

وعندما وصلنا القمة شاهدنا المدينة ممتدة أمامنا بحدائقها العديدة، وأسقفها المنبسطة، ومدانها الممتدة، ومقابر المماليك والسلاطين والخلفاء والباشوات والبكوات التاريخية، ومساجدها العديدة بقبابها ومآذنها. وكانت صورة فريدة رائعة لمدينة شاسعة تشمل حوالي نصف مليون من السكان ويجري في الجهة الغربية من المدينة نهر النيل تمتد وراءه الحقول الخضراء، وفي الجانب الآخر من الوادي توجد الأهرامات وجبال صحراء ليبيا، وكان أمامنا مباشرة مساجد وقصور القلعة محوطة برمال جبال المقطم الصفراء....

وكانت العادة تقضي بإقامة احتفال رسمي عند وصول الفرمان، ولذا كان احتفالاً صغيراً يتكون أساساً من قراءة الرسالة الإمبراطورية أمام الوزراء والعلماء وكبار الموظفين والأعيان ومستخدمي الحكومة، ثم استقبال الشخصيات الهامة في البلاد من أجانب ووطنيين.

وقد استقبلت الهيئات الدبلوماسية والقنصلية أولاً.. وكان الخديو الشاب وإخوته والوزراء جالسين في غرفة استقبال فسيحة. وعند دخولنا وقف سموه، وتقدم لاستقبالنا وألقى عميد السلك السياسي خطاباً موجزاً باللغة الفرنسية بالنيابة عن نفسه وعن زملائه ورد عليه الخديو باللغة نفسها.

ثم جلسنا ندخن، ونشرب القهوة وتبادلنا بضع كلمات، ثم استأذنا في الانصراف، ثم تقدم القضاة بعد ذلك، ثم الهيئات المدنية والدينية والعسكرية المختلفة يقدمون ولاءهم لسلطانهم الجديد، وقد انبطح عدد كثير منهم في حضرته، ولم يتقدم لأخذ القهوة أو الغلايين سوى الممثلين الدبلوماسيين.

وكان إسماعيل في ذلك الوقت في قصر عابدين، فتوجهت من القلعة مباشرة لزيارته وقد أكون الفصل العام الوحيد الذي فعل ذلك. وكان مركز الصداقة التي بيننا إبان المشاكل التي لاقاها سموه يسمح لي بأن أفعل ما لم يستطع غيري من القناصل العاميين الآخرين الذين يمثلون الدول الكبرى أن يفعله، فيما عدا ممثل روسيا، وتحدث سموه بصراحة عن الموقف وقال إنه ينبغي عليه أن يبحر يوم الأحد أو الاثنين القادم ويتوجه مباشرة إلى القسطنطينية حيث يتوقع أن يقضي بقية أيامه، ولما كنت أعلم أنه تربي في فرنسا وأنه يحب المدنية الأوروبية فقد تجاسرت بأن اقترح عليه بأن دولة أوروبية خلاف تركيا قد تكون أكثر ملاءمة له. فأجاب قائلاً: «نعم، قد تكون أكثر ملاءمة لي شخصياً، أما بالنسبة لعائلتي، وبالنسبة لعاداتنا، فإن هذا لن يكون ملائماً، بل سيكون مستحيلاً»!

وحيثما كنت أستأذن من سموه أثناء زيارتي السابقة، كان يصطحبني حتى باب غرفة الاستقبال فقط. وفي هذه المناسبة رافقتني وهو يتحدث بلا انقطاع، خلال الصالة إلى رأس السلم، وشرع في النزول معي قبل أن أتحقق من غرضه ولم أسمح له بالسير أبعد من هذا. واستجابة لعدم موافقتي قال وهو يشد على يدي ونحن نفرق: «لم أعد خديو»!!

وكان يقدر عبارات المجاملة، وقد أراد أن ينتازل عن كل حقوقه التي كان يتمتع بها إبان سيادته عن طريق مرافقته لي. وبعد ذلك بيومين، أي يوم السبت، قمت بزيارة سموه مرة أخرى حيث أخبرني أن - السلطان رفض التصريح له بالذهاب إلى القسطنطينية، وكان يشعر بخيبة أمل كبيرة ولكنه قال إنه ينبغي عليه أن يغادر القاهرة صباح يوم الاثنين وأن يغادر الإسكندرية مساء ذلك اليوم. وفي

خلال أربع وعشرين ساعة من تنازله عن العرش زاره القنصل الفرنسي العام لكي يستفسر عن ميعاد رحيله، وهو يتعلل بأنه يود أن يصدر الأوامر إلى السفن الحربية الفرنسية الراسية في ميناء الإسكندرية لكي تؤدي له التحية التي تليق بمقام الملوك عند سفره!

وفي مساء يوم السبت زاره مرة أخرى مع القائم بأعمال القنصل العام الإنجليزي خشية أن يكون هناك بعض التأخير، كما زارا الخديو الشاب وأصرا على أن يغادر إسماعيل البلاد فوراً. وقد طلبت الدولتان كذلك أن يغادر الأميران حسين وحسن البلاد، كما أخبراني بذلك، وهكذا طلب من الخديو عن طريق أولياء أمره المسيحيين، أن يقوم لا بنفي أبيه فحسب، بل أخويه كذلك اللذين كانا في سنه نفسها واللذين لم يشك فيهما أحد. وكان قرار النفي هو تقريباً أول قرار رسمي يصدره، وبعد اعتزال العرش بأربعة أيام أبحر المنفيون من الإسكندرية مع عائلاتهم إلى مكان مجهول!

ولم يكن هناك أي شعور بالابتهاج في مصر بسبب تبديل الحكومة، بل بعض آثار العطف والاحترام للحاكم المخلوع. وعلى الرغم من العادة الشرقية بالتخلي عن المخلوع وتركه لمصيره، إلا أن قصر إسماعيل كان مزدحمًا - منذ يوم اعتزاله العرش - بالزائرين الذين وفدوا للتعبير عن مشاركتهم الوجدانية، كما رافقه إلى المحطة جماهير غفيرة من الناس. وهناك كان الفراق بين أفراد العائلة منظرًا محزنًا فقد احتضن الخديو الشاب والده وأخويه، واغرو رقت عيون المشاهدين بالدموع وكان الأب هو الوحيد الذي استطاع أن يتمالك عواطفه. وكان اللقاء الأخير مع ولده الذي ضحى من أجل ضمان اعتلائه العرش بمبالغ باهظة هي قيمة الهدايا التي قدمها للسلطان ورجال بلاطه!

وكانت هناك حشود غفيرة على طول الطريق إلى الإسكندرية، وكلها تبدي عطفها واحترامها. وقد بلغ الازدحام أشده في الإسكندرية حتى اضطر الخديو أن يصل إلى السفينة عن طريق غير متوقع.

وأطلقت السفن الحربية الراسية في الميناء التحية الملكية المعتادة، وصعد عدد كبير من الناس على ظهر الباخرة يودعون، فاستقبلهم سموه بكل ود وهدوء. وكان يودع الواحد تلو الآخر بأن يصافحه ويقول كلمة رقيقة إلى الأشخاص الذين كان بينه وبينهم صداقة، وبين كل حين وحين كان يعانق أحد الأصدقاء القدامى المخلصين، كما هي العادة المتبعة في الشرق.

وقد وقفت قليلاً على سطح الباخرة، أتحدث إلى الأميرين وأنا أشاهد البعض يقبل يد الخديو السابق بينما الآخرون يقبلون ثيابه، كان ينحني له عدد كبير باحترام بالغ. وهكذا ودع الواحد بعد الآخر، لمدى أكثر من ساعتين، أفندينا السابق الوداع الأخير... وحان وقت إبحار السفينة... فتحركت - المحروسة - التي كانت باخرة سموه المفضلة السريعة إبان سطوته، والتي أرسلت لكي تصحبه وعائلته إلى منفاه.. بعيداً عن الميناء وسط دوي المدافع من جديد!



لوحة (31)

فندق الكونتنتال وجانب من ميدان إبراهيم باشا (ميدان الأوبرا حالياً)



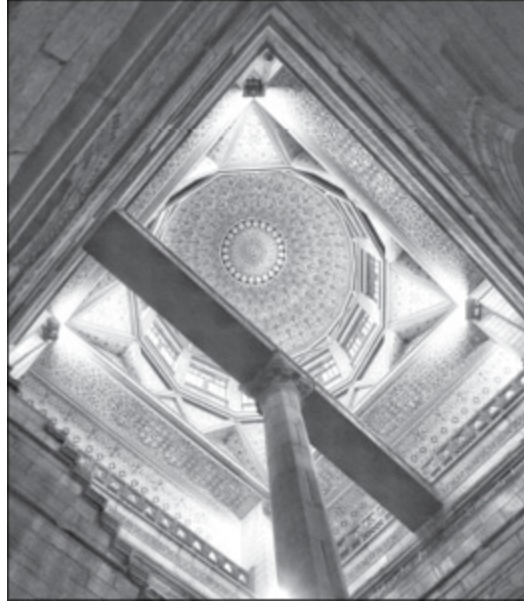
لوحة (32)

السقاعون ومشهد اختفى تماماً ولم يعد له وجود إلا في ذاكرة القاهرة



لوحة (33) سراي الجزيرة

مشاهد من الحياة الاجتماعية بالقاهرة في عصر إسماعيل:



لوحة (34)

مقياس الروضة من الداخل

صوم رمضان وخروج المحمل:

لوحة (35)

وصول موكب المحمل عند جامع السلطان حسن - عام 1898م



أقول نجم أفندينا ورحيله عن مصر:



القاهرة في عهد إسماعيل

* نصوص مختارة من الكتاب التذكاري:

«إسماعيل بمناسبة

مرور خمسين عامًا على وفاته»

محاضرات أُلقيت بالجمعية الجغرافية الملكية في الاحتفال بمرور خمسين عامًا على رحيل
إسماعيل

عام 5491م

بحضور الملك فاروق

الأعمال الهندسية والمنشآت العامة

لحضرة صاحب الدولة حسين سري باشا

مولاي، صاحب الجلالة.

لعل المشاركة في الاحتفال، بذكرى عاهل مصر العظيم، ساكن الجنان، المغفور له الخديو إسماعيل، بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته تبدو - (لأول وهلة) - يسيرة سهلة؛ لأن إدارة الحديث في عظمة إسماعيل، قد لا تكلف جهداً، ولا مشقة، وبخاصة إذا تناول الحديث، أعماله المادية، من منشآت عامة، وهندسية.

ولكن الواقع، أن عظمة إسماعيل، - (وإن جاءت وليدة استعداد فطري ممتاز، ونشأة عملية رصينة، وتجربة عملية واسعة) إنما تعتمد في تقوّدها، على كيفية مواجهتها للظروف الدولية، والمحلية التي اكتنفت إسماعيل العظيم، بعد أن ولي مقاليد الأمور في مصر، فلا غرو بعدئذٍ، أن يقتضي الكلام شيئاً من التأمل، وإنعام النظر.

ليس من شك، في أن تاريخ مصر الحديث، إن هو إلا تاريخ محمد علي، وإسماعيل، وفؤاد. فقد أرسى محمد علي، أسس النهضة الحديثة في مصر، ثم جاء إسماعيل، ينظم بعبقريته، معالم هذه النهضة، ويكيف بذوقه المرهف صورتها، ويدفعها بقوّته الجبارة، إلى الأمام دفعاً، مازلنا إلى اليوم ننعم بآثاره؛ إذ اعتزم إسماعيل، أن يجعل من مصر أمة متحضرة، ودولة مستقلة، بل إمبراطورية واسعة قوية، ومضى قدماً يهدف إلى تحقيق أمانيه موقفاً، لا يعرف الموانع والعقبات، مستعيناً على ذلك، طوراً بكياسته وسياسته، وطوراً بصرامته وقوة شكيمته، واضعاً نصب عينيه في الحالين، أمراً واحداً، هو بلده، وخير بلده.

ولكن إسماعيل بعظمته، استثار الحقد السياسي من كل جانب؛ فاستغلت بعض الدول، فرصة القروض التي عقدها، لمواجهة الإنفاق على مشروعاته، وتدخلت في نظام الحكم في مصر، وبسطت إشرافها كاملاً، على مالية الدولة، إيراداً، وصرفاً، ومن ثمّ على سياسة مصر كلها؛ فأدى ذلك إلى مغادرة إسماعيل بلاده، إلى إيطاليا، فتركيا.

وهكذا شاء القدر الساخر، أن يحرم هذا المصلح العظيم، من أن يجني بنفسه ثمار غرسه، وتعاون خصومه (وما أكثرهم إذ ذاك!) على نشر أسوأ الدعايات حول سياسته؛ فاتهموه بالبذخ والإسراف، حيث يجب القصد، ورموه بالبذل والإنفاق، حيث يجب الإمساك.

ولئن وجدت هذه المزاعم في إبانها، من يستجيب لها، أو على الأقل من يمدّ أذنه، ليستمع إليها؛ لقد أظهر الزمن بعد ذلك بطلانها، وكشف عن بواعثها، ومراميتها، حتى تخاذلت، وانهارت، وبقيت أعمال إسماعيل بين ذلك، قائمة كالطود، تعلن نفسها بنفسها، وتنطق عن عظمة صاحبها.

وهل أدل على ذلك وأهدى؛ من أننا (نحن أبناء هذا الجيل) قد أصبحنا ولا خلاف بيننا، حول عظمة إسماعيل، وغدونا والإجماع منعقد فينا، على أننا مازلنا إلى اليوم، وسنظل إلى غد، وبعد غد - ننعم بالعيش في كنف مشاهد هذه العظمة، ونستمتع باستغلال آثارها الخالدة على مر الزمان.

ولم يكن بدّ (وقدجاشت نفوسنا بهذه الحقائق الماثلة) من أن نردّ بعض الفضل لصاحبه؛ فنذكر الجميل لصانعه، ونحيي ذكرى إسماعيل باستعراض مآثره.

لم يقتصر نشاط إسماعيل، على ميادين السياسة، والإدارة، والاجتماع، بل جاوزها إلى ميادين التجارة، والزراعة، والصناعة؛ فهياً لها وسائل النمو، والازدهار، ووفر لها أسباب النهوض، والانتشار، بشق الترع، وإقامة الجسور، وتجميل المدن، وتشبيد القصور، وما إلى ذلك، بحيث لم يترك شيئاً من مرافق الدولة، إلا شمله بتفكيره، واختصه بعنايته، ومدّ إليه يد الإصلاح، حتى ظفرت مصر، بل ظفر وادي النيل جميعاً، بأوفر قسط من عونه وفضله، يستوي لديه في ذلك، أن يكون المشروع من مشروعاته، أو من مشروعات أسلافه؛ إذ مناط الرعاية عنده، أن يكون المشروع مصدر خيراً أيّاً كان صاحبه.

ولي إسماعيل حكم مصر، والعمل جار بقناة السويس، فمضى فيه، وشجع القائمين عليه، حتى افتتحها للملاحة، في 17 من نوفمبر سنة 1869م، باحتفال فخم ضخم، دعا إليه جميع الأمم، ممثلة في ملوكها، وأمرائها، وعلمائها، ورجال المال والأعمال فيها، وأتاح بذلك لمصر، مناسبة جميلة موفقة، طالما التمسها لتقريب وجهات النظر، بينها وبين غيرها من الدول، عن طريق الاتصال المباشر، وهو خير طرق التقاهم.

ثم رأى إسماعيل، أن ضبط مياه النيل، وتنظيم تصريفها، وحسن توزيعها، يمكن من شغل الأرض بالزراعة طوال السنة، ويضاعف الثروة القومية؛ فاحتقر شبكة من الترع، تنتظم 112 ترعة، يبلغ طولها حالياً 13000 كيلو متر.

وأعظم هذه الترع، هي الترعة الإبراهيمية، وهي من أكبر الترع في العالم كله، ويبلغ طولها 268 كيلو مترًا، ومتوسط عرضها 114 مترًا، وتروي ما يربوا على 850,000 فدان.

وقد بدأ العمل فيها سنة 1867م، وانتهى سنة 1872م؛ فاستغرق بذلك ست سنوات، واحتاج في إنجازها، إلى مائة ألف عامل، كانوا يشتغلون شهرين صيفًا، ومثلها شتاء من كل عام.

ويرجع الفضل في وضع تصميمها وإنشائها، إلى المهندس المصري، مصطفى بهجت باشا، وقد خلفه في الإشراف على إتمامها، سلامة باشا، فإسماعيل محمد باشا.

وتبدأ هذه الترعة، عند أسيوط، وتنتهي عند أشمون، بمديرية بني سويف، فهي تخترق الأقاليم الثلاثة: أسيوط، والمنيا، وبني سويف، وبفضلها تحوّل نظام الري في الأقاليم المذكورة، من ري

الحياض، إلى الري الصيفي؛ فأصبحت زراعة قصب السكر موفورة، ووجدت زراعة القطن ميسورة، وأخذت الصناعات المتصلة بالقصب، تنمو وتنتشر.

ثم وجه إسماعيل إلى الوجه البحري، لفتة سامية أخرى؛ فشق فيها الترعة الإسماعيلية، التي تتلقى الماء من النيل، عند شبرا، وتنتهي إلى الإسماعيلية، ثم تتفرّع إلى فرعين: أحدهما ينساب إلى السويس، والآخر ينحدر إلى بورسعيد، ويبلغ طولها 129 كيلو متراً.

وقد حفرت هذه الترعة؛ لتروي مديرتي القليوبية، والشرقية، ومنطقة قناة السويس؛ فأحيت من موات الصحراء مساحة واسعة؛ بما حملت إليها من ماء عذب، وطمي مخصب، ومدّت بماء النيل، مدينتي السويس، وبورسعيد، وأضحت خطأ ملاحياً، بين العاصمة وشرق الدلتا، يحمل بينهما أسباب الثروة، ووسائل العمران.

وقد أنشأ إسماعيل، إلى جانب هاتين الترعتين الكبيرتين اللتين تعتبران بحق، من أكبر الأعمال الهندسية في العالم أجمع - ترعاً أخرى أصغر منهما، تجري في طول البلاد وعرضها، حاملة معها الخير والنماء.

وقد بلغ طول ما احتقره إسماعيل من الترع 13000 كيلو متر، أنفق عليها زهاء 13 مليوناً من الجنيهات.

ثم اتجه إلى الترع القديمة، والرياحات القائمة؛ فعمق بعضها، وأعاد حفر بعضها الآخر، مما زاد مساحة الأرض المزروعة، مليوناً ونصف مليون من الأفدنة.

وكان من الطبيعي أن يقتضي إنشاء الترع وتعميقها، إقامة 430 قنطرة وجسراً؛ ضماناً لحسن توزيع المياه من ناحية، وتسهيلاً للمواصلات من ناحية أخرى؛ فأنشأ إسماعيل قناطر التقسيم، على الترعة الإبراهيمية، وهي عبارة عن عدّة قناطر، متصل بعضها ببعض، شيدت على نظام هندسي بديع، لتوزع كل قنطرة منها، المياه على فرع من فروع الترعة المذكورة.

وأنشأ في الوقت نفسه، جسر قصر النيل، الذي يبلغ طوله 406 أمتار، وعرضه 10 أمتار، ونفقاته 108000 جنيه، والكوبري المعروف بكوبري البحر الأعمى، وقد ناهزت تكاليفه 40000 جنيه، وبهذين الجسرين الأخيرين، ربط ما بين القاهرة، والجزيرة، والجزيرة.

ولما ظهر خلل في بعض فتحات القناطر الخيرية سنة 1867م، عهد إسماعيل بإصلاح الخلل، إلى فطاحل المهندسين في عصره.

وقد أتم مشروعاته البحرية والنهرية؛ بتوسيع ميناءي السويس والإسكندرية، فارتفعتا بذلك إلى مصاف الموانئ الكبرى العالمية، وأعدّ المنارات اللازمة لإرشاد السفن، إلى أحواضها الداخلية.

انصرف إسماعيل كذلك، إلى تمهيد الطرق الزراعية، ولا سيما في الوجه البحري؛ فعبد منها ما يزيد على 10000 كيلو متر، ومن هذه الطرق، طريق الأهرام التي هيأها، وغرس الأشجار على جانبيها، في أقل من ثلاثة أسابيع.

ولم يكن بمصر عندما اعتلى إسماعيل عرشها، من السكك الحديدية، سوى خطي القاهرة - الإسكندرية، والقاهرة - السويس، ووصلات صغيرة أخرى، يبلغ طولها جميعًا، نحو 490 كيلو مترًا؛ فوضع إسماعيل برنامجًا واسعًا، للخطوط الحديدية، راعى فيه تحسين الموجود منها، وربط مصر بالسودان، وتقريب المسافة بين إنجلترا والهند؛ بإنشاء خط حديدي من مصر إلى وادي حلفا، فشندي، فمصوّع.

ولكن الظروف المالية التي واجهته بعد ذلك، لم تمكنه من تحقيق برنامجه كاملاً، فترك لخلفه 1881 كيلو مترًا من السكك الحديدية، تسيير عليها القطارات، وفقًا لنظام موضوع، ومواعيد مقرّرة، بعد أن كانت تتبع أهواء القناصل، ورغبات الأعيان في وقوف القطارات وقيامها، وهي القاعدة المعمول بها.

ولكن مقومات الحضارة، في الدول الحديثة، لا تتم بغير البرق والبريد؛ فمدّ في مصر والسودان، شبكة من الخطوط التلغرافية، طولها 5582 كيلو مترًا، وطول أسلاكها 11.951 كيلو مترًا، وبلغ عدد مكاتب التلغراف 151 مكتبًا، منها: 86 بالوجه البحري، و44 بالوجه القبلي، و12 بالسودان.

وقد تم في عهد إسماعيل، إنشاء خط تلغرافي عبر سيناء، إلى سوريا، فالأناضول، فالآستانة. كما أنشأت الشركة الإنجليزية الشرقية في عهده أيضًا، خطًا تلغرافيًا، من الإسكندرية، إلى مالطة، فصقلية فأوروبا؛ وآخر من الإسكندرية، إلى السويس، فعدن، فالهند، ومنها ما يتصل بخط الشرق الأقصى إلى إستراليا، وغدا بذلك اتصال مصر بأوروبا، وسائر أنحاء العالم حقيقة واقعة.

أما البريد، فكان السعاة يحملونه برًا وبحرًا، في عهد عباس، وسعيد، وكان للجاليات الأوروبية، في القاهرة والإسكندرية إذ ذاك - مكاتب للبريد، يقوم عليها طائفة من الأفراد، يتولون إرسال الخطابات إلى أصحابها، وكان لأحد هؤلاء الأفراد، شبه إدارة تهيمن على توزيع البريد، بين مصر، وأوروبا. فاشترى إسماعيل هذه الإدارة، ثم وسعها وحسنها، وجعل منها سنة 1865م، مصلحة مصرية للبريد، بلغت مكاتبها 210 مكاتب.

ولم يكن لإسماعيل مندوحة (وقد أنفق صدر شبابه في باريس) من أن يخلق من القاهرة حاضرة ملكة الأولى، وأن يجعل من الإسكندرية عاصمة بلاده الثانية - عروسين بين بلدان الشرق؛ فأزال ما بهما من أكوام، وردم فيهما البرك والمستنقعات، وأدخل وسائل النظافة، والإنارة بغاز الاستصباح، ومدّ أنابيب الماء إلى جميع الأنحاء، وفتح الشوارع والطرق، وبنى القصور والعمائر، وغرس البساتين، والحدائق. وأنشأ الميادين والجسور وشيد المساجد، والمعاهد وأقام المتاحف، والمسارح.

ففي القاهرة: شوارع الفجالة وكلوت بك، ومحمد علي، وعابدين، وعبد العزيز، وكوبري قصر النيل؛ وميادين الرميّة، وعابدين، وإبراهيم؛ وأحياء التوفيقية، والإسماعيلية، وعابدين؛ وحدائق الأزبكية، والأورمان، والحيوان؛ وقصور الجزيرة، والجزيرة، وبولاق، والزعفران؛ وعابدين؛ ومسجدا عابدين، والحسين؛ والمسرح الجديد، والأوبرا.

وفي الإسكندرية: شوارع إبراهيم، والجمرك، والمحمودية، وميدان محمد علي، وحي الرمل، وقصر النزهة، ومجلس بلدي؛ وكفل لذلك كله، أسباب النهوض والبقاء.

وإذا عرفنا الأعمال العامة، التي تمت في عهد إسماعيل، من سنة 1863م، إلى سنة 1879م - كلفت الدولة حوالي 46 مليوناً من الجنيهات على التفصيل الآتي:

قناة السويس

6.700.000

الترع

12.000.000

الجسور

2.150.000

مصانع السكر

6.100.000

ميناء الإسكندرية

2.542.000

ميناء السويس

1.400.000

أعمال أخرى في الموانئ

300.000

خطوط السكك الحديدية

13.361.000

التلغراف

853.000

المنارات

180.000

46.264.000

وإذا عرفنا أن عدد السكان، في سنة 1862م - كان 4.833.000 فبلغ سنة 1879م - 5.519.000 أي بزيادة نحو مليون نسمة في 17 سنة.

وأن واردات مصر سنة 1862م، كانت 1.881.020، فبلغت سنة 1875م، 5.694.000، أي بزيادة حوالي 4 ملايين من الجنيهات.

وأن الصادرات سنة 1862م، كانت 4.454.425، فبلغت سنة 1874: 14.801.148، أي بزيادة نحو عشرة ملايين جنيه.

وأن واردات مصر، طوال الثلاث عشرة سنة، السابقة على حكم إسماعيل، من 1849 إلى 1862م، كانت 29.641.151، والصادرات 36.339.543 أي بزيادة في الصادر على الوارد، تقدّر بمبلغ 6.698.588.

وأن الواردات طوال الثلاث عشرة الأولى، من حكم إسماعيل التي تبدأ من 1863م، وتنتهي في 1875م، كانت 61.393.736، والصادرات 145.939.273، أي بزيادة في الصادر على الوارد، تساوي 73.999.537.

وأن دخل الدولة قبل إسماعيل، كان 4.500.000 جنيه، فبلغ في عهده 9.000.000.

أقول: إننا إذا عرفنا هذا كله (بعد أن استعرضنا بالأرقام، أعمال إسماعيل، وما أدّت إليه فور إنجازها، من تضاعف الثروة العامة، ونموّ عدد السكان) أدركنا المثل السامي، الذي ضربه هذا العاهل العظيم، في سياسة البناء والتعمير، طيب الله ثراه، وجعل الجنة مأواه، وأبقاك يا مولاي، راعياً للنهضة في البلاد.

القاهرة في عهد إسماعيل

للدكتور أحمد فكري

بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

كان عصر إسماعيل في القاهرة، نقطة تحوّل حاسم في جغرافيتها، وفي تاريخها كانت عاصمة الديار المصرية، منذ أنشأها عمرو، في الفسطاط. وكانت حتى منتصف القرن التاسع عشر، تتجه في اتساعها نحو الشمال: اتجهت إلى العسكر، فالقطائع، فالقاهرة، فالعباسية، وظلت تتطلع في تطوّرها العمراني في نحو هذا الاتجاه؛ ف جاء إسماعيل وحول مجراها إلى الغرب، أنشأ بينها وبين النيل حياً بأكمله: هو حي الإسماعيلية. وهكذا برزت عاصمة مصر الحديثة، وكانت حدودها تمتد من الأزبكية إلى بولاق، (وكوبري) قصر النيل، وتجاوزت ضفة النيل الشرقية إلى الجزيرة والجزيرة.

وليس المجال مجال إسهاب، فلن أصف لكم ما استحدثه إسماعيل في هذه العاصمة الجديدة، وما أفاضه من مظاهر النهضة على شوارعها، وميادينها، وفنادقها، وقصورها، ومسارحها، وملاهيها، وبساتينها، ومدارسها، ومتاحفها، ومكتباتها، ومستشفياتها. ولن أحدثكم عن منشآت العمران فيها، وعن إضاءتها، ومياهها ومجاريها، أو أرسم لكم صورة لحفلاتها وسهراتها، ومنتدياتها ومنتزهاتها، و حياة الناس فيها وأساطيرهم عنها.

كل هذه موضوعات أشاد الكتاب، والمؤرخون، والعلماء، والرحالون بذكرها. ولن أنقل إليكم ما قاله بعض هؤلاء الرحالين: من أن القاهرة في عصر إسماعيل كانت مساحتها ثلاثة أضعاف مساحة باريس، وأنها كانت في جمالها أبداع من أحياء باريس، وغابة بولونيا، وأن القسطنطينية كانت تتضاءل بجوارها، وأن الأزبكية كانت أزهى حدائق العالم، وأن دار (الأوبرا) فيها كانت من أكثر دور الموسيقى والتمثيل سعة وفخامة.

والذي لا مجال للشك فيه، أن القاهرة عاشت في عصر إسماعيل، فترة من أجمل فترات حياتها، بمن اجتمع فيها من ملوك العالم، وعظمائه، وبما شاهدته من حفلات العز والفخامة، وبما تهيأ لها من أسباب اللهو والرفاهية، وأنها بلغت حينئذٍ من الشهرة العالمية، ما لم تبلغه في أي عصر من عصورها السابقة.

ولكن إسماعيل أراد ألا تقف شهرة عظمة دياره عند هذا الحد، أو أنه أراد أن يجعلها جديرة بهذه الشهرة؛ فجعلها كسائر عواصم العالم في نهضتها الحديثة: أضاءها بطرق الإضاءة (الميكانيكية) فامتدت على جوانب شوارعها مصابيح (الغاز)، وأمدّها بالمياه الجارية المنقاة، ووفر لها أسباب النظافة والصحة، وخط أحياءها الجديدة على النظم المستحدثة.

وفي كل هذا، ترجمة لناحية هامة من نواحي سياسة إسماعيل وآماله: وهي توجيه مصر نحو المدنية العالمية، وإلباسها مظاهر النهضة الحديثة. وقد تحققت آمال إسماعيل، فالقاهرة اليوم تدين له بأحيائها العصرية: أحياء الأوبرا، والأزبكية، والإسماعيلية، وقصر النيل، وقصر الدوبارة، والجزيرة، والزمالك. هذه مرآة تقدّمتنا العصري، وهو واضع أساسها ومنهاجها.

ولكن سياسة إسماعيل كانت تتشعب بناحية أخرى؛ كانت تطل مع الماضي، كما كانت تتطلع إلى المستقبل، كانت تنشر ثمار النهضة الحديثة، كما كانت ترعى جذور المدنية القومية. وهذه الناحية، نراها أيضًا منطبعة مرتسمة، في القاهرة إسماعيل.

وإذا كان العالم قد اهتم بآثار مصر القديمة، منذ الحملة الفرنسية، وإذا كان علماء الآثار قد لقوا من مؤسس الأسرة العلوية، ومن خلفائه - جميع وسائل التشجيع والرعاية؛ فإنه يرجع إلى إسماعيل أكبر الفضل في تدعيم علم الآثار، وفي نجاح أعمال الكشف الرائعة؛ التي قام بها مارييت باشا، والتي قال عنها هذا العالم الكبير: إنها ما كانت تتحقق بغير عناية إسماعيل. وقد تحققت مع هذه الأعمال، وبفضل رعاية هذا العاهل العظيم، وبإشراف مارييت باشا - فكرة إنشاء المتحف المصري (متحف بولاق). وبالرغم من أن إسماعيل لم يستطع أن يقيم له البناء الفخم الجدير بمحتوياته، فإنه هياً لتراث مصر الغني، وسجل تاريخها - مكاناً في مخازن مهجورة، لإحدى شركات النقل، وجعل منها ومن محتوياتها، متحفاً أجمع العالم حينئذٍ، على أنه كان أبداع متاحفه وأروعها، وأغناها.

أدرك إسماعيل أن للقومية المصرية تراثاً إسلامياً، تشخصه القاهرة بمبانيها، وآثارها، وتترجم ما اجتمع في هذا التراث القومي، من عناصر اللغة، والعقيدة، والتفكير، والتشريع، وأسباب الحياة الاجتماعية والسياسية؛ فأمر بأن تنشأ دار الآثار العربية - انظر لوحة (33) -، وأن يجمع فيها ما تقرق من مخلفات الفنون في عصور مصر الإسلامية. ولست بذاكر لكم تفاصيل ذلك، ولست بناقل إليكم ما عهد به إلى فرانز باشا، وكيف أن آمال إسماعيل لم تتحقق كلها، إلا بعد تخليه عن الحكم بسنين؛ فأنشئ المتحف رسمياً، وتشكلت لجنة حفظ الآثار العربية. ولكن يكفي أن أذكر لكم أمرين: أما الأمر الأول - فإن دراسة الآثار والفنون الإسلامية، لم تلق عناية العلماء وتقديرهم، إلا منذ عصر إسماعيل. وأما الأمر الثاني - فإن الفضل في حفظ آثار القاهرة، وتدعيمها، وتجديدها، في وقت بدأت تطغى عليها مظاهر المدنية الأوروبية - يرجع إلى سمو إدراك هذا الأمير.

وهكذا، كانت القاهرة حينئذٍ، تزهر على السواء، بتراث ماضيها، وبآفاق مستقبلها..



لوحة (33)

دار الآثار العربية (متحف الفن الإسلامي حالياً)

القصور والمنشآت لحضرة صاحب العزة

مصطفى فهمي بك

كبير مهندسي شرف القصور الملكية

ومدير عام مصلحة التنظيم

يشرفني أن تتاح لي هذه الفرصة، لأتكلّم عن المنشآت العامة، والقصور والمنتزهات في عصر إسماعيل العظيم.

إن ما شهدته مصر في العهود السابقة، من فتوحات وانتصارات حربية عظيمة، لا يعادله سوى تقدّمها العمراني والثقافي، الذي ظفرت به في عهد (المغفور له) إسماعيل باشا، بفضل توجيهه السديد، وما امتاز به من نظر ثاقب بعيد.

كان (المغفور له) إسماعيل باشا، شغوفاً بحب البناء والتعمير، ولوعاً بحب التنسيق والتجميل. هاله ما كانت عليه البلاد من سوء الحالة العمرانية والتخطيطية؛ فلم يعبأ بجهد يبذله، أو مال ينفقه، في سبيل إصلاح حالها، وبناء مجدها ووقوفها في مصاف الأمم المتمدينة. فتم له ما أراد، بفضل عزمته، وقوة إرادته، وحبه الجم لبلاده، ودب النشاط في جميع أوصال البلاد. وبدأت موجة

الإصلاح بإزالة جزء كبير من التلال التي كانت مكدسة في القاهرة، وحول أسوارها القديمة، وانتفع بالقدر الذي أزيل منها في ردم البرك والمستنقعات، التي كانت مباءة لكثير من الأمراض الفتاكة.

رأى بعد ذلك بثاقب بصره - أن الحاجة ماسة إلى تنظيم الأحياء، وإنشاء الميادين، وشق الشوارع والحارات، فأنجز ذلك كله، بطريقة هندسية دقيقة، تشهد له بالبراعة في هذا المضمار.

فبعد أن قام بإصلاح أحياء المدينة القديمة، اتجه بعنايته واهتمامه، إلى استحداث أحياء صحية جديدة، على الضفة الغربية للنيل وغيرها؛ لمواجهة الزيادة المطردة في السكان، وبنى قصري الجزيرة والجزيرة. ثم أقام في عام 1869م (كوبري) قصر النيل (الذي جدّد في عهد المغفور له الملك فؤاد الأوّل) وسمي (كوبري) الخديو إسماعيل، تمجيداً لذكرى مشيده العظيم، وتخليداً لاسمه الكبير، وتعزيراً للفكرة الصائبة التي أوحى بإنشائه في ذلك العهد: وهي ربط القاهرة شرقيها بغربيها، والتي من أجلها أيضاً أنشئ (كوبري) البحر الأعمى القديم في سنة 1871م.

ولقد كانت هذه الأعمال العظيمة، دافعاً قوياً لأعيان البلاد وسراتها، في التعمير والإنشاء، في تلك الأحياء الجديدة، مقتدين في ذلك بعاهل البلاد العظيم. وصدق في ذلك المثل القائل: «الناس على دين ملوكهم».

أما الميادين والشوارع والحارات، التي شقت في ذلك العهد الزاهر، فقد روعي في تخطيطها، أن تكون مستقيمة، أغلبها متقاطع على زوايا قائمة. وجعل في جانبي كل شارع وحارة - إفريز للمشاة، وخصص الوسط للعربات والحيوانات، ورصف أرضها (بالدقشوم) ومدت في جميعها (مواسير) الماء للشرب والرش، ووري البساتين، ونصبت فيها مصابيح (الغاز) للإضاءة؛ كما امتدت شبكة المجاري العمومية فيها، والتي عمت في عهده جميع الأنحاء؛ مما كان له أثر ظاهر في الحالة الصحية. وأذكر هنا على سبيل المثال بعضاً من هذه الميادين والشوارع:

1- ميدان إبراهيم باشا، وهو مثل بارز للتنظيم، والتنسيق الدقيق. وإن دعنا الحاجة يوماً إلى إدخال بعض التعديل عليه؛ فما هذا إلا بسبب التطور الهائل في حركة العمران، وازدياد وسائل النقل بأنواعها المختلفة وتعقد حركة المرور على مر السنين.

2- شارع الأهرام، ويعدّ من أهم الشوارع، التي أنشئت لربط العامة بأهرام الجزيرة، والتي كانت ولا تزال قبلة السائحين من كل حدب وصوب.

3- شارع كلوت بك، ولم يكن شقه لتكريم الطبيب الفرنسي كلوت بك، لنهوضه بالطب في مصر فحسب؛ بل ليكون حافزاً للناس، ومنبهاً للأذهان على النهضة الصحية التي ستعم البلاد.

4- مهد الشارع الموصل إلى القلعة، بعد أن كان الوصول إليها صعباً كثير التعرجات، وأطلق عليه اسم محمد علي، رمزاً إلى القلعة العظيمة، التي وإن كان قد بناها صلاح الدين؛ إلا أنها قد شهدت أعز وأمجد أيام جدّه العظيم، محمد علي باشا، رأس الأسرة العلوية الكريمة.

5- الشارع الموصل إلى الجمرك، وكذلك شارع السبع بنات، وهما من أهم الشوارع التي أنشئت بمدينة الإسكندرية.

6-شوارع: عابدين، والمغربي، والمناخ، قصر النيل، وعماد الدين، والمدابع، وبولاق، والفجالة، وغيرها.

والكثير من هذه الشوارع تغيرت أسماؤها أخيراً.

هذا فضلاً عن تمهيد الطريق بين مصر والسويس؛ لأهمية ذلك في التجارة بين مصر، وبعض الدول الشقيقة. وكذا ربط القاهرة بمدينة حلوان: هذا المشفى البديع الذي امتاز بمياهه الكبريتية والمعدنية، ومناخه الجاف، وهوائه العليل، وأنشأ لها خطاً حديدياً في سنة 1872م. ولم يقتصر على ذلك، بل تعداه إلى ربط القاهرة بجميع نواحيها، ومدنها البعيدة والقريبة على السواء؛ مما كان له أبلغ الأثر في انتعاشها.

كل هذه أعمال تخطيطية جلية، كانت تقخر بها مصر في ذلك الوقت، ولا تزال تزهر بها إلى الآن، رغم تقدّم السنين، وابتكار الطرق التخطيطية الحديثة. وهذا دليل كاف على براعة منشئها العظيم، وصائب تفكيره، وتعلقه الشديد بحب بلاده، ورغبته في النهوض بها إلى المستوى الذي جعله يقول بحق: إن مصر قطعة من أوروبا، وليست في إفريقيا.

وقد توالى ظهور المنشآت والقصور الفخمة في عهده الزاهر، وأصبح التسابق في إنشائها وتجميلها ملحوظاً؛ فأعاد بناء قصر الجيزة العظيم، الذي أشرنا إليه آنفاً، بعد أن كان قصرًا صغيراً في عهد المغفور له سعيد باشا، فجاء بناؤه آية في الفن المعماري، كما كانت حدائقه فريدة في نوعها.

ثم بنى قصر الجزيرة، على الطراز الأندلسي، مكوناً من قصر للحريم، (وسلامكين) أحدهما كبير، والآخر صغير. وجعل (بالسلامك) الكبير عقوداً من الحديد المصبوب آية في الفن. كما أحيط هذا القصر حديقة غناء، أبدع في تنسيقها، احتوت على أنواع من الطيور المختلفة، والحيوانات الضارية المتنوعة: كالقيلة، والنمور، والسباع، وغيرها.

وقصر عابدين العامر - بآثار ذلك العهد الخالد - ألا ما أبدع التفنن فيه وفي رياضته وأثاثه الفاخر، وما أروع التنسيق في حدائقه الداخلية التي تعدّ بحق قطعة من جنان الفردوس! وليس أبلغ للدلالة على الافتتان في نظام هذا القصر وطريقة بنائه، ومن أن كل ما أجري فيه بعد ذلك، من إضافات أو تعديلات معمارية - كان القصد منها، المحافظة على كيانه التاريخي الأصلي، مع الانتفاع بما ابتكر من طرق ومواد بنائية حديثة، دون الخروج بقدر الإمكان عن الأسلوب، والتكوين البديع الذي وجد به.

وقد أنشأ (المغفور له) الخديو إسماعيل (غير ما أسلفنا) من القصور الفخمة العظيمة - قصر القبة العامر، وقصر الزعفران القديم، وقصر النزهة على سكة شبرا، وقصر الإسماعيلية، والقصر

العالي، وقصر (المسافر خانة)، وقصر حلوان، وقصر رأس التين العامر بالإسكندرية، وغير ذلك من القصور التي أنشأها للأمراء والأميرات، في مختلف العواصم والمدريات.

ولم تقتصر النهضة البنائية على إنشاء القصور فقط؛ بل تعدتها إلى بناء المساجد العظيمة، ولا سيما مسجد الرفاعي، الذي يعد بحق من أجمل المساجد في العالم، سواء في تنسيقه الداخلي، أم في عظمة مظهره المعماري الخارجي، وكذلك دور المدارس والمستشفيات العديدة، بالقاهرة والإسكندرية، وغيرها من البلاد السودانية. انظر لوحة (36).

كما شيد دار الآثار العربية، ودار (الرصداخانة) العباسية، ومصلحة المساحة التي تعتبر من أهم أعمال العمران، لارتباطها بالزراعة، وتحديد الملكية.

وقد شملت هذه النهضة أيضًا دور التمثيل، التي بُني منها داران عظيمتان: إحداهما التي أطلق عليها (الكوميديا) وقد شيدت في 22 من نوفمبر سنة 1867م، بحي الأزبكية، مكان بيوت صغيرة، دفع الخديو إسماعيل قيمتها بسخاء لأربابها، واحتفل بافتتاحها مساء 4 من يناير سنة 1868م، ولم يستغرق إنشائها، وتجهيزها، وتزيينها بأبهى الرسوم، والنقوش - سوى شهر واثنى عشر يومًا. فيالها من همة عالية! لا يملك الإنسان معها في أحدث الأزمان، وأكثرها تقدمًا، واستحدثًا آلات البناء، إلا أن يدهش معجبًا بهذا المجهود الجبار.

وأما الدار الثانية، فكانت (الأوبرا) إذ بنيت في السنة التالية لبناء الأولى، وفي ظرف خمسة شهور، فقط، بدت في مظهرها الفخم الرائع، الذي لا تزال تتجلى لنا فيه حتى الآن.

وقد احتفل بافتتاحها في نوفمبر سنة 1869م، حيث مثلت فيها (الأوبريت) «ديجوليتو»، بحضور الإمبراطورة أوجيني (عقيلة نابليون الثالث)، وكان ذلك بمناسبة الاحتفال بافتتاح قناة السويس.

ننتقل بعد ذلك الكلام عن المتنزعات العامة، التي شملتها حركة العمران في العصر الإسماعيلي المذكور؛ إذ نسقت حديقة الأزبكية، وابتكرت لها المناظر والرسوم المختلفة، وأنشئت فيها البحيرات، والجدول، والنافورات، واستحضرت لها النباتات من مختلف البلدان: كالهند، والصين، والسودان. كما وضع في بحيراتها مختلف أنواع الطيور المائية والأسماك، وأحاطها بسياج له أربعة أبواب كبيرة، آية في الفن، وما زالت في أماكنها حتى اليوم. فأصبحت بذلك كله متنزهًا بديعًا على شاكلة حدائق باريز، يخلب الألباب، ويروّح عن النفوس، وقد احتفل بافتتاحها سنة 1872م.

وحدائق الأورمان أنشئت أيضًا في عصره، وتعتبر مرجعًا لدراسة أنواع الأشجار والنباتات النادرة المختلفة، التي جلبت من جزائر الروم، وغيرها من سائر البلدان، ونسقت أبداع تنسيق، تجلى فيها الذوق السليم بأجلى معانيه.

وحديقة النزهة بالإسكندرية - من صنع ذلك العهد، وهي في غنى عن الوصف أو البيان، بما اشتهرت به من السعة وجمال التنسيق.

كما عرفت مصر غير ما أسلفنا من آثار هذا العهد الزاهر (ولأول مرة في تاريخها الحديث) التماثيل والنصب التذكارية، فنصب منها تمثالاً بالإسكندرية لجدّه العظيم، محمد علي باشا (رأس الأسرة العلوية الكريمة) وآخر في القاهرة للفتح العظيم، والده المغفور له إبراهيم باشا، وغيرها: كتمثال سليمان باشا، وتمثال لاطوغي.

كما عرفت لأول مرة أيضاً الاشتراك في المعارض الأوروبية؛ إذ اشتركت في معرض باريس سنة 1867م، وخصص لها قسم خاص، عرض فيه جميع نواحي نشاطها وتقدمها؛ فكانت أحسن دعاية لمصر أمام دول العالم، كما كانت سبباً في اجتذاب مشاهير رجال أوروبا وأغنيائها وعلمائها؛ لزيارتها، والتعرّف على حضارتها. وفي ذلك ما لا يخفى من الفوائد والمزايا التي عادت على البلاد.

وعلى الجملة، فقد امتاز عصر إسماعيل العظيم، بتقدّم العمران، والثقافة التي لم تترك ناحية واحدة إلا شملتها؛ فلا غرو إذا اعتبرناه إذن عصرًا ذهبياً لبلادنا المصرية.

وقد تابع خطاه نجله (المغفور له) الملك فؤاد الأول؛ فغمر البلاد بمنشآت عظيمة جديدة، تتصل بكافة النواحي العمرانية والاجتماعية والعلمية.

ورزقها الله من بعده، بحفيده الملك فاروق الأول (أطال الله لنا في حياته). وهو أيضاً شغوف بحب البناء والتعمير، ولا يقل عنهما عطفاً على بلاده وحباً لها؛ فقد أسس وأنشأ الكثير، وعمل ولا يزال يعمل بهمة لا يعترئها فتور، على رفعة شأنها، والوصول بها إلى مستوى الأمم الراقية، بعون الله العليّ القدير.

لوحه (36)

جامع الرفاعي كما كان يبدو عام 1912م



قاهرة إسماعيل

للأستاذ محمد رمزي

المؤرخ والجغرافي ومحقق التراث والموسوعات العلمية

وعضو لجنة حفظ الآثار العربية

كان والده عثمان بك رمزي من رجال الخديو إسماعيل، كتب:

في 18 من يناير من عام 1863م، ارتقى عرش مصر (ساكن الجنان) الخديو إسماعيل، جد صاحب الجلالة، مولانا الملك المعظم (أيده الله). وفي هذا اليوم، بزغ فجر النهضة الإصلاحية الثانية لهذا الوطن، في الحكم السعيد، للأسرة العلوية. وتاريخ إسماعيل العظيم، زاخر بالوثبات والنهضات في جميع مرافق البلاد، من إنشاء وتجديد، وبناء وتشبيد، وتعليم وصناعة، وتجارة وزراعة، وقد ازدهرت فيه الفنون، وتجدد الأدب. والمؤرخ لهذا الأمير العظيم، يحار عندما يقرأ ما سطره بعض ذوي الأهواء الجامحة، من الكتاب الأجانب - في الموازنة بينه وبين الحقيقة السافرة، والآثار الخالدة لعصر إسماعيل.

وسأحاول هنا تصوير القاهرة في أيام إسماعيل، بقدر ما يسمح به الوقت، لا بقدر ما يجب من الشرح والإفاضة؛ لأنها تستغرق مجلدات. ولعلي أوفق بهذه الكلمة، لبيان ما تحضرت به المدينة في عصره المجيد.

مدينة القاهرة

كان إسماعيل محباً للبناء والتجديد، عظيم الآمال في النهوض بأمنته، على غرار ما صنع جدّه الأكبر. نظر إلى مدينة القاهرة، فوجدها محصورة منكمشة في أحضان المقطم، بأحيائها القديمة، وأزقتها الضيقة؛ فمضى قدماً في استنباط وسائل التجميل والتحسين، بفتح الشوارع، وإنشاء المنتزهات، والحدائق، والقصور الفخمة، والمظاهر اللائقة بعاصمة ملك الفراعنة، وحاضرة التشريع الإسلامي.

الشوارع الجديدة

ومن الشوارع والميادين التي أنشأها إسماعيل: شارع العباسية، وشارع شبرا، وأمر بغرس الأشجار القليلة فيهما من اللبخ والجميز، وقد بقيت تلك الأشجار قائمة إلى أوائل هذا القرن؛ فذهبت بسبب أعمال الرصف والتوسيع، ثم ميدان الإسماعيلية (وقد كان في نطاق حديقة القصر العالي) وكل ما نراه اليوم من عابدين، إلى باب الحديد، وفي أحياء المنيرة، وباب اللوق، وسليمان باشا، وميدان

إبراهيم باشا، والتوفيقية - بدأ عمارها في عصر إسماعيل. وقد كان شارعاً شبراً والعباسية، منتزهين للذوات، والأعيان في كل أصيل، قبل إنشاء (كوبري) قصر النيل.

كوبري قصر النيل

كان الشعب يعاني المشاق الجمة في عبور النيل، بالمراكب الشراعية، والمعادي (ولا سيما في خطر الفيضان) منتقلاً إلى البر الغربي، فأنشأ إسماعيل (كوبري) قصر النيل، واتصلت الضفتان: وهو من أضخم الأعمال الفنية التي تمت في ذلك العهد. ولما كان إسماعيل يلقب بأبي السباع؛ فقد أبدعت تماثيل أربعة من السباع النحاسية، وجعلت في مدخلي (الكوبري). وكان أثره عظيمًا في تسهيل وسائل الانتقال، وفي تقدّم الجيزة، وتبادل الشئون الاقتصادية بين العاصمة وبينها، كما أصبحت الجزيرة بعد ذلك منتزه القاهرة العظيم.

ميدان الأوبرا

كان في موضع حديقة الأزبكية، ودار الأوبرا، وميدان إبراهيم (الأوبرا سابقاً) بقية بركة الأمير أربك الأشرفي، التي كان يسميها العامة (بطن البقرة) وكانت تمتد في عهده إلى حارة النصارى، يقوم حولها يومئذٍ حي عامر، من القصور، والحدائق، ومسجد أربك.

وقد ردم جانب منها في عهود مختلفة، أيام الأسرة العلوية. ولما قرب موعد افتتاح قناة السويس، في عهد إسماعيل إلى المهندس الإيطالي السنيور (ماتاتيا) صاحب العمارة المعروفة باسمه إلى اليوم، وكان من المهندسين البارعين - أن يقوم بردمها فردمها، ووضع تصميم حديقة الأزبكية، ودار الأوبرا على ما نراها اليوم (عدا تغيير في داخل الحديقة) كردم بحيرتها الصناعية، ونقل الطيور المائية التي كانت تسيح فيها، والزوارق الصغيرة التي كان ينتزه فيها جمهور زوارها. وثمة تغيير آخر في ميدان الأوبرا؛ بنقل تمثال إبراهيم من مدخل الموسيقي، إلى موضعه الحالي.

حدائق إسماعيل

وأنشأ إسماعيل حدائق الحيوانات، وتربية الأشجار والفاكهة، و جلب إليها الحيوانات النادرة والزهرة والفاكهة، من جميع البلاد، وأقام فيها (الأكشاك) البديعة والجلايات، والبحيرات، والجزر، وجعل فيها شلالات متدفقة، وقد رصفت طرقاتها (بالزلط) الملون في رسوم بديعة.

وأنشأ أيضًا حديقة الأسماك بالجزيرة، وحدائق قصره القائم بجوار (كوبري) «أبو العلا»، وبها من النوافير والتماثيل المرمرية ما يثير الإعجاب، ويشير إلى الطابع الذي طبعت عليه روح إسماعيل، من حب التجميل والتجديد، وجعل مصر قطعة من أوروبا.

عصر الصهاريج

وانقضى عصر صهاريج المياه، التي كانت تبني تحت الدور، والقصور، والمساجد، في أيام الفيضان، ويشرب الأهالي منها، وكذلك أخذ عصر السقائين يتوارى شيئاً فشيئاً، بعد أن أعياهم حمل الماء في القرب إلى المنازل؛ وذلك بمد أنابيب المياه التي اقتصرت حينذاك على القصور والدور الكبيرة، وعمت اليوم القاهرة وضواحيها.

إضاءة الطرقات

وكانت الحكومة تلزم الأهالي بإضاءة الشوارع والأزقة والحارات؛ بتعليق فوانيس على أبوابهم تضاء (باللمبات الغازية) الصغيرة، ليتمكن رجال (الطوف) وهم الشرطة، من الحراسة الليلية. ولم يوجد فيما مضى مكان للخبراء ورجال الشرطة كما هو الحال الآن؛ بل كانوا يطوفون الشوارع والحارات جماعات جماعات، بنداءات معروفة.

وقد سمح إسماعيل للشركات بإضاءة الشوارع بالنور، وأقيمت مصابيح (الغاز) وظلت تمتد مع عمران الشوارع، حتى أصبحت اليوم على ما نرى.

السكك الحديدية

ولا ينسى المؤرخون لإسماعيل، فضله في مد الطرق الحديدية في أنحاء البلاد، وبذل الجهود الجبارة لإيجاد الرخاء فيها، وإنهاض شعبها مع إنكار الذات؛ فلم يطلق على كوبري قصر النيل - كوبري إسماعيل، تواضعاً منه، وإيثاراً للمصلحة العامة وحدها على كل اعتبار آخر.

قصور إسماعيل

كان قصر الحكم إلى أول عصر إسماعيل في القلعة، فأنشأ قصر عابدين العامر، فكان مقرّاً للحكم، ولنظارات الحكومة، وجعل له الميدان والشارع المعروف باسمه.

قصر الجزيرة

وأنشأ قصر الجزيرة إلى جوار حديقة الحيوانات من الناحية القبليّة، وكانت حديقته تمتدّ إلى البحر عند (كوبري) عباس، وما زالت بقايا (جبلاته) قائمة في موضعها. وقد خصص هذا القصر فيما بعد للمتحف المصري، وظل به إلى أوائل القرن الحاضر، فنقل إلى داره الحالية، وهدم القصر، وقسمت أرضه لكلية الزراعة، ومدرسة الطب البيطري، والمسكن والعمارات المحيطة بهما.

قصر الجزيرة

وقصر الجزيرة الذي يمتلكه آل لطف الله، كان من أفخم قصور إسماعيل، و(الكازينو) العربي الطراز المشيد أمامه، والحديقة البديعة المحيطة به، وقد كان لهذا القصر صلة كبرى بحفلات افتتاح

قناة السويس، ونزول الأباطرة، والملوك، والأمراء من المدعوين في ضيافة مصر.

قصر الإسماعيلية

وأنشئ قصر الإسماعيلية فوق الأرض المجاورة الآن للميدان، وكان أيضًا من القصور الملكية العظيمة، يحيط به سور مرتفع وتضمه حديقة غناء، تنتهي بالمسجد الذي بقي بعد هدم القصر، الذي ظل مقرًا (للمغفور له) الغازي أحمد مختار باشا، ممثل الخلافة العثمانية، حتى نقل من مصر، فاستردت الحكومة القصر وهدمته.

دار الكتب

وعني إسماعيل بإنشاء دار للكتب، جمعت فيها نفائس المخطوطات والمؤلفات، وكان مقرها في شارع درب الجماميز، في الدار التي كانت مخزنًا لوزارة المعارف، فلما أنشئت دار الكتب المصرية بميدان باب الخلق، نقلت المكتبة إليها. انظر لوحة (37).

المساجد في عصره

ومن اضخم المساجد التي شيدها إسماعيل، مسجد المشهد الحسيني، ومسجد الرفاعي، وكلاهما من المساجد الفنية العظيمة في فن المعمار. وفي مسجد الرفاعي من النقوش المرمرية، والذهبية، والرخام الملون - ما يجعله من هذه الناحية من أبداع مساجد القاهرة، وإن لم يكن من آثارها. انظر لوحة (38).

النهضة العلمية والأدبية

ولا يفوتنا هنا أن ننوه بالنهضة العلمية والأدبية في عصر إسماعيل؛ فقد وجه اهتمامه لتعليم أبناء الشعب، وإنشاء المدارس للبنين والبنات، ترغيبًا للأمة في تعليم بناتها؛ فكانت مدرسة السيوفية، والمدرسة التي تحتل مكانها الآن وزارة الأشغال، وكلتاهما من مدارس البنات. وكانت تشرف على الأولى سيدة جلييلة من نساء إسماعيل. وقد ازدهر الأدب في عصره؛ فكان من رجاله أمثال: محمود سامي البارودي، ومحمود صفوت الساعاتي، والشيخ علي الليثي، ومحمد عثمان جلال، وعبد الله النديم، وحسن حسني الطويراني، وعائشة التيمورية، ومباركة المغربية.

كما ازدهت الفنون الموسيقية بأمثال: عبده الحامولي، ومحمد عثمان، والشنتوري، والعقاد، والليثي، والجمركشي، والمسلوب، والسيدة ألمظ، وغيرهم.

أفراح الأتجال

وكان أكبر ما عرف في عصر إسماعيل حفلتان: الأولى افتتاح قناة السويس، التي كانت الأولوية فيها للفنون الجميلة الغربية، مبالغة في تكريم الضيوف. أما الثانية فهي أفراح الأنجال، ولياليها الباهرة في القاهرة، فقد عم الفرح المدينة كلها، وتجلى البذخ في أجلى مظاهره، وكانت أرض حي المنيرة القاصرة يومئذٍ على (قشلاق) حرس القصر العالي وحديقته - مسرحًا لهذه الأفراح، ضربت فيها السرادقات، وأقيم السامر والزينات، والفوانيس والثريات. وأقيمت مسارح عالية على بوابة القصر العالي، وسور حديقته للموسيقى.

وخصت ليالي الفرح للمغنين، والطوائف من أصحاب الألعاب، فلم تبق طائفة منها إلا أصابت حظها، وأغدق عليها إسماعيل عطاياه، فضلًا عن الحسنات، والأطعمة التي تقدّم في كل يوم. وقد تنافس أمراء البلد وذواته وكبرائه وأعيانه، في تقديم الهدايا الثمينة، وكان الطرب طوال ليالي أفراح الأنجال، يعم كل مكان، ولم تر القاهرة في ماضيها، شبيهًا لتلك الأفراح، والليالي الملاح، وسبحان من له الدوام!



لوحة (37)

الكتبخانة - دار الكتب الخديوية - بباب الخلق



لوحة (38)

المشهد الحسيني الذي شيده إسماعيل، ويلاحظ التطور الهائل حاليًا عقب عمليات التوسعة والتجديد التي شملت المسجد والساحة الخارجية والمنطقة المحيطة به.

السرايات الملكية بالقاهرة

جرت عادة الملوك والسلاطين أن يشيدوا لأنفسهم القصور الفخمة لتكون مقرًا لملكهم وإقامتهم، وبعض هذه القصور يشيد على حساب الدولة، والبعض يشيد من المال الخاص للملوك، وهي في كلتا الحالتين تعد من المنشآت العامة.

أول من شيّد لنفسه قصرًا من ولاية المسلمين، الذين تعاقبوا على حكم مصر منذ الفتح الإسلامي، كان «عبد العزيز بن مروان» الذي أنشأ عام 80 هـ قصره الذي كان يعرف بـ «المدينة» لضخامته واتساع أرجائه، وتبعه من خلفه من الولاة في عصور الدول: العباسية والأموية والفاطمية، حتى جاء صلاح الدين فشيّد «القلعة» واتخذها مقرًا لحكمه وإقامته. وظلت كذلك حتى عصر سلاطين المماليك، إلى أن ولي محمد علي باشا فأنشأ بها «قصر الجوهرة» ودار «مجلس الأحكام» وكان قد سكن لفترة قصر «محمد بك الألفي» على ضفاف الأزبكية وأطلق عليه «قصر الباشا» وكان نابليون قد اتخذ مقرًا لإقامته ولقيادة الحملة.

قصر الجوهرة:

شيّد هذا القصر عام 1812م، فوق مجموعة من القلاع القديمة داخل أسوار القلعة، وأصبح هذا القصر مقرًا للحكم، يعقد فيه مجلس الوالي، وبه تتم مراسم استقبال السفراء، وقد تم تجديد هذا القصر في عهد الملك فاروق. انظر لوحة (39).

قصر الحرملك:

ثلاثة قصور أمر محمد علي باشا ببنائها عام 1826م، وخصصها للحريم، وتشغل الضلع البحري الغربي للقلعة، وتشرف على جبل المقطم والحطابة ومدخل القلعة، وقد بدأ تشييد هذه القصور الثلاثة بالقصر الأوسط ثم القصرين الشرقي والغربي، يحيط بها جميعاً سور واحد، وأكبرها القصر الشرقي ويعرف أيضاً بـ «قصر الأيتام» ويتوصل إليه من باب معقود بالواجهة القبليّة، مكسو بالرخام الأبيض المزخرف، تعلوه لوحة تذكارية من الرخام، منقوش عليها كتابات بالتركية، جاء فيها: «قد أنشأ ذلك الحاكم العالي الشأن قصرًا جديدًا كتحفة. هو قصر كالجنة، ياله من قصر بديع رائع» وأجمل القاعات هي قاعة محمد علي أو قاعة الفسقية، وبها أربعة إيوانات يتصدرها سلسبيل رخامي، يضم أعمدة رخامية رشيقة بزخارف بارزة على هيئة طيور، تخرج من أفواها مياه تصب في أحواض متدرجة تتساب في قناة الفسقية بوسط القاعة، وقد نقشت الجدران برسوم ملونة تمثل جواسق وخمائل ومناظر طبيعية، والسلم المزدوج يؤدي إلى قاعة علوية كبيرة بها أربعة إيوانات، تتفرع منها عدة حجرات وممرات إلى باقي أجزاء القصر، وقد زينت هذه القاعة بحليات على هيئة عقود محمولة على أعمدة رخامية رشيقة، والسقف يزدان بجداول نباتية وزهور تنوعت أشكالها.

والقصر الأوسط، الدور الأرضي منه عبارة عن قاعة كبيرة، بكل ركن منها حجرتان، احتفظت جميع أسقفها بالنقوش الرائعة المتنوعة بين مسدسات ومربعات وجدائل انتشرت بها الزهور، وحمام عبارة عن طرقة مستطيلة مغطاة بسقف محلى بالزجاج الملون، يليه باب يؤدي إلى حجرة مقسمة إلى إيوانين بينهما درقاعة، وسلم مزدوج محمول على أعمدة رخامية ضخمة، يؤدي إلى قاعة كبيرة بها أربعة إيوانات ذات أعمدة قواعدها مطعمة بالرخام الأحمر وتقاسيم زخرفية نباتية.

ونصل إلى القصر الغربي من باب في السور القبلي، يقودنا إلى فناء مكشوف تشرف عليه واجهة القصر، ويتوسطها باب يؤدي إلى القاعة الكبرى، وقد طرأت تغيرات جسيمة على هذا القصر أفقدته جميع نقوشه الجدارية، وهذه القصور الثلاثة في مجموعها هي ما يعرف الآن بـ «المتحف الحربي القومي» والذي يعد في مقدمة المتاحف الحربية العالمية من حيث ثراء المجموعات وقيمة المباني التاريخية وموقعها بقلعة صلاح الدين.

قصر شبيرا:

شيده محمد علي باشا عام 1808م، وأطلق عليه قصر «شبيرا الخيمة» وفتح شارع شبيرا ليكون طريقاً يصل القاهرة بقصره، وانتشرت على جانبيه أشجار الجميز والأكاسيا، ثم انتشرت القصور والحدائق على جانبي «سكة شبيرا» حتى أطلق على هذه المنطقة «فردوس القاهرة».. كما شيد الباشا شمالي سكة شبيرا قصرًا لابنته زينب هانم وقصر آخر لنجله حليم باشا، وفي قصر شبيرا ولد حفيده عباس حلمي الأول عام 1813م، وكانت به جبالية بوسطها جوسق الفسقية، وهو عبارة عن بناء مستطيل تتوسطه بحيرة من الرخام النادر، في القلب منها جزيرة صغيرة تحملها تماثيل من التماسيح، ويحيط بالبحيرة أعمدة رشيقة من الرخام، وفي الأركان الأربعة، تماثيل رخامية لأسود

رابضة يخرج الماء من أفواهها على قنوات، وتشير بعض المصادر إلى أن مسيو دروفتي قنصل عام فرنسا بمصر هو الذي قام بتصميم هذا الجوسق والبحيرة!

القصر العالي:

موقع هذا السراي هو ما يعرف الآن بحي «جاردن ستي» وهذه المنطقة كانت تعرف بـ «بستان الخشاب» أدخلها محمد علي في أملاك ولده إبراهيم باشا، وأقيمت بها ثكنات للجنود، وعقب عودة إبراهيم باشا من فتوح الشام، أمر بتمهيد أرض هذه المنطقة، ثم شيد سراي القصر العالي، وفي واقع الأمر، كان هذا القصر قصرين يجمعهما سور واحد، القصر الجنوبي خصصه لزوجته الأميرة خوشيار هانم والدة إسماعيل، والقصر الشمالي خصص لزوجته الثانية الأميرة شيوه كار قادين، وقد سكن إسماعيل باشا هذه السراي، وبها ولد الخديو توفيق في 30 إبريل 1852م، وفيه تمت مراسم «أفراح الأبطال» التاريخية، ثم آلت السراي إلى الدائرة السنية، فباعته سنة 1906م بثلاثة أرباع مليون جنيه!.. إلى شركة «شارك باكوس» ونقلت واجهة القصر بالكامل إلى حوش عائلة الوقاد بقرافة المماليك، وقامت هذه الشركة بهدمه وبيع أنقاضه وأثاثه الفاخر وتحفه الثمينة وأشجار حدائقه النادرة إلى كبار الأعيان!

سراي القبة:

شيدها إبراهيم باشا، بالضاحية التي نسب اسمها إلى قبة الأمير يشبك ابن المهدي الدوادر، الذي تولى الدوادارية في عهد السلطان الأشرف قايتباي. والسراي على شكل مستطيل تقريباً وتحتل المباني نحو 70 فدناً، وتشمل بلوكات الحرمك والسلامك وجناح الملك ومكتبه الخاص وقاعة الاستقبال الرئيسية ومكاتب التشريف، ويبلغ طول الضلع الجنوبي المطل على الميدان نحو 400 متر، والضلع الشرقي المطل على شارع ترعة الجبل يبلغ نحو 1800 متر، نفس طول الضلع الغربي المطل على شارع المطرية، والضلع الشمالي المطل على شارع الأمير عبد القادر يبلغ 450 مترًا، ويبلغ طول السور المحيط بالسراي والحدائق نحو 4450 مترًا، وارتفاعه ستة أمتار، وقد أقيمت البوابة الضخمة المفتوحة على الميدان عام 1930م في عهد الملك فؤاد، ومساحة حدائق ومنتزهات السراي نحو 125 فدناً، وقد قام الخديو إسماعيل بتجديده عام 1869م، وخصصه لنجله توفيق باشا، وبهذه السراي ولد الخديو عباس حلمي الثاني عام 1874م ثم الأمير محمد علي توفيق عام 1875م. انظر لوحة (40).

سرايات عباس الأول وسعيد باشا:

شيد عباس الأول عام 1849م «سراي الخرنفش» وأطلق عليها «الإلهامية» نسبة إلى ولده الأمير إبراهيم إلهامي، وكانت قصرًا فخماً تحيطه بساتين رائعة، وقد آلت هذه السراي إلى أسرة البكري نقيب الأشراف، عوضاً عن قصره الذي هدم عند تنظيم منطقة الأربكية في عهد إسماعيل، بحارة عبد الحق المتفرعة من شارع العشماوي، ثم شيد عباس الأول «قصر الحصوة» بالعباسية، محاطاً بثكنات الجيش، وهذا القصر كانت تميزه كثرة النوافذ التي بلغت 2000 نافذة، وقد أهدى إسماعيل

باشا هذا القصر إلى والدته الأميرة خوشيار هانم، كما شيد عباس أيضًا «سراي الحلمية» وتبعه عدد من الأمراء بتشييد القصور والبساتين في تلك المنطقة. كذلك أنشأ سراي «العتبة الخضراء» التي جدها إسماعيل عام 1874م وجعلها مقرًا لنظارة الخارجية ثم للمجلس المخصوص ونظارة الداخلية.

أما الخديو سعيد فقد شيد «قصر النزهة» بشبرا عام 1858م. كما شيدت حرمة الأميرة أنجوا هانم قصرًا ومسجدًا عام 1865م بجزيرة بدران.

سرايات إسماعيل:

سراي الجيزة: فيما بين عامي 1863 و1865م، قامت شركة فرنسية بردم الجزء المتخلف من تحويل مجرى النيل شرقًا، فأنشأ إسماعيل باشا في هذا الجزء، بستاني الأورمان، وسراي الجيزة، التي كانت حدائقهما تمتد إلى موقع كوبري عباس، وفوق مساحة مقدارها 50 فدانًا من بساتين السراي، أقيمت حديقة الحيوان عام 1890م، وبالتحديد في الجزء الذي كان يضم قصر الحرملك وقصر السلامك وما يحيط بهما من بساتين لا مثيل لها، في هذا السراي، مكثت مقتنيات متحف بولاق من كنوز مصر القديمة منذ عام 1891 حتى عام 1902م، وقد هدمت سراي الجيزة عام 1903م، وخصت أرضها لمباني مدرسة (كلية) الزراعة ومدرسة الطب البيطري وبعض العمارات والمنازل!.. وقد ولد الملك فؤاد بهذه السراي في 26 مارس 1868م. انظر لوحة (41).

سراي الإسماعيلية:

شيد إسماعيل باشا سراي «الإسماعيلية الصغرى» بجوار كوبري قصر النيل، ثم شرع في بناء سراي الإسماعيلية الكبرى أو «السراي المستجدة» بمقتضى الأمر الصادر إلى نظارة المالية عام 1871م، ومنطوقه: «قد اقتضت إرادتنا أن الأراضي والأماك التي صار مشتراها بجهة جزيرة العبيط، التي حدها البحري: طريق كوبري قصر النيل، والقبلي: جنينة أخينا المرحوم أحمد باشا، والشرقي: طريق الشيخ يوسف الموصل للقصر العالي ومصر القديمة، والغربي: البحر الأعظم، جميع ذلك يكتب به حجة شرعية، بما في ذلك الأرض الجاري وسيجرى بها بناء السراي المستجدة هناك..» وموقع السراي الآن: المنطقة التي تضم مبنى وزارة الخارجية وجامع عمر مكرم ومجمع المصالح الحكومية، وكانت ممرات الحرملك مغطاة بالبلور الملون تحيطها مجموعات من الأشجار النادرة.

سراي عابدين: انظر لوحة (40)

كانت عناية الخديو إسماعيل ببناء القصور، تفوق ما شيده أسلافه من الولاة والسلاطين، وكان أعظمها روعة وجلالاً «سراي عابدين» التي شرع في تشييدها عام 1869م، وانتهى منها عام 1874م، وقام بتصميمها المهندس «دي كوريل وروسو» مع مجموعة من الفنانين الإيطاليين

والفرنسيين والأتراك والمصريين، وتكلفت المباني 38 ألف جنيه إنجليزي، وتكاليف الديكورات والزخارف والأثاث نحو 700 ألف جنيه، ومساحة السراي 35 فداناً، وقد شيدت في موقع منزل عابدين بك أحد المماليك، وضمت إليها مساحات كانت تشغلها بعض القصور، والدور والحارات، هُدمت بعد مشتراها، وأنشئت ثكنات للحرس على جانبي ميدان عابدين الذي بلغت مساحته 9 أفدنة، وفتِحَ شارعاً عابدين وعبد العزيز لتسهيل الوصول إلى السراي، وتم تخطيط منطقة عابدين وردم ما بها من برك مثل: بركة الفراعين والفوالة والناصرية والساقيين، حتى أصبحت من أجمل أخطاط القاهرة. انظر لوحة (42).

تتكون السراي من طابقين، الأول يشمل مكاتب التشریفات والأمناء وضباط الحرس ومخازن الفضيات، التي قدرت وحدها في بداية ثورة يوليو بأربعة ملايين من الجنيهات! ثم المتحف الحربي، والطابق الثاني، يشمل الأجنحة الخاصة بالملك والملكة والأميرات والوصيفات ومكتب الملك ومكتب الملكة، وجناح لاستقبال الضيوف، وقاعة العرش، وجوار الجناح الملكي، مسرح السراي وقاعة المائدة الملكية الخاصة، ثم قاعة مآدب المناسبات، وقاعة محمد علي الكبير، وقاعة للتدخين تطل على حديقة رائعة تسمى «الحديقة الشتوية» يقابلها قاعة «السالون الأبيض»، وكانت تضم عددًا من اللوحات الزيتية لبعض الملوك والأمراء، ثم «القاعة البيزنطية» الفخمة انظر لوحة (43) وجدرانها من المرمر المحلى بالنقوش الذهبية، أما «الجناح البلجيكي» فهو أفخم الأجنحة بالقصور الملكية عامة، أنشئ في عهد الملك فؤاد. وسبب التسمية أن ملك بلجيكا كان أول من نزل ضيفاً به، وتكلف نحو 40 ألف جنيه! ويتألف هذا الجناح من غرفة للنوم، ملحق بها حمام خاص، وقاعة استقبال وغرفة مكتب وقاعة للتدخين، وعقب الثورة، ألحقت بهذا الجناح غرفة المكتب الخاصة بالملكة ناريمان، وجدران الجناح من المرمر، والأرضية مفروشة بالسجاد الكاشان والشينواه الفاخر، والأثاث من طراز استيل، مزین بتمائيل صغيرة من المرمر المطعم بالذهب وثریات من الكريستال النادر. وقد قام الملك فؤاد بتجديد هذه السراي بما يتناسب مع عنايته الخاصة بها أو ابهة ملكه وتطورات العصر، وبها ولد الملك فاروق في 11 فبراير سنة 1920م.

سراي الجزيرة:

شيدها المهندس النمساوي «يوليوس فرانس» على الطراز الأندلسي، وانتهى من بنائها عام 1869م، في نفس موقع إبراهيم باشا، وصفها عبد الحميد بك نافع بأنها كانت من أعظم المباني التي لم يشيد مثلها وما اشتملت عليه من بساتين وأشجار وأنهار وبرك وقناطر وجبلايات، على مساحة 60 فداناً، وقال عنها علي باشا مبارك: «سرايا للحریم وأخرى برسم سلاملك كبير، خلاف سلاملك صغير إلى الغرب منه، اجتهد فرانس باشا في تشبيههما بالمباني العربية القديمة في شكلها وزينتها ومفروشاتها، وجعل في خارج السلاملك الكبير برسم الزينة بلكونات وبواكي من الحديد جلبت من البلاد الإفريقية، وأحاط البستان بسور وجعل فيه محلات للحيوانات المتنوعة كالفيلة والسباع والنمور والقردة والنسانيس وأنواع الطيور المجلوبة من بقاع الأرض، وفرش مماشيه بالرمال والزلط ووزع فيه فوانيس الغاز».. أقامت به الإمبراطورة أوجيني إبان الاحتفالات الأسطورية بافتتاح قناة السويس، وكانت من أجمل ذكريات عمرها في عام 1879م، اشترته شركة بهلر وحولته إلى فندق،

ثم آل إلى عائلة لطف الله اللبنانية وظل في أملاكها حتى عام 1961م، حيث حولته الحكومة إلى فندق «عمر الخيام».. وفي نهاية السبعينيات، أضافت شركة ماريوت عدة مبان على حدائق السراي، بالإضافة إلى ما تبقى منها، لتصبح الآن فندق ماريوت الجزيرة.

كذلك شيد الخديو إسماعيل عددًا آخر من القصور والسرايات - التي كانت أبرز سمات عصره - منها: قصر الزعفران (مقر إدارة جامعة عين شمس حاليًا) انظر لوحة (45). وسراي الوالدة باشا بخلوان، وللأميرات بناته، شيد سراي الأميرة توحيدة هانم وموقعها الآن مديرية أمن القاهرة ومحكمة مصر، وسراي أخرى بشارع الفلكي (وزارة الإنتاج الحربي) وسراي الأميرة جميلة هانم وموقعها الآن: وزارات التموين والإسكان والبحث العلمي، وسراي الأميرة فائقة هانم - الابنة المتبناه - وهي الآن (ديوان وزارة التعليم).

وسراي الأميرة فاطمة هانم، وكانت إلى الجنوب من سراي عابدين، كما أهداها قصر بولاق الدكرور (حاليًا المتحف الزراعي وديوان وزارة الزراعة) ثم سراي الأميرة زينب هانم وكانت في موقع السفارة الأمريكية بجاردن سيتي.

قصر الطاهرة:

ما بين القبة وحي الزيتون، شيده محمد طاهر باشا - أحد أفراد الأسرة المالكة، ورئيس نادي السيارات الملكي، ثم اشتراه الملك فاروق، وضم إليه الأراضي الفضاء المحيطة به، لتبلغ مساحته ثمانية أفدنة، والقصر تحفة في فن العمارة، ويحتوي على مجموعات من التحف النادرة، والحديقة آية من جمال الطبيعة، تتوسطها نافورة يحيط بها تماثيل نحاسية لملائكة. وتماثيل أخرى تتناثر في أرجاء الحديقة، والمدخل عبارة عن سلمين دائريين في ردهة، يتوسطها تمثال لامرأة شد وثاقها إلى جذع شجرة!.. عقب ثورة يوليو تحول إلى قصر للضيافة.



قصر الجوهرة وقصور الحريم التي تعرف اليوم بالمتحف الحربي القومي بالقلعة

لوحة (40)

الواجهة الرئيسية لقصر القبة



لوحة (41)

الصورة الوحيدة لسراي الجيزة - عام 1869م - والتي ولد بها الملك فؤاد



لوحة (42)

قصر عابدين كما كان يبدو عام 1876م



لوحة (43)

حدائق قصر عابدين



لوحة (44) القاعة البيزنطية الشهيرة بسراي عابدين



لوحة (45)

قصر الزعفران - إدارة جامعة عين شمس حالياً

حدائق لها تاريخ!

للقاهرة الحديثة، حدائق لها تاريخ رائع.. مسطور على جذوع أشجارها وممراتها وقنواتها، وإن امتدت يد الزمان لتشوه بعضًا من هذا التاريخ!

ولقد مر امتداد مدينة القاهرة، خلال القرن الماضي، بمراحل تطور الحدائق - كما يشير الباحث الفرنسي «جان أرنو» سواء كانت حدائق تحيط بالقصور أو مناطق مزروعة غابات أو مزارع للفاكهة والخضروات على أطراف المدينة، أو الحدائق العامة والمنتزهات، فالأشكال المختلفة لتداخل الحدائق والبساتين في تكوين المدينة، تمثل جانبًا هامًا في الإحاطة بتطور القاهرة في القرن التاسع عشر، والنصف الأول من هذا القرن، وفي تحديد عمليات الكثافة السكانية في الحيز الحضري.

حدائق شبرا:

كانت شبرا فيما مضى هي «فردوس القاهرة» كما وصفها الأديب الرحالة البريطاني «دوجلاس سلادين» في منتصف القرن الماضي، وأشاد بالقصور المشيدة على الطراز الإيطالي، المحاطة بأندر النباتات والزهور وأشجار النخيل والبرتقال والموز، وكانت المقر المفضل لمحمد علي باشا..

وتحت عنوان «ذكرى من شبرا» سجل الفرنسي: جيرار دي نيرفال انطباعاته عن قصر شبرا وحدائقه، الذي «جعل منه محمد علي: جنة الشرق»!..

وقد بلغت حدائق وبساتين شبرا من السحر والجمال حدًا جعل الفنان الرحالة الفرنسي «مونتبار» يصفها بأنها: «شانزليزيه الشرق»!

وإذا اطلعنا على خريطة القاهرة عام 1800م، التي وضعها علماء الحملة الفرنسية، سنجد أن منطقة شبرا كانت أرضًا زراعية بها كثير من البساتين وبعض المساكن المتناثرة وأشجار الجميز بجزيرة بدران، وعندما شيد محمد علي قصر «شبرا الخيمة» تم تمهيد طريق تحفه أشجار الجميز والأكسيا، أطلق عليه «سكة شبرا» وافتتح عام 1808م، وفي الفترة من عام 1830 إلى عام 1835م، لوحظ انتشار كبير للقصور والحدائق على جانبي شارع شبرا، رغبة من الأمراء في الاقتداء بالوالي.. والالتفاف حوله! وكانت حدائق شبرا موضع اهتمام وفترة أساسية في برنامج زيارات الأوروبيين، والرحالة منهم خاصة، وكم أبدعوا في وصف تلك الحدائق، والعربات الفخمة التي تجرها الجياد المجرية المطهمة، تحمل أفراد الأسرة العلوية، والأمراء وكبار الأعيان، يتقدمها قمشجية (سواس) بستراتهم المزركشة يفسحون لهم الطريق، بينما النسيم يتضوع برائحة أزهار البرتقال والياسمين والتمر حنة!

حدائق إبراهيم باشا بالروضة:

بجزيرة الروضة، شيد القائد إبراهيم بن محمد علي، حديقة على مساحة أربعين فدناً، قسمت إلى قسمين، الأول نسق على الطراز الإنجليزي، والثاني على الطراز الفرنسي، وكانت تضم مجموعات من النباتات والأشجار الأوروبية والهندية والأمريكية النادرة، وقد شيد الأمير «محمد علي توفيق» على جزء منها (نحو 15 فدناً) السراي الشهيرة التي تعرف الآن بـ «متحف قصر المنيل»..

وجزيرة الروضة في زمن الفتح الإسلامي، كانت تعرف بـ «الجزيرة» و«جزيرة مصر الفسطاط» ومع مطلع القرن السادس الهجري، أنشأ بها الوزير الأفضل بن بدر الجمالي «بستان الروضة» فصارت تعرف بجزيرة الروضة، وسمها الإدريسي صاحب: نزهة المشتاق «دار المقياس» وأقام بها بعض المنتزهات المحاطة بالبساتين وصفت بـ «جنان الدنيا»!

وهو في طريقه إلى دار المقياس، حدثنا «جومار» أحد علماء بونابرت، عن طريق طويل يبلغ 1200 متر على جانبيه مجموعات من أشجار الجميز الجميلة و«بالتقدم جهة الجنوب، تصل إلى بستان المقياس، حيث كثرة من أشجار البرتقال والليمون المورقة والمزهرة دائماً، جعلت من هذا المكان متنزهاً يعبق بأزكى العطور، بينما آلاف العصافير تغرد... لكنها تفتقد إلى الممرات فتبدو أشبه بالغابات الكثيفة».

حديقة الأزبكية:

إذا كان حي الحلمية الجديدة قد حل محل عدد كبير من الحدائق والقصور، التي شيدت أصلاً على «بركة الفيل» القديمة، فإن حديقة الأزبكية والمنطقة المحيطة بها، قد شيدت على بركة الأزبكية التي ردمت عام 1864م، وكانت مساحتها 60 فدناً، وتنسب إلى الأمير: سيف الدين أربك بن ططخ الأشرفي الظاهري، وقد أشار «الجبرتي» إلى شهرة الأزبكية كمركز للتنزه واللذات والمتع الليلية في زمن الفيضان، كما أنها كانت منطقة جذب للطبقة البورجوازية من الأمراء والبكوات وكبار التجار والأعيان، وقد أبدع المؤرخون والرحالة العرب والأوروبيون والشعراء في وصف بركة الأزبكية، خاصة في احتفالات «كسر الخليج».

وقد كلف الخديو إسماعيل المهندس الفرنسي «باريل ديشان» الذي كان مسئولاً عن بساتين باريس، بتصميم وتنفيذ حديقة الأزبكية، فشيدها على نمط حديقة «مونسو» و«ريفولي» بباريس، على مساحة 20 فدناً، وزودت بـ 2500 مصباح غاز، وأقيم بها مسرح للعروض الكوميديّة، وبحيرة رائعة، وجبلية صناعية، وممرات مظلمة، وجسور على بحيرات صغيرة وقنوات، ومراكب للنزهة تسير بالبدال، كما كانت مزودة بالحوانيت ومنصة لبيع الدخان ومعمل تصوير، ومطاعم ومقاه أوروبية وشرقية، وغرس بها مجموعات من أندر أنواع الأشجار، التي استوردها باريل بك من أوروبا والهند وإفريقيا والبرازيل وأستراليا، وبعض من هذه الأشجار النادرة موجود حالياً بحديقة الأسماك بالزمالك.

وعنها تقول د. نعمات أحمد فؤاد «كانت حديقة الأزبكية - كما تحكي جدتي - في وسطها فسقيات تنتثر حولها المصابيح، وبها الجبلية على أبداع طراز وتخوت الطرب، وكانت الكراسي توجر

بثمن زهيد لعشاقه، فلما شبت ثورة 1919م، كانت حديقة لأزبكية مسرحًا للمقاومة السياسية والاجتماعية منها.. وبالقرب من الأزبكية، كانت حديقة «روستي» التي أقيم محلها حي تجاري عام 1890م.

حدائق الأورمان:

فيما بين عامي 1863 و1865م، قامت شركة فرنسية بردم الجزء المتخلف من تحويل مجرى النيل شرقًا، وأنشأ إسماعيل باشا في هذا الجزء: بساتين الأورمان (الغابة) وسراي الجيزة التي كانت حدائقها تمتد إلى موقع كوبري عباس، فكانت الأورمان من أعظم المشروعات التي اضطلع بتنفيذها باريل بك، على مساحة 465 فدانًا، وغرس بها مجموعات من الأشجار النادرة والمستوردة من أوروبا والهند والصين والمناطق الاستوائية، بعد أن تم تغطية الأراضي بطمي النيل بارتفاع مترين، وكان الخديو قد أمر بمد خط سكة حديدية خاصة لضمان سرعة إنجاز هذا المشروع، فكانت من أجمل المتنزهات، بأشجارها وأحراشها وأزهارها وبحيراتها وتلالها ونافوراتها وجبلاياتها وأنوارها الغازية، لتفوق في بهجتها حدائق الأزبكية. انظر لوحة (46).

في 7 فبراير سنة 1928م، وضع حجر الأساس للجامعة المصرية (فؤاد الأول - القاهرة) التي خصص لها نحو 90 فدان من بساتين الأورمان، ثم اقتطع جزء طولي لشق شارع الجامعة، ليفصل بينها وبين حديقة الحيوان، وكان للبرنس حسين كامل (السلطان) قصر على جزء منها كما اقتطع جزء لبناء مصلحة المساحة، وآخر لتشييد مبنى مديرية أمن الجيزة.

حديقة الحيوان: انظر لوحة (47)

في عام 1890م، خصصت مساحة 50 فدانًا من بستان سراي الجيزة، لإقامة حديقة الحيوان، التي أصبحت في طليعة معارض الحيوان والطيور في العالم، وفي سراي الجيزة هذه، مكثت مقتنيات متحف بولاق من عام 1891 حتى عام 1902م، عندما انتقلت إلى المتحف المصري، وقد هدمت السراي عام 1903م، وخصصت أرضها لمباني مدرسة (كلية) الزراعة ومدرسة الطب البيطري، والمساحة التي خصصت لحديقة الحيوان، شملت حديقة الفاكهة وحديقة قصر الحريم والسلامك، ثم أضيف إليها جزء من حدائق الأورمان، وتضم الحديقة: متحفًا للحيوان: أنشئ عام 1906م وممرات بالزلط الملون وأكشاك ملكية وكوبري معلق وجبلية للقرود وجبلية أخرى ملحقة بها بحيرة للبط. ومدخل هذه الجبلية يزخر بمجموعة نادرة من نبات الصبار، وعقب نقل تمثال «نهضة مصر» من ميدان باب الحديد، إلى موقعه الحالي، أطلق على الشارع الفاصل بين حديقتي الأورمان والحيوان: شارع نهضة مصر.

حديقة الأسماك:

عندما كلف إسماعيل باشا مهندس البلاط الخديوي «فرانس باشا» عام 1863م، بتشيد قصر بجيزة الزمالك، انتهى منه عام 1868م، فكانت السراي على غرار قصر الحمراء بغرناطة،

واستخدم كمقر لإقامة الإمبراطورة أوجيني وحاشيتها خلال احتفالات افتتاح قناة السويس، وقد أقيمت هذه السراي في نفس موقع قصر إبراهيم باشا، وقيل إن حدائق هذا القصر - لم يكن لها مثيل - بما اشتملت عليه من أشجار ونباتات نادرة وأنهار وبرك وقناطر وجبليات، على مساحة 60 فداناً.

بالقرب من سراي الجزيرة (الماريوت حالياً) شيد إسماعيل باشا «حديقة الأسماك» التي تطل واجهتها على نيل الزمالك، بشارع الجبلية، نسبة إلى الاسم الذي اشتهرت به الحديقة نفسها في ذلك العصر «حديقة الجبلية».. و خلال هذه الجبلية الصناعية الرائعة، شقت مغارات وممرات يسير فيها الزوار، ووضعت بها صناديق زجاجية، مازالت تحوي مجموعات متنوعة من الأسماك النيلية والبحرية وأسماك الزينة، تتعكس عليها أشعة الشمس من خلال فتحات علوية تضيء عليها جمالاً، و الحديقة من تصميم المهندسين الإيطاليين «كومباز ودويليو» اللذين اشتهرا بتصميم هذا النوع من الحدائق.

الحديقة اليابانية بحلوان: انظر لوحة (48)

بدأ الاهتمام بحلوان - في العصر الحديث - بزيارة إسماعيل باشا لمنطقة العيون الكبرى (المعدنية) عام 1871م، حيث أمر بإنشاء حوض سعته 5 آلاف متر مكعب وفندق للمسافرين، ودار للاستشفاء، وتمهيد طريق من النيل إلى حلوان طوله 4 كم، ثم افتتح خط سكة حديد حلوان في 21 يناير 1877م، وشيد قصر «الوالدة باشا» كما شيد الخديوي توفيق قصرًا على مساحة 20 ألف متر مربع واقتدى به عدد من الأمراء، وبدأ العمران يزحف من شرق السكة الحديدية إلى الغرب نحو الحمامات.

ومن أشهر معالمها: الحديقة اليابانية، التي اشتهرت بالأربعين تمثالاً لبوذا، يتحلقون حول بحيرة كبيرة، ومظلات على شكل الأكواخ اليابانية، تنتظم على الممرات، وأشجار عتيقة وارفة، كذلك «حديقة الحياة» التي أقيمت على مساحة أربعين فداناً، تنتشر بها أحواض الزهور والنباتات النادرة، وقنات وبحيرات وجسور خشبية، تشكل جميعها معزوفة للجمال على أوتار الطبيعة.

حدائق القناطر الخيرية:

راودت فكرة القناطر محمد علي باشا، إلى أن عهد إلى «موجيل بك» ببدء تنفيذ المشروع عام 1842م، وأتمها «محمد مظهر بك» عام 1861م، وتولى علي باشا مبارك نظارتها عام 1868م، إلى جانب إدارته لديوان الأشغال العمومية وديوان المدارس. وحدائق القناطر أنشئت - في تلك الفترة تقريباً - مساحات شاسعة من المساحات الخضراء، تتخللها أحواض للزهور والنباتات، ومجموعات من أشجار النخيل النادرة، وتنتشر بها المشاتل الحكومية والخاصة، وهي منطقة جذب لشباب المصريين، لممارسة رياضة ركوب الدراجات والتنزه بعربات الحنطور وركوب الخيل بين المروج الخضراء، والرحلات النيلية الجماعية في المراكب ذات الأعلام والبالونات والألوان الزاهية.



لوحة (46)

مشهد من حديقة الأورمان: البحيرة والجسر الخشبي الشهير



لوحة (47)

جانب من حديقة الحيوان في بداية الخمسينيات، حين كانت المشايات والطرق بالحديقة تزدان بحصى ملون في أشكال نباتية رائعة

لوحة (48) الحديقة اليابانية بطلوان



لوحة (49)

حدائق القناطر الخيرية